نور على نور

فِي

سيرة حامل لواء الشرف والمجد ﷺ

فــوائـــد وعــبــر

تأليف

أبي زكريا أحمد بن أبي بكر آل مصطفى

الرِّغَاسِي

مُقَدَّمَةُ الْمُؤَلِّفِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَوَّر العالَم الكوني بأنور الأنوار، وأضاء جميع الظلمات بأحسن الأضواء: محمد بن عبد الله أفضل الخلق على الإطلاق، وحامل لواء الشرف والمجد غاية الخير كله، السبيل الوحيد للنجاح والفلاح والفوز والسرور والبهجة بأنواعها.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أرحم الراحمين وعمدة المتوكلين، أحمده تعالى غاية الحمد على بعثته محمدا ﷺ نبيا فينا، وأشكره منتهى الشكر على هذه النعمة العظيمة التي هي أجزل النعم، والمنحة السبحانية التي هي أفضل المنح، وأشهد أن نبينا محمدا المبعوث رحمة للعالمين عبد الله ورسوله إلى جميع الثقلين، أرسله الله مبشرا ونذيرا لجميع الورى، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، صلوات ربي وسلامه عليه على الدوام والاستمرار، وعلى آله وأصحابه النيرين خير الأمة، ومَن تَحَزَّبَ لهم بإحسان إلى يوم المعاد.

أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى أرسل نبينا محمدا ﷺ إلى عموم الثقلين بشيرا ونذيرا تحقيقا للسعادة الربانية، والفوز بالمنحة الوهابية، لا شك ولا مرية أنه ليس هناك أعظم نعمة أنعم الله تعالى بها على الإنس والجن من بعثة نبينا محمد ﷺ ليرشدهم إلى أصل الخير الأبدي السرمدي الذي لا ينفد ولا يفنى، ولينذرهم بأصل الشر الذي لا تحمد عواقبه، وقد فعل النبي ﷺ ذلك كله، إذ ليس هناك خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر

إلا حذرهم عنه، ولذا كان من الجدير أن يعرف سيرة هذه الشخصية الفريدة التي لم يشهد مثلها العالم الكوني منذ بداية تاريخه، فإن ذلك مما يلزم كل المسلم، فأقل ذلك أن تعرف اسمه، ونسبه، وما تحلى به من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب التي أدهشت العالم البشري من حسنها وجودتها التي بلغت منتهى ذروة الكمال.

وقد تتابعت المدونات النفيسة الغالية التي تدندن حول السيرة المصطفوية العطرة الطيبة منذ انتصاف القرن الأول الهجري إلى العصر الراهن، وأول من فتح هذا الباب هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني المولود سنة (80) المتوفى سنة (151)هـ صاحب المغازي، ثم تعاقبه من بعده من العلماء بالتصانيف المفيدة حول هذا الباب القدير، ولم يزل الأمر كذلك حتى اليوم، ولذا يعسر إحصاء الكتب المدونة في السيرة النبيوة على وجه الدقة، وبالله التوفيق.

ثم إن المقصود من دراسة السيرة النبوية العطرة لم يكن قاصرا على مجرد معرفة الذات والشخصية كسير الملوك والعظماء والقادة بدون تبصر وعبر، بل، الغاية المقصودة من ذلك الاعتبار بما في سيرته ﷺ من جميع مكارم الأخلاق ومحاسنها من الصبر على الأذى، والحلم، والأناة، والتوكل الكامل على الله تعالى، والاجتهاد في العبادة والنوافل الخيرات، والسخاء الوافر المدهش، والكرم الكامل، والجود الباهر الفائق، وما في معنى ذلك من جميع أنواع الخير والبر والتقوى التي لم تجتمع في أحد سواه ﷺ، فيقتدي به المسلم في ذلك ما استطاع، إذ ليس هناك أحد يقدر

على مماثلته ﷺ في محاسن الأخلاق المماثلة التامة مهما بلغ من الصلاح والتقوى.

ومن ذلك أيضا مساعدة الدعاة على معرفة أساليب الدعوة ومراحلها المتوالية، وما يناسب كل مقام منها، فتكون دعوته على بصيرة وحكمة وفاقا لقوله تعالى: « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » الفرقان: (38)
ويتعلم من خلال ذلك أيضا الصبر على جفاء الجهال وإيذائهم، وكيفية مواجهة أي عائق من العوائق الدعوية وصعوبة من الصعوبات الحاصلة منها، والموقف الصحيح تجاه الشدائد والفتن.

ومن ذلك أيضا مساعدة العالم على فهم كتاب الله تعالى والسنة النبوية المطهرة، إذ أن سيرته ﷺ هي المرجع في ذلك، فإن معرفة أسباب نزول الآيات القرآنية تكون بالرجوع إلى سيرته ﷺ العطرة وتتبعها، وكذلك معرفة مغزى كلامه ﷺ.

ومنها مساعدة المسلم على حسن السياسة وكيفية التعامل مع خصمه في ذلك، فالمطالع لسيرته ﷺ يتعلم من خلالها كيفية تعامله ﷺ مع خصومه السياسيين كعبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فيستفيد من ذلك صبر النبي ﷺ على سعي هذا المنافق ومحاولته على إضعاف شوكته وتنفيره الناس عنه ﷺ.

ومن ذلك مساعدة أمير الجيش على معرفة منهج النبي ﷺ الناجح، ونظامه المحكم، وتخطيطه الواضح في فنون القيادة التي تسبب النصرة والظفر على الأعداء.

ومن ذلك أيضا مساعدة المسلمين على معرفة عوامل نهوض الدول الإسلامية وأسباب سقوطها، ووسائل العز والسؤدد والشرف والمجد لهم.

ومن ذلك أيضا تكسب المسلم محبة النبي ﷺ وتنميتها من خلال دراسة سيرته الطيبة، لما يلحق به في ثناياها من مكارم أخلاقه ﷺ وتواضعه، وحلمه، وشجاعته، وجوده، وكرمه، وسخائه، ومساعدته الأيتام والمحتاجين، وحبه الخير لأمته مع بغضه الشر لهم، وقناعته بما قسم الله له، وما لحقه من الضرر والإيذاء في الله تعالى وما في معنى ذلك، لا شك أن هذه الأشياء من العوامل التي تكسب لمن اتصف بها المحبة.

وهناك فوائد كثيرة لدراسة السيرة النبوية الشريفة العطرة التي هي الغاية المطلوبة من دراستها، غير أن ضيق المقام لا يسعنا ذكرها هنا، وسيأتي كل منها في موضعه المناسب خلال الدراسة إن شاء الله تعالى.

ولما كان الإنسان حريصا على اقتناء ما يحصل على غلته من مال، وادخار ما يتحصل منه الخير والمنافع، حفزني ذلك على إعداد هذا الكتاب الذي يدندن حول السيرة النبوية الشريفة العطرة ليكون ذخرا لي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وصدقة جارية أنتفع بغلتها وأنا مدفون تحت التراب، إذ أنه ليس هناك غلة أفضل وأنفع من المتحصلة من عمل الخير الذي يجري، ثم إن هذا الكتاب يكون على النمط والمنهج الذي اعتدته في تصنيفي وتأليفي، وهو منهج الاقتصار الذي بين

الإطناب الممل والاختصار المخل بالفوائد، أسأل الله العظيم المنان أن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، إنه مجيب للدعوات.

أَخُوكُمْ فِي اللهِ أَبُو زَكَرِيَّا الرِّغَاسِيُّ.

تَحْرِيرًا: (5) مِنْ ذي القعدة (11) سَنَةَ (1445) هـ - (15) مِنَ الشَّهْرِ (5) سَنَةَ (2024)م.

التعريف بالسيرة

لفظ: (السيرة) بكسر السين وفتح الراء اسم مشتق من السير بفتح السين وسكون الياء مصدر من سار يسير، وترجع دلالته اللغوية إلى المضي والجريان، يقال: سار يسير إذا ذهب، وسميت القافلة السيارة لكونها تسير ذهابا وإيابا، وأما المقصود بالسيرة هنا: الطريقة والسلوك، أو السنة، أي الحالة التي يكون عليها الإنسان من تصرفاته واتجاهاته الشخصية بقطع النظر من كونها حسنة أو سيئة.

فالمقصود بسيرة النبي ﷺ عبارة عما حدث من حياته ﷺ من ولادته، ونشأته، وأخلاقه، وآدابه، ورسالته، ودعوته، وغزواته، وسائر تصرفاته الشخصية والدينية حيث يعرف المرء خلال تتبعه إياها جميع ذلك، وبالله التوفيق.

الفرق بين السيرة والتاريخ:

قبل معرفة الفرق بين السيرة والتاريخ ينبغي أن نعرف معنى التاريخ كي يستبين لنا الفرق جيدا، وبالله التوفيق.

التعريف بالتاريخ:

لفظ التاريخ بكسر الراء مصدر من أرخ يؤرخ بتشديد الراء، وأصله التأريخ بالهمزة وفقا للقاعدة، وهو المشهور عن العرب، والتخفيف لغة، غير أنهم يطلقون لفظ التاريخ على جملة الحوادث والوقائع التي وقعت عَبْرَ الأزمنة الماضية، والتأريخ على القيام بتسجيل هذه الأحداث وكتابتها، وبيان كيفية وقوعها وأسبابها، كما يطلق التاريخ

على الوقت الحاضر، فيقال: تاريخ اليوم مثلا 25 من شهر ربيع الأول سنة 1442هـ.

والتاريخ الميلادي، هو عبارة عن تسجيل الحوادث الواقعة من بداية ميلاد نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام إلى اليوم، والهجري عبارة عن تسجيلها من بداية هجرته ﷺ إلى يومنا هذا، ثم إن أصل الكلمة ليست عربية محضا، وإنما أخذها المسلمون من أهل الكتاب كما ذهب إليه بعض أهل اللغة، وقابلهم البعض فرجحوا القول بعربيتها، والله أعلم.

وأول من أرخ للمسلمين تأريخهم الهجري هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسبب ذلك أنه أتي بصكّ مكتوب إلى شعبان فقال: أهو شعبان الماضي أو شعبان القابل؟ ثم أمر بوضع التاريخ واتفقت الصحابة على ابتدائه من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وجعلوا الشهر المحرم أول أشهر السنة، وكانوا يعتبرون في ذلك بالليالي، لأن الليل عند العرب سابق على النهار، ولكونهم أُمِّيين لا يحسنون الكتابة كما لا يعرفون حساب غيرهم من الأمم، فتمسكوا بظهور الهلال، ومن المتعارف عليه أنه يظهر بالليل، وبالله التوفيق.

ومن خلال ما سلف يتبين لك أن الفرق بين السيرة والتاريخ هو أن السيرة ما كان عليه المرء من أحواله التي نشأ فيها من تصرفاته واتجاهاته الشخصية الحياتية، والتاريخ ما حدث من الحوادث والوقائع عبر الزمان بغض النظر عن كونه حسنا أو سيئا، متعلقا بشخص أو بشيء ما، فالسيرة خاصة بذات المرء وشخصيته، والتاريخ عام في

جميع الحوادث الواقعة، ويجمع على تواريخ بزنة مفاعيل صيغة منتهى الجموع، والمؤرخ: العالم بهذه الحوادث والمسجل لها، والجمع: المؤرخون، والله تعالى أعلم.

العرب قبل الإسلام

لما كان النبي ﷺ عربيا، ونشأ في الجزيرة العربية وفي الشعب العربي، وكانت دعوته النبوية التي قام بها نفسه من بدايتها إلى وفاته في ذلك المجتمع، كان من المستحسن أن نعرف نبذة يسيرة عن أحوال العرب قبل الإسلام من الولايات، والإمارات، والديانات، والاعتقادات، والتقاليد، والمعاملات، والعادات، وكذا أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية وما في معنى ذلك، وبذلك نعرف مدى تأثير دعوته ﷺ في ذلك المجتمع على وجه الخصوص، وفي العالم على العموم، وبالله التوفيق.

جزيرة العرب:

لفظ الجزيرة بفتح الجيم وكسر الزاي وفتح الراء اسم مشتق من الجزر بفتح الجيم وإسكان الزاي، وترجع دلالته اللغوية إلى القطع، والمقصود بالجزيرة هنا أرض يحيط بها الماء من جميع جهاتها الأربع، وسميت بذلك لانقطاعها عن معظم الأرض بفصل الماء بينهما، ومن ذلك جزيرة العرب، غير أنه يحيط بها الماء من أطرافها الثلاثة لا جميع أطرافها الأربعة.

وتَحُدُّ جَزِيرةَ العرب جنوبا اليَمنُ والبحرُ الأحمرُ، وشمالا بلاد الشام والكويت من الشمال الشرقي، وشرقا بلاد العراق، وغربا البحر العربي، وهناك أقوال أخرى في هذا التحديد، غير أن هذا هو الراجح، وقدر مساحتها ثلاثة مليون (3،000،000) كيلومتر مربع أو نحو ذلك، والله أعلم.

وأما لفظ العرب فهو مأخوذ من قولهم أعرب إذا بَيَّنَ فأوضح مع الإفصاح، ولا شك أن لسان العرب أفصح وأبلغ من جميع الألسنة.

أقسام العرب من حيث السلالة:

ثم إن جماعة العرب على ثلاث طبقات من ناحية سلالاتهم، وهي: عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة، وفيما يليك القائمة ببيان كل منها على الترتيب:

العرب البائدة:

وهم أول العرب الذين انقرضوا وبادوا بأجمعهم قبل البعثة، وينسبون إلى إِرَمَ أو لَاوِذَ، ومنهم عاد، وثَمود، وجُرْهُم، وعَمَالِقَة، وجَدِيس، وجَاسِم، وأُمَيْم، وعَبِيل، وخلق سواهم، ولم يحفظ التاريخ شيئا كثيرا مفصلا عنهم، وبالله التوفيق.

العرب العاربة:

وهم العرب القَحطانيون نسبة إلى جدهم الأعلى قَحطان بن عابر بن شالَخ بن أَرْفَخْشَد بن سام بن نوح عليه السلام، وبه قال جماهير المؤرخين والنسابين.

العرب المستعربة:

وهم العرب الذين انحدروا من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام من زوجته رِعْلَةَ بنت مِضَاض بن عمرو الجُرْهُمِية، وإنما سموا بالمستعربة لكونهم ليسوا العرب المحض، بل اندمجوا في العرب العاربة وأخذوا منهم اللغة العربية، فإن إبراهيم أبا جدهم الأعلى ليس عربيا، بل، هو أعجميا من أرض العراق، فهاجر إلى أرض حران بقرب فلسطين،

ورزقه الله تعالى من هاجر إسماعيل، فقدم بهما الحجاز، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، وبلغ إسماعيل أشده فتزوج رِعْلَةَ بنت مِضَاض المذكورة من العرب العاربة فتعلم العربية ونطق بها أولاده بعده.

ويقال لهم أيضا: العَدنانيون نسبة إلى جدهم عَدنان بن أُدَد، ومن هذا النسل المبارك الطيب جاء نبينا محمد ﷺ كما سيأتي في ذكر نسبه، وبالله التوفيق.

الجاهلية: الجاهلية منسوبة إلى الجهل، وهو معروف، والمقصود بالجاهلية في الاصطلاح الشرعي: العصر الذي سبق الإسلام الذي عاش العرب فيه، وإنما سمي بذلك لما غلب عليه من الجهل بالشرائع السماوية، وتلبس الناس بأنواع المعاصي ما ظهر منها وما بطن من عبادة الأوثان، والشرك بأنواعه، والظلم، والكبر، والمفاخرة بالأنساب، والطعن في النسب، والندبة والعويل، والاستسقاء بالأنواء وما في معنى ذلك، ثم إن الجاهلية لا تقتصر على العصر الذي قبل الإسلام والعرب، بل تشمل جميع الأعصار التي يعيشها الناس على الحالة المذكورة، والأشخاص الذين يعيشون كذلك، وكذا الأماكن، فباعتبار هذا يمكن أن نقسمها إلى المطلقة والمقيدة، ومن ذلك المكانية، والزمانية، والشخصية، وبالله التوفيق.

أحوال العرب قبل الإسلام

ويشمل ذلك دياناتهم، ومعاملاتهم، وعاداتهم، ومجتمعهم، واقتصادهم، والولايات والإمارة، وفيما يليك بيان ذلك على الإجمال، غير أنه يندرج بعضها تحت البعض، وبالله التوفيق.

ديانات العرب:

الذي حفظه لنا التاريخ أن أغلب العرب كانوا على دين جدهم الأكبر إسماعيل تبعا لملة أبيه إبراهيم عليهما السلام، فإن معظمهم إبراهيميون دينا وملة، يعبدون الله تعالى وحده لا يشركون به شيئا في عبادته، ولم يزالوا على ذلك حتى تطاول عليهم الزمن، فظهر فيهم رجل يتظاهر بالصلاح من الأمر بالمعروف وما في معنى ذلك من أمور البر، ويسمى عمرو بن لحي الخزاعي من قبيلة خزاعة ورئيسها، فأعجب به الناس وأحبوه، وعدوه من العلماء الربانيين وأفاضل الأولياء، وذات يوم سافر إلى الشام فوجدهم يعبدون الأصنام، فأعجبه ذلك واستحسنه لظنه أن ذلك حق اغترارا بأن الشام من منازل الشرائع السماوية، فقدم معه بصنم من العقيق الأحمر على شكل الإنسان يسمى هُبَل، ونصبه في جوف الكعبة ودعا أهل مكة إلى عبادته والتضرع إليه، فأجابوه وعكفوا عليه عبادة وتعظيما، ثم تبعهم في عبادته من يجاورهم من أهل الحجاز، ومن أصنامهم التي يعبدونها العُزَّى، ومَناة، واللات، وغيرهن، وكانت العزى لقريش وغيرها، ومَناة لخُزاعَة وهُذَيْل، واللّات لثَقِيف بالطائف، غير أن هبل أقدمهم، بل، هو أول صنم لهم وأعظمه كما سبق، وتليه مناة في القدم.

وقد دخلت فيهم اليهودية والنصرانية، ودخل فيهما التغيير والتبديل والخرافات وغير ذلك من العادات والتقاليد التي كانت في الوثنيين، وهذا شيء يسير عن ديانات العرب، وبالله التوفيق.

الأخلاق والتعامل فيما بينهم:

من المتعارف عليه أن العرب كانوا على مقام سامي في حسن المعاملة والأخلاق الحميدة، وإن كان فيهم شيء من الدناءة والأمور الرذيلة التي تنكرها العقول البشرية السليمة، فإنهم آية في الكرم، والجود، والسخاء، وإكرام الضيوف، والوفاء بالعهد، والحلم، والأناة، وما في معنى ذلك، تجد منهم الرجل يتحمل الحمالات والديات المدهشة إبراء لذمة صاحبها وكفا لهتك عرضه أو سفك دمه، وتجد الرجل عندما جاءه الضيف يقوم إلى ناقته التي هي حياته وحياة أهله ليس له مال غيرها، فيذبحها ويقدمها لضيفه تكريما له بقطع النظر من كون ذلك في حالة شدة الجوع أو في حالة رغد العيش، وتجد الرجل منهم أيضا يعتبر الكذب من سفاسف الأمور التي لا ينبغي للحر أن يتلبس بها، وكذلك الزنا، فلما جاء الإسلام أقرهم على ما كانوا عليه من هذه الأخلاق الحميدة، وبالله التوفيق.

وأما التعامل والعلاقات المتبادلة فيما بينهم على الإجمال فهي ضعيفة مُفَككة الأوصال التي لا تحمد عواقبها السيئة، فإنهم يعيشون كالأنعام بدون تبصر، وذلك لبعدهم عن الشرائع السماوية والتباسهم بأنواع المعاصي والكبائر ما ظهر منها وما بطن مع غوصهم في بحار الجهل والخرافات، ومن أخبث ذلك وَأْدُهم البنات وهن حية فرارا من الإملاق،

وكثرة الحروب بينهم لأتفه الأسباب وسفك الدماء من ذلك مع شدة العداوة والبغضاء.

الاقتصاد:

التجارة هي أكبر الوسائل المعتمدة للحصول على ما يسد به الحوائج البشرية المعيشية عند العرب قبل الإسلام، وليس لهم وسيلة لذلك غير هذه، إذ أنهم لا يبالون بأي صِنَاعَةٍ أو العمل اليدوي إلا قليلا، وهي في حضيض من الضعف لقلة الأمن والسلامة الناتجين من الحروب التي يجلبونها بأنفسهم، وليس لهم وقت ينتهزون فرصته لتجارتهم في الأمن والسلامة إلا الأشهر الحرم، وفيها تعقد أسواقهم المشهورة: ذو المَجَاز، ومَجِنَّة، وعُكَاظ، وسائر الأسواق، وفيها يروج كل ذي بضاعة بضاعته ليبيعها، وبالله التوفيق.

الولايات والإمارة في العرب:

لا شك أن للعرب حكومات وإمارات قبل البعثة وبعدها، غير أن أغلب أحوالها الظلم والجور والاستبداد الصادرة من الحكام حيث كانت الرعايا بمثابة مزرعة تورد غلاتها إلى الحكام يتمتعون بها، والمحكومين في غمرات الفاقة والإملاق يتعبون، يذاق لهم ويلات من العذاب وهم عن الشكوى ساكتين لعدم القدرة على ذلك، غير أن ذلك لم يتأثر جدا في بلاد الحجاز: مكة والمدينة وغيرهما من بلاد الإقليم الغربي من شبه الجزيرة العربية لما تغلب فيهم من الدين، فإنهم يسوسون الناس باسم الدين، من تشرفهم على القيام بعناية بيت الله الحرام وبمصالح الوافدين إليه، وبالله التوفيق.

ولاية بيت الله الحرام:

قد تقدم لك أن معظم العرب قبل الإسلام كانوا يدينون على دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قبل أن يوقعوا في الشرك والخرافات، وكان للكعبة والحرم المكي موقع عظيم في نفوسهم حيث يعظمونه ويقومون بخدمة زائريه، ولذلك جعلوا له ولاية وزعامة خاصة للقيام بالعناية به وبمن يزوره من الحجاج، فقسموها إلى رِفَادَة، وسِقاية، وحِجابة، وهاك بيانها على الإجمال:

الرِّفادة:

بكسر الراء على زنة فعالة، وهي عبارة عما تقوم به قريش من شراء الطعام بمالها وإطعامه للفقراء والمحتاجين من الحجاج إلى بيت الله الحرام، وكانت لِهَاشِم ثم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف بعده، ثم إلى أولاده حتى تولاها العباس بن عبد المطلب، ثم بنيه.

السقاية:

بكسر السين كالرفادة، وهي توفير الماء وإعداده لحجاج بيت الله الحرام، وهي كالرفادة من حيث التولية المذكورة.

الحجابة:

وهي مهنة جعل الستارة لبيت الله الحرام، وهي لبني عبد الدار، وبالله التوفيق.

وهذا، وكل ما سمعت من أحوال العرب هذه فهو مقدمة تمهيدية تساعدك على فهم السيرة النبوية فهما جيدا، ومعرفة مدى تأثير دعوته ﷺ في الجزيرة على وجه الخصوص، وفي العالم على العموم، وإلا، فالكلام عن هذا الموضوع يستدعي مجلدات ضخمة، وبالله التوفيق.

فوائد وعبر:

يستفاد من الدروس المتقدمة فوائد كثيرة نجملها لك فيما يلي:

1- إن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون بعثة النبي ﷺ ودعوته في الجزيرة العربية دون غيرها من البقع العالمية، وذلك لكون هذه البقعة بمعزل من مظاهر الاضطرابات الاجتماعية والفوضى الطبيعية التي تخالف الفطرة الإنسانية السليمة والاتجاهات البشرية الحميدة التي هي ضاربة أطنابها في جميع البلاد العالمية التي تسودها إمبراطوريتا الفارسية والرومانية.

وأيضا، كانت بيئة أهل هذه البقعة أُمية بالنسبة إلى غيرهم من الأمم، ولذا كان النبي ﷺ أميا لا يتلو من كتاب ولا يخط بيمينه، فيكون هذا أقرب ما يدعو الناس إلى تصديقه وإزالة أسباب الشك في دعوته للمرتابين إذا سمعوا منه أخبار الأمم الماضية، والأجيال البائدة، والكتب القديمة المنزلة، وغير ذلك من الأشياء التي لا يقدر الأمي على معرفتها إلا عن طريقة الكتب والبحث فيها، وهذا كله تمهيد لدعوة النبي ﷺ النبوية و تأسيس لها.

2- اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية هي لغة الوحي والدعوة الإسلامية دون غيرها من اللغات، وذلك لكونها أفصح اللغات، فإن لها خصائص وميزات ما ليس لغيرها من جميع اللغات العالمية، فحق لها أن تكون لغة الوحي والدعوة النبوية.

3- إن للأديان السماوية أثر عظيم في صلاح الأمة وإبعادهم عن جميع الاضطرابات الاجتماعية أو عن معظمها ولو حرفت وبدلت حيث لم يبق منها إلا أشياء يسيرة من تعاليمها، لا شك أن العرب قبل الإسلام كانوا على الضلال من عبادتهم الأوثان والشرك وانحلال الأخلاق، ومع ذلك لم ينسلخوا من الفطرة الإنسانية السليمة والاتجاهات المحمودة لما كان فيهم من البقايا الإبراهيمية الحنيفية.

4- إن المعاصي والأمور المنكرة إنما تتأثر ببعد الناس عن الملل السماوية، فالذي آل إليه أمر العرب من الوثنية والشرك والفسق والفجور وما في معنى ذلك إنما كان ذلك لسبب ابتعادهم عن ملة أبيهم إبراهيم، ويصدق ذلك زوال جميع هذه الأمور الجاهلية بإشراق نور الإسلام الذي هو تكملة للإبراهيمية الحنيفية.

5- اجتهاد العرب في خدمة بيت الله العتيق وتعظيمه مع اعتباره من أقدس الأشياء عندهم حينئذ مما حملهم ذلك على اتخاذ الحكومة له وترئيس من يقوم بكل ما يتعلق به من الأمور.

6- إن الناس يحجون بيت الله الحرام قبل الإسلام، إلا أن مناسكهم حينئذ هي بمعزل عن تعاليم الإسلام، بل هي على العادات المتكررة والتقاليد الموروثة، وبالله التوفيق.

النسب الطاهر الشريف

لا شك ولا مرية أن نسب النبي ﷺ الشريف هو أشرف الأنساب، وأطهرها على الإطلاق، إذ أنه خرج من السلالة الشريفة الزكية الطاهرة العريقة التي لم تشوبها أي شائبة، وهاك هذا النسب الطيب الميمون:

محمد بن عبد الله بن عبد المُطَّلِب بن هَاشِم بن عبد مَنَاف بن قُصَي بن كِلاب بن مُرَّةَ بن كَعب بن لُؤَيٍّ بن غالِب بن فِهْرِ بن مالك بن النَّضر بن كِنانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدِّ بن عَدْنَانَ.

وهذا ما اتفق عليه العلماء في نسبه ﷺ الشريف الطيب الزكي، ولا خلاف في ذلك بينهم، ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري تعليقا في مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ، وأما ما فوق عدنان من أجداده ﷺ إلى الجد الأكبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ففي ذلك خلاف كبير بين العلماء السير والتاريخ من الناحية العددية وكذلك الأسماء بحيث لا ينضبط، ولذا لا نذكر شيئا من ذلك لعدم الجدوى فيه، وكذلك ما بعد إبراهيم إلى آدم، فإنه مما لا التفات إليه لعدم ثبوت ذلك من طرق صحيحة معتمدة، بل، هو منقول من أهل الكتاب، وبالله التوفيق.

عبد المطلب:

بضم الميم وفتح الطاء المشددة مع كسر اللام، واسمه شَيْبَة بفتح الشين وسكون الياء مع فتح الباء على ما قاله ابن إسحاق، وصححه صاحب الروض أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، وسمي شيبة لأنه ولد وفي رأسه شيبة، وهو الجد الأول

للنبي ﷺ، وسبب تسميته عبد المطلب أن أباه هاشم لما خرج إلى الشام تاجرا تزوج سلمى بنت عمرو النجارية بعد قدومه المدينة، ثم خرج إلى الشام بعد ذلك وهي عند أهلها، فحملت بعبد المطلب، ومات هاشم بِغَزَّةَ، وولدت سلمى عبد المطلب بعد ذلك ولم يعرف خبره أحد من أسرة أبيه هاشم، فسمع به عمه المطلب بن عبد مناف، فرحل في طلبه، وأتى به مكة، فلما رآه الناس مردوفا على بعير المطلب قالوا: هذا عبد المطلب، فقال ويحكم، إنما هو ابن أخي هاشم.

وكان عبد المطلب كبيرا شريفا معظما في قريش، ولا يخرجون عن رأيه طرفة عين، بل، يقدمونه في كل ما يهمهم.

قصة حفر عبد المطلب زمزم:

وذكر ابن هشام في السير أن ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن حبيب المصري عن مَرثَد بن عبد الله الْمُزَنِي عن عبد الله بن رَزِين الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها، قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آتٍ فقال لي: احفر طَيْبَةَ، قلت: وما طَيْبَةُ؟ قال: ثم ذهب عني، قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر بَرَّةَ، قال: قلت: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المَضْنُونَةَ، قال: قلت: وما المَضْنُونَةُ؟ قال: ثم ذهب.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه فجاءني فقال: احفر زمزم، قال: قلت: وما زمزم؟ قال لا تنزف أبدا ولا تُذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل، قال: فلما بين شأنها، ودل على

موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعول ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطَّيُّ،[1] كبر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإنا لنا فيها حق، فأشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم، قالوا له: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هُذَيْم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من كانوا معهم فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم وارَوه، حتى يكون آخرهم رجلا واحدا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه، فقالوا: نعم ما أمرت به، فحفر كل رجل لنفسه حفرة ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى

1- بفتح الطاء: الحجارة التي طوى بها البئر.

الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، فرضوا بذلك، فلما بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه.

ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال، فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا، واستقوا كلهم، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبدا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدا، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم.[1]

وهذه قصة صحيحة، وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة صحيحة، منها ما أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ: إِنْ شَرِبْتَهُ لِتَسْتَشْفِي شَفَاكَ اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِيُشْبِعَكَ أَشْبَعَكَ اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِقَطْعِ ظَمَئِكَ قَطَعَهُ اللهُ، وَهِيَ هَزْمَةُ[2] جِبْرِيلَ، وَسُقْيَا اللهِ إِسْمَاعِيلَ »[3] وهو صحيح بطرقه.

هاشم: بكسر الشين على وزن فاعل، وهو الجد الثاني للنبي ﷺ، واسمه عمرو، وكان رجلا شريفا في قومه، وهو أول من أطعم الثريد لحجاج مكة، وأول من سن رحلتي الشتاء والصيف لقريش، وإنما سميه هاشما لهشمه الخبز، أي كسره وقطعه.

1- انظر سيرة ابن هشام: (1/144-145) بتصريف يسير.

2- بفتح الهاء وسكون الزاي، أي ضربها جبريل عليه السلام برجله فنبع الماء، يقال: هزم البئر إذا حفرها.

3- أخرجه الحاكم في المستدرك: (1739) وهو صحيح بطرقه وشواهده.

عبد مناف: بفتح الميم، واسمه المغيرة، ويلقب بقمر البطحاء.

قصي: بضم القاف وفتح الصاد على التصغيرية، واسمه زيد، وسمي قصيا لبعده عن عشيرته وديار قومه.

كلاب: بكسر الكاف، **مرة:** بضم الميم وفتح الراء المشددة، **كعب:** بفتح الكاف وسكون العين، **لؤي:** بضم اللام وفتح الهمزة تصغير اللأي، وهو الثور الوحشي، **فهر:** بكسر الفاء وسكون الهاء، واسمه قريش، وإليه تنتسب القبيلة، وتنقسم إلى اثنتي عشرة، وهي: بنو تيم بن مرة، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو محارب بن فهر، وبنو الحارث بن فهر، وبنو عبد مناف بن قصي، وبنو عبد الدار بن قصي، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو عدي بن كعب، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو تيم بن غالب، وبنو عامر بن لؤي، وبنو زهرة بن كلاب.

نضر: بفتح النون وسكون الضاد، **كنانة:** بكسر الكاف، **خزيمة:** بضم الخاء وفتح الزاي مع سكون الياء وفتح الميم تصغير خزمة بالفتح مفرد الخزم بمعنى شد الشيء وإصلاحه، **مدركة:** بضم الميم وسكون الدال وكسر الراء مع فتح الكاف، **إلياس:** بهمزة القطع المكسورة، وهو أول من أهدى البدن لبيت الله الحرام، **مضر:** بضم الميم وفتح الضاد، **نزار:** بكسر النون من النزر بفتح النون فإسكان، وهو اليسير، **معد:** بفتح الميم والعين وتشديد الدال، **عدنان:** بفتح العين وسكون الدال على زنة فعلان من عدن بالفتح، أي أقام، وهو عدنان بن أدد بضم الأول وفتح الثاني، وعليه يقف المحققون من النسابين والمؤرخين في نسبه ﷺ، ولا يجاوزون عدنان، لأن ما فوقه

مضطرب لا ينضبط كما تقدم، وخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ، كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبته معد بن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: « كَذَبَ النَّسَّابُونَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا" الفرقان: (38) »[1] وهو ضعيف جدا، والصحيح أنه موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، والله تعالى أعلم.

فوائد وعبر:

أهم ما يستفاده من هذه المقطوعة من سيرته ﷺ العطرة: بيان أن نسب النبي ﷺ أشرف الأنساب وأكرمها وأطهرها، لا شك أنه خرج من أطيب السلالة التي لا نظير لها، فأبوه عبد الله الطاهر وأمه آمنة الزهرية الميمونة من أشرف الآباء على الإطلاق، وكذلك بقية أجداده إلى المنتهى، وهذا تكريم له وتعظيم لشأنه من الله تعالى، كما هو تمهيد لنبوته وتأهب لها، إذ لا يليق لنبي أن ينحدر من السلالة المشوبة بشائبة غير شريفة ولا كريمة، وبالله التوفيق.

1- أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: (114) وهو ضعيف جدا كما تقدم.

زواج عبد الله بآمنة ومولد المصطفى ﷺ:

الذي تعورف عليه في اسم والده ﷺ: عبد الله، وكان له عشرة إخوة وست أخوات من أبيه عبد المطلب وهم: الحارث، والزبير، وأبو طالب، وأبو لهب، وعبد الله، وحمزة، والغَيْدَاق، والمُقَوِّم، وضِرَار، والعباس. وأما الأخوات فهن: أم الحكيم البيضاء، وبَرَّة، وعاتكة، وصفية، وأرْوَى، وأميمة، وهو من أحبهم عند أبيهم عبد المطلب، ولذا خطب له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشية الزهرية الميمونة المباركة، وليس يومئذ امرأة من قريش تعادلها في النسب والفضل والشرف، وتجتمع مع عبد الله في كلاب، لأن قصيا وزهرة ابنا كلاب، وقصي جد عبد الله الثالث كما كان زهرة جدا لآمنة الثاني، وكان أبوها وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة وأشرفهم نسبا، فزوجه بها وبنى بها عبد الله بمكة فحملت بالنبي ﷺ، ثم خرج بعد ذلك تاجرا إلى الشام، فوافته المنية مريضا بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، ودفن في دار النابغة الجعدي، وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة، وقيل ثلاثين سنة، وذلك قبل مولد النبي ﷺ، ولم يخلف للرسول ﷺ ثروة إلا خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية تسمى أم أيمن بركة الحبشية، وهي التي قامت بحضانته ﷺ.

ثم ولدت آمنة هذا المولود العظيم الذي أنار العالم بوجوده وانكشفت الظلمات، وكان ذلك يوم الاثنين لعشر ليال مضت من ربيع الأول، وقيل: لاثنتي عشرة من نفس السنة، وهو قول الأكثر، وكانت ولادته أيضا في عام الفيل بشعب بني هاشم في دار أبي طالب.

ولما ولدته آمنة أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بما وهبها الله تعالى من هذه الموهبة العظيمة التي لم تعط لأحد مثلها قبل، كما لم تعط لغيرها بعد، لا شك أنه ليس هناك امرأة وضعت حملا يقارب الذي أنجبته في البركة الكاملة، والفضل الوافر، والشرف الفائق المرموق مع السؤدد الذي لا يرام.

ولما بلغ الخبرُ عبدَ المطلب جاء بنفسه مستبشرا مسرورا، فحمله ودخل به الكعبة شاكرا لله تعالى على هذه النعمة الجليلة وداعيا له، وسماه محمدا، وهذا الاسم ليس معروفا عند العرب من قبل، وكانت قابلته هي الشفاء والدة عبد الرحمن بن عوف كما جزم به صاحب الشفا القاضي عياض، وقد ذكرت آمنة أنها لما وضعته خرج من فرجها نور أضاءت له قصور الشام، كما أخرج أحمد والطيالسي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَانَ أَوَّلَ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ »[1] صحيح أخرجه أحمد، وكان ذلك عند ولادته كما ثبت في بعض الروايات، وبالله التوفيق.

وهناك غير هذا من الإرهاصات والتباشير بمولده ﷺ تعظيما لشأنه ودلالة على استنارة الدنيا بنور الهدى بعد امتلائها بظلمات الجهل والضلالة والخرافات.

وأما سبب تسمية عام ولادته عام الفيل فذلك للحادثة المشهورة، وهي أن أبرهة بن الصباح الحبشي الذي جعله ملك الحبشة إذ ذاك أميرا له على اليمن بنى كنيسة كي

1- أخرجه أحمد في المسند: (22315) والطيالسي في مسنده: (1236) وهو صحيح كما سبق.

تضاد الكعبة وتصرف الناس عنها، فسمع بذلك رجل من بني كنانة، فدخلها ليلا ولطخ قبلتها بالنجاسة، ولما بلغ أبرهة ذلك غضب غضبا شديدا، فقاد جيشا عظيما يبلغ عدده ستين ألف مقاتل فيهم فيل عظيم اتخذها لنفسه، وتوجه إلى مكة لهدم الكعبة، فلما بلغ وادي مُحَسِّر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، وأبى أن يتوجه إلى الكعبة، غير أنه إذا وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبيناهم كذلك إذ أرسل الله عليهم جنوده طيرًا أبابيل، فأخذت ترميهم بحجارة من سجيل، كما يقول جل ثناؤه: « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » الفيل: (1-5)

وكان لكل طير ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجليه، لا تصيب منهم أحدًا إلا تقطعت أعضاؤه وهلك، فأهلكهم الله وأبادهم من أولهم إلى آخرهم، وبعث على أبرهة داء تتساقط منه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

وكان ذلك في الشهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بشهرين إلا خمسة أيام، ولذا سمي عام ولادته ﷺ عام الفيل تذكيرا بهذه الوقعة المفزعة وليكون كل متكبر من الله على حذر.

فوائد وعبر:

يستفاد من هذه الحادثة فوائد جمة كما يؤخذ منها عبر ومواعظ لكل مدكر، وإليك بيان ذلك بإيجاز:

1- شرف الكعبة ومكانتها عند الله تعالى، وهذه الحادثة تدل على عظم شأن بيت الله الحرام الكعبة الشريفة حيث تكفل الله بحفظها ورد كيد كل من أرادها بسوء، فأبرهة وجنوده أرادوا هدمها، فأرسل الله عليهم جندا من جنوده وأبادهم بأجمعهم.

2- شدة غيرة العرب على كل ما يتعلق بهم من الأمور الدينية والتقليدية والعادية، ويستبين ذلك لكل من تتبع سيرهم.

3- إن للكعبة مكانة ومنزلة سامية عند العرب، فإنهم يعظمونها ويعتبرونها من أقدس المقدسات عندهم.

4- حسد النصارى وحقدهم على بيت الله العتيق وغَيْرَتُهم لتعظيم العرب إياه، فإن بناء أبرهة الكنيسة وإرادته صرف العرب عن تعظيم الكعبة إليها دليل على حسدهم عليهم، ولذا حشد جنوده وقصد مكة لهدمها.

5- لا يزال الشيطان مشجعا لأوليائه على محاربة الله تعالى، كما لا يزال يصدهم عن الحق مع إبعادهم كل البعد عن الله تعالى وعن كل ما يقرب المرء إليه زلفى من شرائعه السامية.

6- إن حادثة الفيل إرهاص من إرهاصات النبوة ومقدمة من مقدماتها، وذلك أن الله تعالى لما أراد ظهور الإسلام بمجيء نبيه ﷺ وتأسيس رسالته اقتضت حكمته هذه الحادثة عظيمة الموقع في قلوب العرب، فازدادوا بها تعلقا وتعظيما للكعبة، وقد حدثت قبل مولد النبي ﷺ بما دون الشهرين كما تقدم.

7- شدة بطش الله تعالى على الطغاة والمعندين الذين يبارزونه بمخالفة شرائعه والسعي في إبطالها ليل نهار، وأن سطوته وأخذه أليم شديد.

8- إن القوة الكاملة والجبروت التام لله جميعا، وأنه ليس هناك قوة تبارز قوته إلا انخضعت لها وذلت تحتها، وأن له جموعا كبيرة من الجنود حاشا الملائكة لا يحصيها إلا هو، وجند ربك من القوة بمكان عظيم فائق، لا يقصد جيشا من جيوش الطغاة والجبابرة إلا أباده واستأصله بأجمعه.

9- إن نهاية الطغيان والعناد خسارة وبوار حيث لا تحمد عواقب أصحابها، وأن الله ينصر الحق ويزهق الباطل، والعاقبة للمتقين، والله تعالى أعلم.

رضاعته ﷺ:

أول من أرضعته ﷺ بعد أمه ثويبة الأسلمية جارية عمه أبي لهب، وكان لها ابن رضيع يسمى مسروحا، فأرضعت النبي ﷺ بلبنه، وذلك بعد أن أرضعته أمه آمنة بنت وهب الزهرية بأسبوع.

ومن العادة المقررة عند عرب المدن أن يلتمسوا المراضع لأطفالهم في البوادي اعتقادا منهم أن ذلك أسرع ما يبعد الولد من الأمراض الحضرية، وأوسع الطرق لإتقانه اللغة العربية وإلمامه بها، فيصل من ذلك إلى المرتبة النجابة والعبقرية حيث يكون نابغا بين أترابه، وكانوا يقولون لمن ربي في الحضر أنه كليل الذهن فاتر العزيمة، ولذا استرضع عبد المطلب للنبي ﷺ حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية من بني سعد بن بكر امرأة أبي كبشة الحارث ابن عبد العزى الذي ينسب مشركي قريش النبي ﷺ إليه عندما أرادوا أن يستهزءوا به، فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء.

وذلك أنها خرجت من بلدها في نسوة من نفس قبيلتها تلتمس من ترضعه من المواليد، ومعها زوجها المذكور وابنها الرضيع، وكان ذلك في سنة الجدبة والقحط، فعرض لها النبي ﷺ فَوُفِّقَتْ برضاعته بعد أن عرضه على غيرها من النسوة اللاتي خرجن معها فَأَبَيْنَ أن يَقْبِلْنَهُ لِيَتْمِه، لأنهن يرجن المعروف من أبي الرضيع خلافا لأمه، فأسبغ الله على أهل بيت السعدية الخيرات والبركات التي لم يسبغ على أهل بيت إذ ذاك من أجل النبي ﷺ، وامتلأت ضروع مواشيهم لبنا طيبا للسائغين، وخصبت حقولهم، فعاشوا سعيدين مستغنين من خلال مدة إقامة النبي ﷺ عندهم، وكانت المدة أربعة

سنوات، وكان ﷺ حينئذ يشب شبابا لا يشبه أمثاله من الغلمان، فصار جفرا قبل بلوغه سن الفصال، وبالله التوفيق.

فوائد وعبر:

1- عظم شأن النبي ﷺ ومنزلته عند الله تعالى، ويدل على ذلك ما أسبغه الله تعالى على أهل بيت مرضعته حليمة السعدية من أنواع الخيرات والبركات من سعة ذات اليد ورغد العيش والخصب بعد القحط والجدب بسبب رضاعتها للنبي ﷺ وانضمامه إليهم، وهذا دليل على عظم شأنه ﷺ ومنزلته ومكانته عند الله.

2- بركة النبي ﷺ، وأنها تنال كل من انضمه إليه ومن كان معه أو آواه، ومن أعظم بركته إنقاذ الناس من ظلمة الضلالة إلى نور الهداية، ومن الهلاك والبوار إلى السعادة الأبدية والفلاح السرمدي، فما أتى به ﷺ من الإسلام والشريعة هو حقيقة الخير ومحضه للناس جميعا، وبسبب ذلك خرج من وفقه الله تعالى للهداية من متاعب الجهل والضلالة ومشقتها إلى الراحة والطمأنينة الإسلامية.

3- إن ما يكرهه المرء ويفر منه قد يكون خيرا له غالبا، وكذلك العكس، فالنسوة اللاتي جئن مع حليمة لتلمس من يرضعن من الأولاد كرهن رضاعة النبي ﷺ لما سمعن أنه يتيم ظنا منهن أن أمه لا تصنع لهم شيئا رائعا من الإحسان، فأخذته حليمة لما لم تجد غيره، فكانت من ذلك خيرات كثيرة كما تقدم، ومصداق ذلك قوله تعالى: « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » البقرة: (216)

4- إن ما اختار الله تعالى لعبده هو الأفضل، وأنه لا يندم من رضي بخياره تعالى له، فينبغي للمسلم أن يرضى بما اختاره الله له ويقبله مطمئنا له، فهذه حليمة السعدية التمست الرضيع ولم تجد من ترضعه إلا النبي ﷺ وهو يتيم، فقبلته ورضيت بحكم الله تعالى، فحصل لها هي وأهل بيتها ما حصل لهم من البركات.

5- إنه ينبغي للوالد أن يختار لمولوده ما هو أصلح له في رضاعته وحضانته، ولذا كان العرب يختارون لأولادهم المراضع من البادية، لأن للبادية أثرا فائقا مرموقا في صحة الأبدان وقوتها، وذكاء العقول والنجابة وما في معنى ذلك، وبالله التوفيق.

شق صدره ﷺ وإخراج حظ الشيطان منه:

لما تم له ﷺ أربع سنوات من مولده أرسل الله إليه جبريل عليه السلام ليشق صدرع ويخرج حظ الشيطان منه، فبينما هو ﷺ يلعب مع سائر الغلمان إذ جاءه جبريل عليه السلام، فأخذه وأضجعه، فشق بطنه فاستخرج منه علقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ، فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ (يَعْنِي ظِئْرَهُ) فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقَعُ اللَّوْنِ »[1] قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ. أخرجه مسلم.

ومن ذلك خشيت حاضنته حليمة السعدية فأرجعته إلى أمه آمنة الزهرية، فمكث النبي ﷺ عندها إلى تمامه السادسة من عمره.

ما يستفاد من هذه الحادثة:

ويستفاد من هذه الحادثة بيان تطهير النبي ﷺ من حظوظ الشيطان منذ طفوليته، وهذا إرهاص مبكر من إرهاصات النبوة وعلم من أعلامها التي تدل على صدق رسالته، وأنها من الله تعالى، وكذلك يدل هذا على عصمته ﷺ من جميع المعاصي ما

1- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات: (162)

ظهر منها وما بطن، وحالة الصبا اللاهية، فلم يبق في قلبه إلا الطاعة التامة، والتوحيد الخالص، والحلم والوقار والأناة الكاملة، ولذا لم يقرب شيئا من ذلك في صباه حتى النبوة، وهذا من حكمة الشق، وهو تطهير معنوي في الشكل المادي، وبالله التوفيق.

وفاة أمه آمنة وانضمامه إلى رعاية جده عبد المطلب

لما بلغ النبي ﷺ السادسة من عمره، أخذته أمه آمنة وقصدت المدينة المنورة لزيارة قبر أبيه عبد الله وفاء لذكراه، وقد سبق لك أنه توفي بالمدينة ودفن هناك، فمكثت هناك شهرا ومعها خادمتها أم أيمن بركة الحبشية، ثم توجهت مكة راجعة، فلما بلغت الأبواء (موضع بين مكة والمدينة) فاضت روحها إلى ربها تبارك وتعالى من مرض، فدفنت هناك، ورجع به جده عبد المطلب إلى مكة فقام بكفالته، وأحبه ورق له رقة لم يرقها لأحد من بنيه، بل، آثره على بنيه، وكان يجلس معه على فراشه ويمسح ظهره بيده محبة له وشفقة عليه، ويقول: إن له لشأنا.

ولم يزل النبي ﷺ في كفالة جده عبد المطلب في أحسن الحال من رغد العيش والفرح والسرور حتى أنساه ذلك يتمه وآنسه إلى أن بلغ ثماني سنوات من عمره، فتوفي عبد المطلب، فكفله شقيق أبيه أبو طالب بن عبد المطلب، وقام بكفالته حق القيام، وأحبه وأحسن إليه غاية الإحسان حتى فضله على أولاده، وكان رجلا مقلا من المال، فوسع الله تعالى رزقه وأسبغ عليه من فضله بكفالته النبي ﷺ ومحبته له، واستغرق زهاء أربعين سنة يواليه ﷺ ويحاميه، ويصادق لأجله كما يعادي ويخاصم من أجله ﷺ، وبالله التوفيق.

فوائد وعبر:

ويستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ أنه اقتضت الحكمة الإلهية وفاة أبوي النبي ﷺ ونشأته يتيما تتولاه عناية الله تعالى وحدها، وفي ذلك حكم كثيرة، منها ترويضه

ﷺ على الصبر والحلم والشجاعة التامة وتحمل الأذى وأعباء الرسالة التي سيواجهها، لأن فقد الوالدين وحنانهما في الحالة التي تمس حاجة الولد إلى ذلك من أعظم موجبات الحزن والكرب، ومواجهة الشدائد والمحن على التوالي في حالة الصبا من مكسبات الصبر والثبات والشجاعة والتجلد على المصائب النازلة مع رقة القلب والرأفة، وهذا أيضا دليل على أن المرء سيصل إلى مقام عظيم في حياته، ولذا جمع النبي ﷺ ذلك كله، فإنه أشجع الناس وأصبرهم وأثبتهم عند الشدائد وأعلاهم درجة مائة في المائة، وهناك حكم كثيرة غير ما ذكرنا، وبالله التوفيق.

رحلته الأولى إلى الشام والكدح في التكسب

لما كملت له ﷺ اثنتا عشرة سنة من عمره سافر مع كفيله أبي طالب في أشياخ من قريش إلى الشام للتجارة، وهي رحلته الأولى، فلما نزلوا ببصرى، رآهم راهب من رهبانها يسمى بحيرا، وكان عارفا بالنصرانية، فلما أبصر النبي ﷺ علم أنه الرسول المبعوث الذي أُخبِر بمجيئه في كتبهم، وذلك لما تبين له من علاماته التي ذكرت في الإنجيل، فأمر أبا طالب أن يرجع به إلى بلده مخافة أن تقتله الرومان إذا عرفوه بصفته، فرجع به أبو طالب إلى مكة.

ولم يزل النبي ﷺ يستقبل فترة الشباب بعد ذلك، وأهم ما قام به حينئذ التكسب والسعي لذلك، وقد سبق لك أن أبا طالب كان مقلا من المال، فرأى النبي ﷺ أنه ينبغي له أن يقوم بالسعي للرزق سدا لبعض حوائجه وتخفيفا لكفيله أبي طالب كي لا يكون كلا عليه، فعمل برعي الغنم، وليس بعجيب أن يرعى النبي ﷺ الغنم، وقد أخبرنا أن ذلك من سنن من تقدمه من الأنبياء، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ »[1] أخرجه البخاري.

وهكذا كان النبي ﷺ يعيش في الورع والقناعة والبعد عن سفاسف الأمور، فإنه لم يعمل شيئا مما كان تعمله العرب في هذه الفترة الجاهلية من عبادة الأوثان وما يخل بالمروءة والكرامة الإنسانية ومحاسن الأخلاق إلى أن أكرمه الله تعالى بالرسالة.

1- أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط: (2262)

فوائد وعبر:

ويستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ: فوائد جمة، وفيما يليك القائمة ببعضها:

1- إن أهل الكتاب يعرفون صدق رسالة النبي ﷺ منذ ما قبل بعثته، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أو أكثر من ذلك، وذلك لما جاء من أوصافه وبيان دلائل نبوته في كتبهم، إلا أن الأناجيل المتداولة اليوم خالية عن ذكره ﷺ لما لحقتها من التغيير والتبديل والتحريف، ومع ذلك كله لم يؤمن به منهم إلا قليل، ومصداق هذا قوله تعالى: « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » البقرة (146)

وقوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» البقرة (89)

وما ذلك إلا حسد منهم وعناد كما أخبرنا الله تعالى بذلك في عدة مواضع من كتابه العزيز، وبالله التوفيق.

2- اجتهاد الأنبياء وسعيهم لطلب ما يسدون به حوائجهم الضرورية، وأن الكدح للتكسب من سننهم، وهذا نبي الله ﷺ الذي هو أحب الخلق إلى الله تعالى وأعظمهم عنده قدرا، ومع ذلك اختار لنفسه الكدح في سبيل الرزق، ولم يرض أن يكون كلا على كفيله، فرعى الغنم لأهل مكة على قراريط تسلم إليه أجرة، ولو شاء الله تعالى سهل له أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح في الرزق، غير أن الله تعالى اختار له هذا السبيل، فدل هذا على أنه أفضل وأحب إلى الله تعالى، وأن خير

مال الإنسان ما اكتسبه بكد يده وبذل الفائدة للمجتمع في مقابله، ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري عَنِ الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ »[1] أخرجه البخاري.

3- إنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يقوم بالكسب من تجارة أو حرفة، أو عمل أو غير ذلك من أنواع الكسب الحلال الذي يستغني به عما في أيدي الناس وعن الاعتماد عليهم، فإن ذلك مما يشجعه على أن يصدع بكلمة الحق بدون أن يخاف في ذلك لومة لائم أو المبالاة بالموقع الذي تقع منه، لأنه لا قيمة للدعوة إذا كان اعتماد الداعي في كسبه على ما في أيد الناس من عطاياهم وصدقاتهم، لكن الأسف أن كثيرا من الدعاة اليوم لم يسلكوا هذا المسلك، تجد كثيرا منهم يعدلون إلى الحكام والسلاطين ويتملقون لهم طمعا في ما عندهم من حظوظ الدنيا، فلا يقولون إلا ما يحبه هؤلاء الحكام ويفرحون به ولو خالف الحق! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

4- اختار الله تعالى لنبيه ﷺ رعي الغنم كي يربيه على خلق الصبر، والرحمة مع الشفقة، والشجاعة، والتواضع، وحسن السياسة، وهذه الأخلاق كلها من نتائج الاشتغال برعي الغنم خلافا لغيرها من الأنعام، ولذا كان النبي ﷺ أجمع الناس لهذه الأخلاق وغيرها من محاسن الأخلاق.

1- أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده: (2073)

5- عناية الله تعالى بنبيه ﷺ ورعايته له حق الرعاية التي اقتضت حفظه له من عبادة الأوثان والشرك وسفاسف الأمور الجاهلية التي ضربت أطنابها عهدئذ، وكذلك حمايته عن النزعات الشبوبية الطبيعية، لكونها لا تناسب جلال أمثاله ﷺ، وهذا كله تمهيد لرسالته ﷺ وتأسيس لها، وبالله التوفيق، وهناك فوائد كثيرة في هذا المقطع، وإنما تركنا ذكرها لضيق المقام، والله تعالى أعلم.

حرب الفِجَار

ولما تم للنبي ﷺ عشرون سنة من عمره وقعت حرب مشهورة بحرب الفِجَار بين قريش ومعها كنانة وبين قيس في سوق عُكاظ، وسببها أن ملك الحيرة النعمان بن المنذر كان يرسل بضاعته التجارية كل عام إلى سوق عكاظ للبيع تحت أمان وإجارة رجل ذي شرف ومنعة في قومه، فجلس ذات يوم وعنده عروة بن عتبة الرحال من قيس عَيْلان، والبراص بن قيس من كنانة، وكان فاتكا تبرأ منه قومه لكثرة شره، فقال النعمان: من يجيرني تجارتي حتى تصل عُكاظ، فقال البراص: أنا أستجيرها على بني كنانة، فقال النعمان: إنما أريد من يستجيرها على جميع الناس، فقال عروة: أبيت اللعن أكلب خليع يجيرها لك، أنا أجيرها لك على الناس كلهم، فتَحَقَّده البراص وتربص له وخرج يطلب غفلته حتى قتله، فبلغ ذلك قيسا، فخرجت لتدرك ثأرها حتى أدركوا قريشا وكنانة بنخلة، فدار ما دار بينهم من القتال حتى دخل الليل، ولجأت قريش إلى الحرم، وجعلوا سوق عُكاظ موعدهم العام القابل، فلما حال الحول جمع كل فريق جموعه، وكان مع قريش كنانة والأحابيش حلفاؤهم تحت قيادة الزبير بن عبد المطلب معه إخوته: أبو طالب وحمزة والعباس والنبي ﷺ، وكان مع قيس ثقيف، فوقع بينهم قتال شديد، فدارت الدائرة على قيس، وكان النبي ﷺ يجمع النبال ويناولها لأعمامه، ثم تداعى بعضهم للصلح على أن يحصوا قتلى فريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد، فاصطلحوا على ذلك وزال ما بينهم من العداوة، وإنما سميت

هذه الحرب بالفجار لما انتهكوا فيها من حرمة الشهر الحرام، إذ القتال فيه محرم، وبالله التوفيق.

ما يستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ:

إن كل قبيلة من قبائل العرب كالجسد الواحد حيث إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وأنهم يبذلون جميع طاقتهم وجهدهم في سبيل الدفاع عن حرماتهم الفردية والاجتماعية والحفاظ عليها، فلا ينتهك أحد أجنبي حرمة رجل واحد من أبناء القبيلة إلا قاموا بالدفاع عنه مع طلب الثأر وإن أدى ذلك إلى القتال وسفك الدماء وهلاك الأموال كما يستبين ذلك لكل من يطالع سيرهم، فهم كالبنيان يشد بعضه بعضا، إلا أن الأسف اليوم اتخذ معظم العرب هذه الغيرة التعاونية من ورائهم ظهريا، فكانوا يعيشون على حالة معاكسة لهذه الحمية والمنعة، حيث يظاهرون أعداءهم الأجانب على سفك دماء إخوانهم وإذلالهم كما يشاهد ذلك الزمان!

ويستفاد من ذلك أيضا بيان ما كان عليه العرب من تعظيم شرفائهم الذين لهم العزة والمنعة فيهم حيث إذا دخل الرجل في أمان ذي منعة منهم وإجارته، فقد سلم من كيد من يخافه من قوم صاحب المنعة، وبالله التوفيق وعليه التكلان.

حِلْفُ الفُضُولِ:

ولما رجع قريش من حرب الفِجَار تداعى بعض قبائلها على حِلْف الفُضُول، وذلك أن رجلًا من زُبَيْد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمى، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلافَ عبدَ الدار ومخزومًا، وجُمَحًا وسَهْمًا وعَدِيًّا فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قُبَيْس، ونادى بأبيات يصف فيها ظلامته رافعًا صوته، فسمع به الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ فاجتمع بنو تيم، وبنو هاشم، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو عبد مناف، في دار عبد الله بن جُدعان التيمي، وكان ذلك في أحد أشهر الحرم شهر ذي القعدة، فتحالفوا وتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي.

وقد شهد النبي ﷺ هو وأعمامه هذا الحلف الذي قلع به جذور الظلم والطغيان، وأقيم به منار الحق والعدل، وقال بعد أن أكرمه الله تعالى بالرسالة: « لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَو أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ »[1] أخرجه البيهقي.

فوائد وعبر:

ويستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ ما يلي:

1- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من طريق ابن إسحاق: (13080) وهو صحيح الإسناد، غير أنه مرسل.

1- إن كل زمن من الأزمنة لا يخلو من العدول والصالحين الذين يقيمون مبادئ العدل مهما بلغ من الانحطاط الطبيعي وفساد الانتظام، فهذه مكة هي في حضيض من الضعف الخلقي مع ما استولى عليها من الانحرافات الدينية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الخرافات والأباطيل، ومع ذلك وجد فيها من يقوم بالعدل وأخذ الحقوق من الظالم إلى المظلوم، فإن كان هذا قبل بزوغ فجر الإسلام دين العدل الذي يجتث عروق الظلم من أصولها ويغرس أصول العدل، فكيف بعده، ولذا قال ﷺ: « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ »[1] أخرجه مسلم.

أي فهو أشدهم هلاكا، وذلك إذا أراد بقوله هذا احتقارهم وتفضيل نفسه عليهم، أو أراد بكلامه العموم، لأنه لا يخلو أي زمن من الأزمنة عن الصالحين الأتقياء مهما بلغ شيوع الفساد فيه، كما دلت على ذلك القواعد الشرعية، والله أعلم.

2- إن كل ما صدر من الجاهلية من القيم الإيجابية يرفع له رأسا وينوه به، فالنبي ﷺ افتخر بحضوره هذا الصلح الذي هدم فيه صرح الظلم ورفع به منار العدل بعد أن شرفه الله تعالى بالرسالة وذكر أنه لو دُعِيه إليه في حالته النبوية لأجاب، وهذا يدل على أن العدل قيمة مطلقة لا نسبية، وهناك القيم السنية التي اتصف بها أهل الجاهلية، فلما جاء الإسلام أقرها وأشاد بها وحض على مطلوبيتها.

3- جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير وقمع الشر، وهذا ما تؤيده القواعد التشريعية، إذ هو من باب التعاون على البر والتقوى، وقد قال الله تعالى: « وَتَعَاوَنُوا

1- أخرجه مسلم: (2623)

عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » المائدة: (2)

4- إن الظلم مرفوض مطلقا بقطع النظر من صغره أو عظمه، وأنه متى حدث ينبغي أن يحاربه حتى يقلع من غير النظر إلى من يصدر الظلم منه، وبذلك ينتشر الأمن والسلامة في المجتمع، وبالله التوفيق.

الرحلة الثانية إلى الشام

في السنة الخامسة والعشرين من عمره ﷺ سافر إلى الشام المرة الثانية بتجارة لخديجة بنت خويلد الأسدية رضي الله عنها، وكانت تاجرة أرملة ذات شرف تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، فلما بلغها خبر النبي ﷺ من أمانته وصدقه وكرمه ومحاسن أخلاقه الفاضلة التي لم يتصف بها أحد سواه، طلبت منه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرا، وأنها تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، فرضي النبي ﷺ بالطلب وخرج في قافلة تجارية إلى الشام، ومعه غلام لخديجة يسمى ميسرة حتى قدما الشام، فباع السلعة واشترى غيرها مما يحتاجه أهل بلده ورجع، فربحت خديجة من هذه التجارة التي قام بها النبي ﷺ ربحا عظيما لم تحصل على مثله من قبل.

زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها:

ولما رأت خديجة في مالها من البركة والأمانة ما لم تره من قبل استئجارها النبي ﷺ، وسمعت بما أخبرها غلامها ميسرة مما رأى وشاهد فيه ﷺ من مظاهر الكمالات المحمدية المدهشة، رغبها ذلك في زواج النبي ﷺ، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، فذهبت إليه نفيسة تفاتحه أن يتزوج خديجة، فقبل النبي ﷺ العرض ورضي به، وكانت خديجة من أشرف قريش حسبا وأكثرهم مالا كما تقدم، وقد خطبها الرؤساء والسادة فأبت عليهم، فكلم النبي ﷺ أعمامه في ذلك، فذهبوا إلى عمها تحت رئاسة أبي طالب، وخطبوها إليه، فزوجها له وأصدقها ﷺ عشرين بكرة، فتم الزواج، وكانت من قبله تحت أبي هالة، توفي عنها وله منها ولد واحد يسمى

هالة، وكان عمره ﷺ إذ ذاك خمسا وعشرين سنة، وكان عمرها ثمان وعشرين سنة، وقيل أربعين سنة، والأول أقرب، وهي أول امرأة تزوجها ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، وهي أم أولاده كلهم حاشا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية.

فوائد وعبر:

1- إن الاتكال على الناس في الرزق لا يليق بالرجال، والشرفاء، فالنبي ﷺ لم يأل جهدا في السعي لما يوفر له دخلا ماليا يستغني به عن كفالة عمه أبي طالب منذ بلوغه الشبوبية كما تقدم في الدروس الماضية، فعمله هذا في مال خديجة استمرار لحياة الكدح التي نشأ عليها ابتداء برعي الغنم، وهذا يدل على رجولته الكاملة النادرة، وقد سبق لك ذكر بعض ما يستفاد من حياة كدحه ﷺ في سبيل الرزق، وبالله التوفيق.

2- إن الصدق والأمانة من عوامل النجاح والبركة في التجارة، ومن أهم مواصفات التاجر الناجح، بل، هما من أهم مواصفات كل من أراد النجاح والبركة في أموره، فصدق النبي ﷺ وأمانته هما رغبا أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في استئجارها النبي ﷺ في مالها وفي زواجه.

3- إن التجارة من أهم وسائل التكسب والارتزاق التي سخرها الله تعالى لرسوله، ودربه عليها قبل الرسالة، وذلك أنها من أعظم طرق تبادل المنفعتين، فإن الإنسان يحتاج إلى ما عند أخيه غالبا، وهو قد لا يبذله له مجانا بدون أي عوض، فأحل الله البيع ليكون وسيلة إلى بلوغ الغرض من غير حرج ولا مضرة، وعلاوة على ذلك استغناء التاجر عن تكفف الناس، فيعيش عيشة حميدة كريمة.

4- بيان ما مَنَّ الله تعالى به على نبيه ﷺ من اختياره له امرأة تناسبه دينا وخلقا وشرفا، وذلك تمهيدا لرسالته وتأسيسا لها، وقد أسهمت جدا في مؤازرته ومعاونته على تبليغ رسالة ربه وحمل أعبائها كما سيأتي، وهذا من كرم الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ.

5- عدم اهتمام النبي ﷺ بأسباب المتعة الجسدية في زاوجه بخديجة كغيره من الشباب، وذلك أن خديجة رضي الله عنها كانت ثيبا سبق لها زواج كما تقدم، فلو كان ﷺ كما يظنه المستشرقون ومن تبعهم في زواجه حيث يصورون ﷺ في صورة الرجل الشهواني الغارق في لذاته الجسدية في معيشته المنزلية لما رغب في زواج خديجة، بل لطمع فيمن هي أقل منه سنا من الأبكار، وعلاوة على ذلك أنه عاش في بيئة جاهلية هيمن عليها الفسق والفجور والزنا عفيفا، ولم ينساق في شيء من ذلك، ومما يؤيد ذلك أيضا أنه إنما رغبه في زواج خديجة عفتها وشرفها ونبلها، إذ أنها مشهودة عليها بالعفة والسؤدد.

اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة وقضية التحكيم

من المتعارف عليه أن الكعبة الشريفة هي أول بيت وضع للناس لإخلاص العبادة لله تعالى، أسس بنيانه على توحيد الله تعالى وذكر اسمه كما يشهد على ذلك قوله تعالى: « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » آل عمران: (96-97)

وأول من قام بتأسيس بنائها خليل الرحمن إبراهيم بمساعدة ولده إسماعيل عليهما السلام كما قال تعالى: « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » البقرة: (127)

وكانت رضما فوق القامة بلا سقف، ولم تزل كما بناها إبراهيم عليه السلام إلى هذا التجديد، وسبب تجديد بنائها ما تعرض لها من العوادي التي تسببت إلى إيهان بنيانها باعتبار طول الأزمنة التي مرتها، ومن ذلك سيل جارف جرَّف مكة فزاد به ضعف بنيان الكعبة وتصدع جدرانها، فأرادت قريش هدمها لإعادة تشييدها تعظيما لشأنها لكونها من أقدس المقدسات عندهم، فجمعت قبائلها وتعاهدوا على ألا ينفقوا في بنائها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد، ولا غير ذلك من مال حرام، وذلك أن اللصوص سرقوا كنزها الذي كان في جوفها، وكان يعظم عليهم هدمها لمكانتها في قلوبهم، فتقدم الوليد بن المغيرة وأخذ المعول، وجعل يهدمها ويقول: اللهم لا نزغ، ولا نريد إلا الخير.

وقد قسموا الكعبة أقساما وخصوا لكل قبيلة قسما منها، واشترك أشراف قريش وسادتهم في نقل الحجارة ورفعها، وقد شارك النبي ﷺ وعمه العباس في هذا العمل، وكان ذلك بعد بلوغه ﷺ خمسا وثلاثين من عمره، وكان ينقل الحجارة، وهكذا استمر البناء حتى وصلوا موضع الحجر الأسود، فتشاجروا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، واستمر الخصام أربع ليال، فعرض عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي وكان من أكبرهم سنا أن يحكموا في ذلك أول من يدخل من باب المسجد، فتوافقوا على ذلك، فشاء الله تعالى أن يكون النبي ﷺ هو أول داخل عليهم من الباب، فلما رأوه رفعوا أصواتهم قائلين: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر، طلب منهم رداء، فجاءوه به، فوضع الحجر وسطه بيديه المباركتين الميمونتين، وأمر كل رئيس من رؤساء القبائل المتشاجرين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه، فطفئت نار الخصومة، وزال الحقد والعداوة بسببه ﷺ.

وكان شكل الكعبة بعد هذا التجديد مربعا في ثماني عشرة ذراعا ارتفاعا، ويساوي ذلك خمسة عشر مترًا، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض، واسم الذي تولى البناء باقوم الرومي.

فوائد وعبر:

1- إن الكعبة هي أول بيت أسس على تقوى الله تعالى وتوحيده يقصده الناس من كل فج عميق لعبادة الله تعالى من المناسك ولحصول على ما أفاض الله فيه من البركات والخيرات.

2- إن أول من قام بتأسيس قواعد الكعبة هو خليل الله تعالى إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل الذبيح عليه السلام كما أخبرنا الله تعالى في محكم تنزيله، وقد بنيت أربع مرات، الأولى والثانية: بناء إبراهيم الأول، وبناء قريش هذا الذي هو تجديد لبنائه عليه السلام، والثالثة: تجديد بنائها زمن يزيد بن معاوية عندما احترقت بفعل الحصار الذي ضربه الحُصَيْنُ بن نُمَيْر السُّكُوني الكِندي على ابن الزبير حتى يستسلم، فأعاد الزبير بناءها، والرابعة الأخيرة في زمن عبد اللملك بن مروان بعد مقتل ابن الزبير رضي الله عنهما.

3- مكانة الكعبة ومنزلتها في قلوب العرب حيث اهتموا بأمرها وباشروا تجديد بنائها وأنفقوا أموالهم في ذلك مع الحذر عن إدخال مال الحرام في ذلك، وهذا بالانضمام إلى ما تقدم من تأسيسهم الحكومة لها يدل على مدى قداستها عندهم.

4- أهمية ذوي العقل والحلم في المجتمع، وذلك أنهم يسهمون في إطفاء نار الفتنة وانفكاك أوصالها بالاهتداء إلى المسالك والمخلص من ذلك، فمتى حصل التشاجر والتنازع بين جماعة فيهم ذوو الأحلام والسن، فإنهم يبادرون إلى إزالة ذلك بما وهبهم الله تعالى من الحلم قبل أن يعظم تأثيره السيء كما استفدنا ذلك من هذا المقطع من سيرته ﷺ.

5- حكمة النبي ﷺ وشرفه ومكانته عند قومه، فإنهم كانوا يعظمونه ويعتبرونه من شيوخهم وسادتهم لحسن أخلاقه التي أدبه ربه عليها، وبعده عن النزعات الشبوبية الذي فطره الله عليه تمهيدا لرسالته وتأسيسا لها.

علامات دنو النبوة والرسالة

هكذا ظل النبي ﷺ يعيش في قومه عيشة راضية في الكرم والسؤدد تتدخل في أموره العناية الربانية الحائلة بينه وبين جميع النزعات الشيطانية، ولذا يعظمه قومه ويعدونه من ساداتهم وأكابرهم، وكانوا يلقبونه بالأمين لأمانته، وصدقه، ومكارم أخلاقه، فلما قرب أربعين سنة من عمره أخذت إرهاصات النبوة تظهر له، ومنها ما حبب إليه من العزلة والتحنث، وهو التعبد، وقد اختار غار حراء لاختلائه، وهو بجبل النور على بعد ميلين من مكة طوله أربع ذراع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من حديد، وكان يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرا، وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، وكان يأخذ معه زاده الذي يتقوى به للقيام بما يشتغل به من العبادة والتفكير فيما حوله من المشاهد الكونية ودلائلها على عظمة خالقها.

ومنها ما سخر الله له من الجمادات، فإنه ﷺ لا يمر بحجر ولا شجر عندما خرج لحاجته إلا سمعه يقول له: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت يمينا وشمالا وخلفا ولا يرى أحدا، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة التي حدثت في صغره كتسخير الغمامة له تظله في سفره إلى الشام دون أن يشترك معه أحد من القافلة التي سافر معها، وهذا كله استعداد لتلقي الرسالة وبيان قدره وتصديق لما سيأتي به من الوحي، وقد سخر الله تعالى لغيره من الأنبياء ما يخرق العادة من المستحيلات عادة تأكيدا لما يحملونه من الرسالة وتصديقا لهم، غير أن معجزة النبي ﷺ من أعظم المعجزات التي

لم يعطها الله تعالى أحدا من رسله، فما سخر الله لنبي شيئا من ذلك إلا سخر للنبي ﷺ ما هو أعظم منه عجبا وأكبر منه خرقا للعادة.

فوائد وعبر:

1- اقتضت حكمة الله تعالى أن يُحَبَّب للنبي ﷺ العزلة ليتجرد عن مشاغل الدنيا وضجة الحياة التي تذهله عن الاستعداد لما يستقبله من المهمة العظمى التي بها تنقلب موازين حياة البشري من التكدير إلى الصفاء.

2- إنه ينبغي للمسلم أن ينتهز لنفسه فرصة الاختلاء والعزلة لمراقبة مولاه جل وعلا، والتفكر في مخلوقاته العظيمة التي تدل على عظمته واستحقاقه للعبادة وحده دون شريك له، ويحاسب نفسه على ما قدم من خير أو شر، وتلمس المخارج في حل مشاكله الدنوية وما في معنى ذلك، وهذا من مكملات الإيمان.

3- ما أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ قبل البعثة من الأمور المدهشة للعقول خارقة للعادة، وهذا كله تمهيد لرسالته وتأسيس لها، وبيان مكانته وعظيم قدره عند الله تعالى.

تبشير السابقين من الأنبياء بظهوره ﷺ

قد وردت الآيات القرآنية الكثيرة في تبشير من تقدمه ﷺ من الأنبياء بظهوره وإثبات رسالته، وأن الكتب السماوية الماضية كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها ناطقة وشاهدة لذلك، فمن أمثلة ذلك ما أخبر الله تعالى به من تبشير جميع الأنبياء به حيث أعلمهم تعالى ببعثته ﷺ وأمرهم بإعلام أممهم بذلك فقال: « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » آل عمران: (82-81)

ومن ذلك دعاء أبي الأنبياء إبراهيم الخليل أن يبعث الله في العرب رسولا منهم كما قال تعالى: « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » البقرة: (129)

وقد استجاب الله دعوته ببعث نبينا محمد ﷺ، وذلك أيضا تبشير من إبراهيم الخليل عليه السلام بظهور النبي ﷺ.

ومن ذلك تبشير عيسى عليه السلام به في قوله تعالى: « وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ » البقرة: (127)

وقال تعالى مثبتا بأن كتابي التوراة والإنجيل بشرا بمجيئه ﷺ وصدقا برسالته: « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » البقرة: (127)

وكذلك بشر به أحبار اليهود كما وقع في قصة سلمان الفارسي مع راهب عمورية المشهورة، وما تقدم من قصة بحيرا راهب، وغير ذلك كثير.

ما يستفاد من هذا المقطوع:

ويستفاد من هذا المقطوع من سيرته ﷺ بيان عظم شأن الرسالة المحمدية عند الله تعالى وقدر حاملها، حيث جمع الله تعالى خير خلقه الأنبياء عليهم السلام وأخبرهم به ﷺ وأمرهم بأن يبشروا أممهم بمجيئه وأن يؤمنوا به، ويؤازروه حتى يبلغ رسالة ربه، وهذا كله دلالة على عظيم قدره ﷺ عند الله تبارك وتعالى.

وكذلك يستفاد من ذلك أن جميع الكتب السماوية المنزلة على الأمم الماضية شاهدة وناطقة برسالته ﷺ، وأن أهل الكتاب يعرفون صدق نبوته بأكثر ما يعرفه غيرهم، إلا أن الحسد والعناد مع التكبر منعهم من تصديقه والإيمان به، فحقت عليهم كلمة الهلاك، وفقنا الله تعالى لجميع محابه ومراضيه.

مرحلة النبوة والرسالة

لما تم له ﷺ أربعون سنة حيث بلغ أشده وارتقى إلى مرحلة الكمال، شرفه الله تعالى بالنبوة فأرسله إلى عموم الثقلين مبشرا ومنذرا، ومخرجهم من دياجير ظلمات الضلالة والجهل إلى نور الهدى والعلم، وأول ما ظهر منه معلنا ببلوغه هذا المقام الشريف الرؤيا الصادقة، فلا يرى شيئا في نومه إلا أصبح كما رآه، ويشهد لذلك ما أخرجه البخاري عن أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: « أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ.

فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ"

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ!

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ »[1] أخرجه البخاري.

وكان ذلك في يوم الإثنين من شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، ثم فتر الوحي بعد ذلك عدة أيام، ثم تواصل بعدها، وقد حزن النبي ﷺ حزنا شديدا لفترته حتى كان يوفي على ذروة جبل كي يتردى منه، وكلما هم بإلقاء نفسه منه تَبدَّى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقًا، فيسكن لذلك جأشه، وتَقَر نفسه، فيرجع، وهكذا كان حتى عاد الوحي وتتابع.

فوائد وعبر:

1- اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ليتدرب النبي ﷺ عليه ويعتاده فتستعد نفسه الطيبة لمقابلة هذا الأمر

1- أخرجه البخاري في بدء الوحي: (3)

الأعظم وحمل تكاليفه، إذ أن ظهور الملك عليه ﷺ بهذا الأمر بداهة دون أن يسبق له مثل هذه المقدمة مما يمنعه من تلقي ما جاءه به الملك خوفا منه، مع أن الله قادر على كل شيء، غير أنه شاء الله تعالى أن يكون الأمر على هذا النمط ليدل على عظم شأن هذه المسؤولية وعظيم خطرها عند الله تعالى، إذ من المتعارف عليه أن ما حصل للمرء بعد سبق المشقة والكدح أعظم قدرا في نفسه مما حصل له مجانا بدون كلفة غالبا، وهذا من المتفق عليه.

2- إن الرؤيا الصادقة الصالحة من علامات الخير لمن يراها أو ترى له من المؤمنين، لأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة كما ذكر لنا النبي ﷺ، وهي المرحلة الأولى التي بدأ بها الله الوحي لنبيه ﷺ قبل ظهور الملك عليه وأخذه تلقائيا منه.

3- إن من سنن الله تعالى التي تجري في خلقه التدرج والتأني في جميع الأمور حتى تصل إلى غاية الكمال التي قدر لها، ليتأسى به عباده بدون أن تعقب أمورهم أي ندامة فتكون مما لا تحمد عواقبه، وهذا من حسن التربية من الباري الحكيم.

4- إن معالي الأمور والنجاح لا تأتي حتى يتقدمها أكداح الحياة وشدائدها، فالأكداح والابتلاءات في حياة المرء علامة كبرى من علامات نجاحه فيما يهدفه ويسعى إليه، ويستبين هذا لكل من تتبع سيرته ﷺ من نشأته إلى وفاته.

5- إن للمرأة الصالحة أثرا عظيما إيجابيا في تحقيق أهداف دعوة الداعي وخدمة الإسلام، فهذه سيدة خديجة الكبرى رضي الله عنها لما جاءها النبي ﷺ يقول (زملوني زملوني) وأخبرها بما حدث له، شجعته وأيدته بأقوالها مسكنة للجأش، وهادئة للبال حتى ذهب همه وفزعه.

6- إنه ينبغي لمن أشكل عليه شيء أن يذهب إلى من كان عنده خبرة به حتى يحلله له ويبين له وجه حقيقته، فهذه سيدتنا خديجة رضي الله عنها لما رأت أن ما جاءها بها نبي ﷺ مما حدث بينه وبين جبريل عليه السلام لا تهتدي إلى وجهه، رفعت الأمر إلى عمه ورقة بن نوفل الذي تظن وجود ضالتها المنشودة عنده، لكونه راهبا عنده علم بالشرائع السماوية، فوجدت ما تطلب منه وشفت علتها، وهكذا ينبغي أن يكون كل مسلم.

7- ما فطر الله تعالى عليه نبيه ﷺ من خصال الجبلة الكمالية، والشمائل العلية التي لا يضيع من استكملت فيه.

8- نبالة أم المؤمنين سيدة خديجة رضي الله تعالى عنها وذكاء خاطرها مع صفائه، لا شك أن تعاملها هذا مع النبي ﷺ في تلك الحالة دليل على أنها فطنة ذات خبرة بالأمور الحياتية، فينبغي للمؤمنات أن يقتدين بها.

9- إن تكذيب المرسلين من سنن الأمم الماضية، وأنه ليس هناك نبي إلا كذبه قومه كما ذكر ورقة للنبي ﷺ ليستعد لما يستقبله من ذلك من قومه ويعلم أنه لم يكن بدعا من الأنبياء الذين يكذبهم قومهم.

نزول الوحي مرة ثانية:

قد سبق لك أن الوحي فتر بعد نزوله النزول الأولي مدة من الزمن، فلم ينزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ خلالها بشيء من الوحي، ثم جاءه جبريل مرة ثانية، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنهما، قَالَ: أن النبي ﷺ قال وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ: "بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ" فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ »[1] أخرجه البخاري.

وبهذه الآيات صار النبي ﷺ رسولا مبعوثا من الله تعالى إلى الناس وحُمِّلَ عليه تكاليف الرسالة والنبوة من الإرسال والإبلاغ، خلافا لآيات العلق المتقدمة، فإنما عين بهن نبيا فقط دون الأمر بالإبلاغ.

فآيات سورة العلق اشتملت على الأمر بالتعلم القراءة والعلم دلالة على أن العلم من آكد شروط الدعوة، لأن الدعوة لا تتحقق بدون العلم الذي يستنير به الداعي طريقه كي يكون أمره على بصيرة من غير تخبط وعدم اهتداء إلى وجه الصواب، وأما آيات المدثر فإنها اشتملت على الأمر بالقيام بالدعوة إلى الله تعالى وإنقاذ الناس من دياجير ظلمات الجهل والضلالة إلى نور العلم والهدى، وتطهير قلوبهم مع إنقائها من أدناس الوثنية بالإلهية والإفرادية، وأمر الداعي بالتزام محاسن الأمور واجتناب رذائلها،

1- أخرجه البخاري في بدء الوحي: (4)

وإخلاص النية في ذلك مع الصبر والتجلد على ما سيواجهه من الشدائد الصادرة من الجهال وأعداء الحق، فناسب نزول كل من السورتين مقامه.

مراحل الدعوة النبوية

قد شاء الله تعالى أن تكون الدعوة النبوية المباركة على مرحلتين رئيسيتين معروفتين، وهي: الدعوة في الحالة السرية، والدعوة في الحالة الجهرية.

الدعوة في الحالة السرية

بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر ائتمر النبي ﷺ بأمر ربه وشرع يدعو إلى دين الحق، فبدأ بألصق الناس به من أهل بيته وأصدقائه وأقربائه، وأول من بادر إلى تصديقه والإيمان به زوجه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وربيبه علي بن أبي طالب الذي كان في كفالته ﷺ، وذلك أن أبا طالب عمه ﷺ كان مقلا من المال كما تقدم مع ما رزقه الله به من أولاد كثيرة، فأخذه النبي ﷺ تخفيفا لعمه وجعله كابنه، فكان عنده حتى سطع نور النبوة والإسلام وهو يومئذ قد ناهز الاحتلام، ولم يتأثر بشيء من أدناس الجاهلية المتقدمة تبعا للنبي ﷺ وتأثرا به.

ومن السابقين الأولين أيضا مولى ﷺ زيد بن حارثة الكلبي، اشتراه النبي ﷺ فأعتقه وتبناه، فسمي زيد بن محمد، ومنهم بناته: زينب، وفاطمة، وأم كلثوم، ورقية رضي الله عنهن وأرضاهن، ومنهم صديقه الودود عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر القرشي التيمي أبو بكر الصديق الأكبر الخليفة الراشد الأول، وكان صديق النبي ﷺ منذ ما قبل البعثة إلى بزوغ فجر الإسلام والوفاة، له أيام مشهودات في ميادين الدعوة النبوية المحمدية كأم المؤمنين خديجة رضي الله عنهما، وكان رضي الله عنه تاجرا سخيا متصفا بمكارم الأخلاق، وكان مألفا محببا في قومه، ومن أنسب قريش بنفسها، لم يعهد على

رسول الله ﷺ كذبا قط، ولذا بادر إلى تصديقه ﷺ والإيمان به بمجرد سماعه الرسالة المحمدية، ويعتبر إسلامه كإسلام أمة لا إسلام رجل واحد، إذ أنه أسلم على يديه جماعة من كبار قريش وسادتها، منهم عثمان بن عفان الأموي القرشي، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وخلق سواهم رضي الله عن الجميع.

ومن الذين سبقوا إلى الإيمان سعيد بن زيد العدوي وزوجه فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيْس، وعثمان بن مظعون الجُمَحِي وأخواه عبد الله وقدامة، وخباب بن الأرت التميمي، وخالد بن سعيد بن العاص الأموي، وامرأته أمينة بنت خلف، وأخوه عمرو بن سعيد بن العاص، وعبد الله، وعبيدة بن الحارث ابن المطلب بن عبد مناف، وحاطب بن الحارث الجمحي، وامرأته فاطمة بنت المُجَلِّل وأخوه الخطاب بن الحارث، وامرأته فُكَيْهَة بنت يسار، وأخوه معمر ابن الحارث، والمطلب بن أزهر الزهري، وامرأته رملة بنت أبي عوف، ونعيم بن عبد الله بن النحام العدوي، وجميع هؤلاء قرشيون.

ومن سبق إلى الإيمان أيضا بلال بن رباح الحبشي، وأبو ذر الغفاري، وصُهَيْب بن سِنان الرومي، وعبد الله بن مسعود الهذلي، وعمار بن ياسر العنسي، وأبوه ياسر،

وأمه سمية، وعبد الله بن جحش الأسدي وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعامر بن فُهيرة، ومسعود بن ربيعة القاري.

ومن اللاتي بادرن إلى الإيمان غير من تقدمن حاضنته ﷺ أم أيمن بركة الحبشية، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب رضي الله عن الجميع.

وهؤلاء هم الرعيل الأول الذين سماهم الله السابقين الأولين في قوله: « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » التوبة: (100)

وهكذا ظل النبي ﷺ مدة ثلاث سنين يدعو من يثق به ويتغلب على ظنه التصديق والإيمان منه إلى دين الله تعالى في هذه المرحلة السرية، واتخذ دار الأرقم أول مركز لدعوته، لأنه لا يعرف أحد من قريش بإسلامه، وكان من بني مخزوم، وكان بينهم وبين بني هاشم حرب، فلا يخطر ببال أحد من قريش لقاء النبي ﷺ والمسلمين بداره، وكذلك كانت الدار عند الصفا بعيدة عن مجالس قريش وأعينهم، وهذا من حكمة اختيار داره مركزا للدعوة المحمدية وفقا للخطط الربانية التي خطها الله تعالى لهذه الدعوة المباركة التي هي الفلاح كله، فأخذ يتحشد الأتباع والأنصار حوله ﷺ، وتسهم في ذلك زوجه خديجة أم المؤمنين، وصديقه أبو بكر الصديق، وغيرهما من الذين أسلموا، ومعظمهم ضعفاء من الفقراء والمحتاجين والعبيد الأرقاء، وليس فيهم القادة والرؤساء، وكان إسلامهم سرا لا علانية تبعا للأسلوب الذي بدأت به الدعوة

من الإسرار، وذلك كي لا تفاجأهم قريش بما يهيجهم ويعوقهم باعتبار كونهم قوما جفاة لا دين لهم إلا الوثنية تبعا لآبائهم، ولا أخلاق لهم إلا عزة النفس والأنفة التي تحملهم على الحروب وسفك الدماء، وكذلك ليس لهم أي طريق لحل المشاكل إلا السيف، ومع ذلك قد أُوذِي كثير من هؤلاء الذين أسلموا في الله، وأُذِيق عليهم أنواعا من الويلات.

فوائد وعبر:

ويستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ ما يأتي:

1- شاء الله تبارك وتعالى أن تكون الدعوة المحمدية سرية في أول أمرها، وهذا لا يدل على الجبن والفرار، وإنما هو للاستعداد والتأهب قبل مقابلة عالم الإنس والجن الذي ملأ بالظلم والجهل والأباطيل، لا شك أن التصدي لإزالة هذه الأشياء وإنقاذ الناس الذين أولعوا بها يحتاج إلى التزود بالممارسة الخالصة والخبرة النضيجة، فالاستعداد للممارسة والخبرة من عوامل النجاح العملي، ولذلك اختار الله لنبيه ﷺ هذه الطريقة في دعوته النبوية أول بدايتها، وهذا من سنن الله تعالى في خلقه، لا ارتياب أن الله تعالى قادر على حماية نبيه ﷺ وحفظه من كل شيء حتى يبلغ الرسالة إلى جميع الثقلين بدون احتياج إلى تكتم واختفاء، لكن اقتضت حكمته الربانية أن تكون الدعوة على هذا النمط ابتداء، ليقتدي به الدعاة مِن بعده، فينبغي لمن أراد أن يدعو إلى الله تعالى أن يتجهز لذلك، فيستعد كل ما يحتاج إليه في الدعوة من العلوم كي يكون على بينة من أمره، ويستعلم المرونة في كيفية الدعوة من تتبع خطط دعوة النبي ﷺ الربانية وما تقتضيه.

2- إنه ينبغي للداعي إلى الحق إخفاء دعوته والإسرار بها عند خشية ما يعوقها من العوائق قبل أن يتمكن أمرها، كالدعوة في الأرض التي سَيْطَر عليها الكفر والوثنية حيث يحارب أهلها الإسلام ويناوءون أهله، حتى يظهر الله أمره ويتم نوره كما وعد بذلك، وأما إذا أمكن الجهر حيث يستطيع الداعي التصدي لأي موجة من الموجات التي تواجه دعوته فلا يجوز الإسرار إذن، بل، يجب عليه الجهر بها، وبالله التوفيق.

3- شاء الله تعالى أن يكون معظم الذين سبقوا إلى الإسلام مستضعفين من الفقراء والأرقاء دون الرؤساء والقادة، وذلك أن من مقاصد دعوة الرسل هدم كل سلطان مضاد لسلطان الله تعالى، وكل حكم مضاد لحكمه مع اجتثاث جميع ألوهية المتألهين بإثبات سلطان الحق، وحكم العدل، والألوهية الحقيقية الأحدية التي لا نذير لها ولا شبيه لها، ولا يناسب ذلك أولا إلا حالة المستضعفين خلافا للقادة والرؤساء الذين يسعون في رد ذلك كله والمكابرة فيه إلا من رحم ربك.

الدعوة في الحالة الجهرية

ولم تمض هذه المدة السرية حتى دخل كثير من الناس في دين الله تعالى استجابة لهذه الدعوة المباركة، فتكونت فئة من المؤمنين التي أسست على أسس عقدية وتعبدية وخلقية علية المستوى، وكان عدد من أسلم يومئذ يزيد على الأربعين، فأمر الله نبيه ﷺ بمعالنة الدعوة بين الناس كافة في قوله تعالى: « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۞ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » الحجر: (94-96)

فبدأ النبي ﷺ بعشيرته ائتمارا بقوله تعالى: « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » الشعراء: (214-216)

فجمع ﷺ عشيرته وهم بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو نوفل، وبنو عبد شمس، وصعد على جبل الصفا، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخوفهم من العذاب الأليم إن عصوا أمره، فلم يواجهه واحد منهم بالسوء إلا أبو لهب، فإنه رد عليه ردا قبيحا، وفيه أنزل الله: « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » المسد: (1) إلى آخر السورة.

وقد روى لنا البخاري القصة بتمامها، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهْ! فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ

إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ! مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" وَقَدْ تَبَّ »[1] هَكَذَا قَرَأَهَا الْأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ.

وبعد هذا شرع النبي ﷺ يقوم بمسؤوليته الدعوية الربانية، فأخذ يدعو قومه إلى الإسلام جهرا، وكان يحضر مجامع المشركين ونواديهم يتلو عليهم ذكر الله الحكيم ويدعوهم إلى توحيد الله تعالى بالإيمان والعبادة، ورفض كل ما يعبد سواه من الأوثان والأصنام التي اخترعوها بأيديهم، ولا يترك أحدا من الناس التقى به إلا بلغه هذه الرسالة الربيانية الميمونة، بقطع النظر عن القبيلة والبلد، وعن الحرية والعبودية، والفقر والغنى، فأجاب كثير من الناس دعوته وكثروا سواد المسلمين بالدخول في دين الله تعالى والإيمان برسوله.

وكان شيوخ قريش زعماء الوثنية يستهزءون به ﷺ وبمن معه من الذين أسلموا، وإذا مر عليهم في مجالسهم وأنديتهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة (زوج حليمة السعدية التي أرضعته، وهو أبوه من الرضاعة) يكلم من السماء، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء، ولا يريدون بذلك إلا سخرية واستهزاء، فلما أخذ يعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم وينسبهم إلى الضلالة، وأنهم لا حجة لهم لعبادتهم لها إلا تمسكا بتقاليد الآباء والأجداد، أثار ذلك حميتهم الجاهلية غيرة على آلهتهم، فناكروه وأجمعوا على

1- أخرجه البخاري في كتاب التفسير: (4971)

مخالفته وعدوانه، وذهبوا إلى عمه أبي طالب الذي هو سيد بني هاشم، وكان يؤيد النبي ﷺ على دعوته ويحاميه حتى تحزب له، فطلبوا منه أن يمنعه ﷺ عما يقول من تعييب آلهتهم أو يخلي بينهم وبينه، فرد عليهم ردا لينا، فانصرفوا عنه.

وبعد ذلك استمر النبي ﷺ على دعوته إلى الله إله الحق، وتنال الدعوة مزيدا من القبول، فلا يمر يوم من أيامها إلا أسلم واحد فأكثر، ويتزايد حقد قريش وعداوتهم للنبي ﷺ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب مرة ثانية، وعرضوا له طلبهم الأول من كفه ابن أخيه النبي ﷺ عن تعييب آلهتهم وتسفيه عقولهم، وهددوه بأنهم ينازلوه إن لم يفعل ذلك، فلم يوافقهم على هذا الطلب، بل، شجع النبي ﷺ على ما كان عليه من إبلاغ رسالة ربه.

مؤامرة قريش لكف الحجاج عن الإصغاء للدعوة المحمدية:

ولما رأى قريش ما تناله هذه الدعوة الميمونة من القبول بين الناس، وأن موسم الحج قد قرب، حيث يتقدم مكة وفود العرب، سعوا في تلمس كلمة يقولونها للناس في شأن النبي ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوسهم، فعقدوا مجلسا استشاريا بدار الوليد بن المغيرة لتلمس ما يقولون في ذلك، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا، قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخَنْقِه ولا تَخَالُجِه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجَه وقَرِيضَه ومَقْبُوضه ومَبْسُوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنَفْثِهِم ولا عقْدِهِم.

قالوا: فما نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لعَذَق، وإن فَرْعَه لجَنَاة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك.

وفي الوليد نزلت هذه الآيات: « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۞ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۞ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۞ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۞ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » المدثر: (11–30)

فاتفق المجلس على هذا القرار، فلما حان الموعد وطفق العرب يقدمون مكة تفرقت قريش في الطرق التي يمر بها الناس وأخذوا في تنفيذ قرارهم المذكور، فلا يمر بهم أحد إلا أخبروه خبر النبي ﷺ وحذروه إياه.

وخرج ﷺ يتبع الناس في منازلهم وفي أسواق العرب المشهورة المتقدمة: عُكَاظ، ومَجِنَّة وذى المَجَاز، يدعوهم إلى دين الله تعالى بأن يؤمنوا به ويخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له مع ترك كل ما يعبدون سواه من الأخشاب والأحجار التي ينحتونها بأيديهم، وكان عمه أبو لهب يتبعه في ورائه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب!

ولكن من الطبيعي أن الإنسان كلما حذر عن شيء لا يعرفه، فإنه يحاول على معرفته ويسعى في البحث عنه عرفانا لماهيته وأمره، وهذا هو نتيجة فعل قريش هذا تجاه النبي ﷺ ودعوته، فإنهم لو يعلمون ما يعقب ذلك لكفوا عن تنفيذ قرارهم الذي اتفقوا عليه في مؤامرتهم الماضية، إذ تسبب ذلك إلى أن صدر الناس من ذلك الموسم بأمر النبي ﷺ وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها، وتزايد عدد المسلمين من ذلك.

فوائد وعبر:

يستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ ما يأتي:

1- وجوب الجهر بالدعوة عند إمكانية ذلك، فالنبي ﷺ استغرق ثلاث سنوات يدعوا إلى الله تعالى سرا بدون الإجهار، بل اقتصر على دعوة من يثق به ويتغلب على ظنه إسلامه من أهل بيته وأصدقائه، وذلك استعدادا وتأهبا لحمل جميع تكاليف هذه الرسالة السماوية والثبات تجاه كل ما يقابلها من الشدائد الصادرة من أعدائها، فلما تم الاستعداد وتمكن من المعالنة بدعوته بتجمع الأتباع والأنصار حوله، أمره الله تعالى بالإجهار حتى تتحقق الأهداف الربانية من هذه الدعوة النبوية المحمدية، والحكمة في اختيار الله لنبيه ﷺ هذه الطريقة في أول دعوته ليقتدي به من بعده من الدعاة ويتربوا على ذلك، إذ أن الله قادر على حفظ رسوله من جميع كيد الكائدين

ومكرهم حتى يبلغ رسالته إلى الناس كافة علانية بدون أن يمسه أي سوء، غير أن حكمته الإلهية اقتضت أن يكون الأمر كما أراده وفقا لسنته في خلقه.

2- إن الإسلام ليس ثمرة من ثمار القومية كما يصور ذلك أعداء الدين، وما ذلك إلا مجرد الدعوة الكاذبة الظالمة، وذلك أن النبي ﷺ دعا قومه قريشا إلى الله تعالى بأن يعبدوا الله ويخلصوا له العبادة بدون إشراك به في شيء من ذلك، ومقتضاه ترك كل ما كانوا يعبدونه من أوثانهم وأصنامهم التي نصبوها بحرم الله المكي ويزعمون أنها هي التي تقربهم إلى الله تعالى مع أنهم ليس لهم حجة في ذلك إلا أنهم وجدوا آباءهم على عبادتها، وعابها ﷺ وبين لهم أنها لا تنفع ولا تضر، فأخذتهم حمية الجاهلية غيرة على أصنامهم حتى أجمعوا على عداوته وأضمروا الحقد له حتى أخرجوه من بلده، فكفى هذا ردا على ما يتقوله هؤلاء وينصبونه إلى الإسلام والدعوة النبوية المحمدية السماوية.

3- إن من السنة أن يبدأ الداعي دعوته بالأقرب فالأقرب، بأن يبدأ بأهل بيته من زوجه وبنيه وكل من تحت رعايته في بيته، ثم عشيرته وأقربائه وأصدقائه، ثم أهل بلده، كما أخذت الدعوة المحمدية هذا النمط، وقد ألهم الله تعالى نبيه ﷺ ذلك فطبقه في بداية رسالته حيث بدأ بزوجته، وربيبه، وبناته، وصديقه، ومولاه، وحاضنته، ثم أمره الله تعالى بأن ينذر عشيرته بعد أمره بأن يصدع بما يؤمر ويعمم، لا شك أنه يدخل جميع أقربائه في مسمى الذين يصدع أمامهم بالدعوة حيث يستغني عن تخصيصهم بالإنذار بعد التعميم، غير أنه بدأ بهم امتثالا للأمر، وما ذلك إلا تربية من بعده من الدعاة فيتعلموا من ذلك كيفية الدعوة من معرفة طرقها وأساليبها ومراحلها، ومن حكمة هذا الأسلوب الدعوي، تشجيع الداعي على دعوته، لأن موافقة قريبه على

ما هو عليه من الدعوة أكثر له تشجيعا من موافقة غيره، ومنها أن قوة علاقتهم تتزايد من ذلك، ومنها أن ذلك يؤيد من كان يطمع في قبول دعوته فيتيقن أن فيها خيرا وفلاحا، ومن ذلك التلميح على عظم شأن العلاقة الدموية عند الله تعالى حيث قدمهم الله تعالى على غيرهم في الدعوة إلى ما فيه النجاح والفلاح الدنوي والأخروي.

4- أثر الوثنية السيئ وموقعها في قلوب المشركين، فإنهم تأثروا بآلهتهم حيث يتوجهون إليها بالعبادة ويقصدونها لدفع ضر نزل بهم أو جلب منفعة مرجوة، وليس لهم دليل على عبادتها إلا أنهم ألفوا آباءهم يعبدونها، ومع ذلك لا ينكرون وجود الله تعالى، وأنه خالق كل شيء، بل يخلصونه في الربوبية خلافا للألوهية كما قال تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» لقمان: (25)

ولم يكن يعبدونها لكونها هي التي خلقهم، بل، يعتقدون أن الله هو خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم، إلا أنهم يجعلون هذه الأصنام واسطة فيما بينهم وبين الله تعالى ويزعمون أنها تقربهم إليه زلفة كما قال تعالى: « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ » الزمر: (3)

وما ذلك إلا بعدهم عن الشرائع السماوية وانكبابهم على الوثنية التي هي أم الخبائث مع الانسلاخ عن الطبيعة الإنسانية السليمة التي خلقها الله على صفائها بانضمام

إلى الجاهلية التي هي داهية أخرى. وهناك فواعد وعبر غير ما ذكرنا، لكن يأبى المقام ذكرها برمتها لضيقه، والله تعالى أعلم.

الإيذاء والاضطهاد

لما رأى المشركون ما تناله الدعوة النبوية من القبول وتكاثر سواد المسلمين على التوالي، هيج ذلك غيظهم، وأثار حميتهم الجاهلية، واشتعلت نار عداوتهم لرسول الله ﷺ، فجاءوا بأساليب متعددة في مجابهة هذه الدعوة المحمدية ومحاربتها، ومن أهم هذه الأساليب الإيذاء بالاستهزاء، والسخرية، والتكذيب، والاضطهاد، فإنهم كانوا ينسبون النبي ﷺ إلى الجنون ويقولون إنه مجنون كما قال تعالى مخبرا عنهم: « وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ » القلم: (51)

ومن أشنع أقوالهم فيه قوله تعالى مخبرا عنهم: « وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » الحجر: (6)

وتارة ينادونه بالساحر الكذاب كما قال تعالى مخبرا عن صنيعهم هذا الشنيع: « وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ » ص: (4)

ولم تكن هذه الأقوال الخبيثة الملعونة تصدر منهم إلا للمحاولة على تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، لكن شاء الله أن يتم نوره ولو كره المشركون، فلا يزيد ذلك المسلمين شيئا إلا الثبات والمثابرة على الحق، ولا يزيد الدعوة المحمدية إلا القبول والشهرة بين الناس.

ولم يزالوا كذلك يتزايد استهزاؤهم وإيذاؤهم لرسول الله ﷺ ودعوته حتى أثر ذلك في نفسه وضاق صدره به، فسلاه الله تعالى وثبته بإخباره بأن ذلك سنة الأنبياء الذين من قبله، وأنه سيكفيه شرهم، فقال تعالى: « وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ » الأنعام: (10)

وقال أيضا: « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۞ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۞ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » الحجر: (95 – 99)

وهكذا ظل المشركون يستخدمون هذه الأساليب وأمثالها لإحباط الدعوة عدة أشهر، غير أنه لم ينتج ذلك أي نتيجة من النتائج التي يستهدفونها تجاه هذه الدعوة لإبطالها، كما لم يثمر أي ثمرة من الثمار التي ينتظرون نضجها لاقتطافها، بل، كان الأمر على عكس ما قصدوه، فلما رأوا ذلك جاءوا بأسلوب آخر، وهو التعذيب والاضطهاد وفتن المسلمين عن دينهم، فأجمعوا أمرهم على أن يعذب كل رئيس من أسلم من قبيلته، ولم يقتصر ذلك على الصحابة، بل حتى النبي ﷺ يقصدونه بالتعذيب بالضرب، إلا أن الرعيل الأول الذين آمنوا بالله حق الإيمان وآثروه ﷺ على أنفسهم يبالغون في الحيلولة بينه ﷺ وبين إيذائهم.

وعن عُرْوَة بن الزُّبَيْرِ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ

وَدَفَعَهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ" الْآيَةَ»[1] أخرجه البخاري.

وكان هذا الملعون من أشد المؤذين لرسول الله ﷺ ودعوته، فذات يوم قام النبي ﷺ يصلي عند الكعبة وبجانبه هؤلاء الشياطين أبو جهل وأصحابه جلوسا، فلما سجد النبي ﷺ جاء عقبة بن أبي معيط عليه لعنة الله بسلا جزور ووضعه على ظهره ﷺ، وفي الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: « بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَجَمْعُ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ آلِ فُلَانٍ فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلَاهَا فَيَجِيءُ بِهِ ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ.

فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسُبُّهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، ثُمَّ سَمَّى: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ.

1- أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقيه النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة: (3856)

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً »[1] أخرجه البخاري.

والذي تولى هذا الفعل الشنيع هو عقبة بن أبي معيط عليه لعنة الله، كما جاء صريحا في بعض الروايات.

ومن أشد المؤذين لرسول الله ﷺ أيضا أبو جهل عمرو بن هشام من بني المخزوم، وكان أشد إيذاء له ﷺ من عقبة المتقدم، وقد آذى النبي ﷺ غاية الإيذاء، ومن ذلك ما روى مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا"

قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ: "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۞ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ۞ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۞ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۞ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۞ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى" يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ، "أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۞ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ

1- أخرجه البخاري في الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئا من الأذى: (520)

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ" العلق: 6 - 19 »[1] أخرجه مسلم.

ومن أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ عمه أبو لهب، وكان عدوه اللدود، ويشهد لذلك ما تقدم لك من أنه كان يتبع النبي ويجول خلفه عندما يدعو الناس إلى عبادة الله وحده في موسم الحج والأسواق وغيرها من مجامع المشركين ونواديهم، يكذبه ويشنعه، وكونه أول من رد على النبي ﷺ ردا قبيحا عندما قام بأمر ربه من إنذار عشيرته والمعالنة بالدعوة، وكان بِنْتَا النبي ﷺ رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما تحت ولديه عتبة وعتيبة قبل الرسالة، فلما جاء النبي ﷺ بالحق أمرهما بتطليق بنتي النبي ﷺ المذكورتين كرها لشدة عداوته له ﷺ.

ولشدة هذه العداوة والحقد كان يرمي الأقذار والنجاسات على بابه ﷺ لكونه يجاوره، فيطرحها النبي ﷺ ويقول: يا بني عبد مناف أي جوار هذا! وتشاركه في ذلك امرأته أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، وكانت تضع الشوك في طريقه، وتحاول كل المحاولة لإفساد بينه وبين الناس والسعي لذلك، وفيهما نزلت سورة المسد المتقدمة.

وهناك غير هؤلاء من زعماء قريش الذين يسعون ليل نهار في إيذاء النبي ﷺ وإطفاء نور دعوته، منهم الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والنضر بن الحارث، والأخنس

1- أخرجه مسلم: (2797)

بن شريق الثقفي، وأمية بن خلف، والأسود بن المطلب الأسدي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وأحزابهم.

وأما المؤمنون الذين تجمعوا حوله فلا تحتاج إلى ذكر ما لاقوه من الفتن والتعذيب والاضطهاد لاسيما المستضعفون منهم من الفقراء المحتاجين، والعبيد الأرقاء، والموالي، فإن قريشا أذاقتهم أنواعا وصنوفا من ويلات العذاب.

فمن هؤلاء الذين عذبوا في الله تعالى بلال بن رباح رضي الله عنه، وكان عبدا لأمية بن خلف الجمحي القرشي، كان يذهب به إلى الرمل شديد الحرارة عندما اشتد حره وبلغ غايته، وذلك وقت الظهيرة حيث لو وضع عليه قطعة لحم لنضجت من حره، فيضجع عليه ويوضع الصخرة العظيمة على صدره كي ينقلب على عقبه، لكن هذا لا يزيده إلا إيمانا وتصديقا تسمعه يقول: أحد، أحد يوحد الله تعالى في هذه الحالة التعذيبية، وكان يجعل في عنقه حبلا ثم يسلمه إلى الصبيان كي يلعبوا به، وما يصده ذلك عن دين الحق.

ومنهم صهيب بن سنان الرومي، كان يعذب حتى يفقد إدراكه ووعيه ولا يدري ما يقول.

ومنهم عمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأمه سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكذلك كان عمار مولا لهم، وكان المشركون يخرجون بهم إلى الأبطح وقت الظهيرة عندما حميت الرمضاء وبلغت غايتها، فيعذبونهم بحرها، والذي يتولى ذلك هو أبو جهل عليه لعنة الله تعالى، فإنه عذبهم عذابا شديدا حتى مر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال: "صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة"

ولسبب هذا التعذيب مات ياسر أبو عمار، وأمه سمية، طعنها أبو جهل عليه لعنة الله في قبلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وأما عمار فلم يزل يتزايد عليه العذاب بأنواعه من وضعه على الرمضاء الشديدة الحرارة، ووضع الصخر الأحمر على صدره، وغطه في الماء حتى كان يفقد وعيه، وأمروه بسب رسول الله ﷺ، أو يثني على اللات والعزى فإن فعل ذلك يخلوا سبيله، فوافقهم على ذلك كرها، وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى في ذلك: « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » النحل: (106)

ومنهم أيضا زِنّيرَةُ، وكانت أَمَةً رومية، آمنت بالله ورسوله، فأذاقها المشركون أنواعا من العذاب حتى ذهب بصرها وعميت، فقيل لها: أصابتك اللات والعزى، فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فرد الله عليها بصرها، فقالوا: هذا بعض سحر محمد.

ومنهم خَبَّاب بن الأَرَتِّ مولى أم عمار بنت سباع الخزاعية، وكان حدادا، وكانت أم عمار هذه تضع الحديدة في النار حتى تحمر من شدة الحر، فتضعها على ظهره لينقلب على عقبه، غير أنه لا يزيده ذلك إلا الإيمان والثبات.

ومنهم أبو بكر الصديق الودود، فإنه مع شرفه وسؤدده في قريش كان أكثر ممن مضى ذكرهم تعرضا لمحنة التعذيب، فإنه ذاق أنواعا من ويلات المشركين ما تنوء به الرواسي الشامخات، وقد أخذ وشد بالحبل لمنعه من الصلاة.

وكان عم عثمان بن عفان رضي الله عنه يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته كي ينقلب على عقبه.

وخلاصة القول ما من أحد يسلم ويعلموا بإسلامه إلا ذاق ويلات تعذيبهم ونكالهم، فلا يسلم من ذلك، غير أنه لا يزعزع هذا شيئا من إيمانهم، بل، لا يزيدهم إلا إيمانا وتصديقا ضعف ما كانوا عليه من قبل.

ما يستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ:

ويستفاد من الدروس السابقة من سيرته ﷺ بالجملة أن الابتلاء سنة من سنن الله تعالى الجارية على عباده الصالحين من الدعاة والأتباع، فمن تتبع سير الأنبياء والصالحين من الأمم الماضية يجدها مملوءة بالابتلاءات والمحن من التعذيب والاضطهاد وما في معناهما من أنواع الشدائد والإيذاء التي يواجهونها من أعداء دعوتهم ليصدوهم بها عن دين الحق، فما من نبي مبعوث إلا أوذي في سبيل دعوته، وهذا كله سنة إلـهية متداولة بين الدعاة من الأنبياء ومن سار على منوالهم منذ فجر التاريخ، ومن الحكم الربانية في ذلك التمييز بين الصادقين والكاذبين، ويشهد على ذلك قوله تعالى: « الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » العنكبوت: (1-3) وقوله تعالى: « وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » آل عمران: (154)

وقوله تعالى: « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » البقرة: (214)

وقوله تعالى: « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » آل عمران: (179)

فبين الله تعالى لنا في هذه الآيات الكريمة أن حكمة هذه الابتلاءات التمييز بين الصادق في إيمانه والكاذب فيه، إذ الإيمان محله قلب، غير أن له العلامات الظاهرة، فمن أعظمها الثبات على ما كان عليه المرء من إيمانه عند الشدائد والمحن بدون أن يزعزعه شيء من ذلك.

ومن المعلوم أن الله تعالى قادر على أن يعصم نبيه ﷺ والذين معه من المؤمنين من جميع إيذاء المشركين حتى يتم نوره بدون أن يمسهم أي سوء، لكن شاء الله تعالى أن يكون الأمر على النحو الذي يريده، ليرفع درجاتهم ويبين لمن بعدهم منزلتهم ومكانتهم، وما بذلوه من النفس والمال والشرف في سبيل إقامة هذا الدين، وأنهم هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم، وكل من أتى بعدهم تابع لهم في ذلك، فتعلو مكانتهم في قلوب من بعدهم من المسلمين، ويعظم قدرهم عندهم.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

هكذا ظل إيذاء قريش بالتعذيب والتنكيل يتزايد على كل من أسلم من أصحابه ﷺ يوما بعد يوم حتى تفاقم الأمر، والنبي ﷺ لا يقدر على أن يحميهم، فنزلت هذه الآية الكريمة تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة: « قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » الزمر: (10)

فأمر النبي ﷺ الصحابة بالهجرة إلى الحبشة لعلمه بأن ملكها أصحمة النجاشي ملك عادل لا يظلم عنده أحد، كي يفروا بدينهم من الفتنة.

فخرج الصحابة رضوان الله عليهم من مكة إلى الحبشة مهاجرين خفية يتسللون في ظلمة الليل كي لا يفطن لهم أحد من قريش، وكان ذلك في شهر رجب السنة الخامسة من النبوة، وكان عددهم اثني عشر رجلا وأربع نسوة، وقيل غير ذلك، وفي مقدمتهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت محمد الرسول ﷺ، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب وخلق سواهم رضي الله عن الجميع، فساروا بعناية الله آمنين حتى وصلوا الحبشة وأقاموا عند ملكها العادل في أحسن الجوار والمنعة، وهذه هي أول الهجرة في الإسلام فرارا إلى الله تعالى بالدين.

عودة المسلمين من الحبشة: هكذا ظل المسلمون آمنين مطمئنين عند النجاشي، وذات يوم من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم المكي عندما اجتمع فيه عدد

كثير من المشركين، فباغتهم بقراءة سورة النجم، فسمعوا أروع كلام رباني لم يسمعوا مثله قط، فقرع آذانهم، وأخذ مشاعرهم، وكانوا من قبل لم يسمعوه أخذا بما تواصوا به فيما بينهم من عدم الاستماع إليه في قولهم: « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » فصلت: (26)

فلما قرأ النبي ﷺ قوله تعالى: « فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » النجم: (62) سجد، فلوى جلال كلام الله تعالى زمام كل من كان هناك حيث لم يتمالك أحد منهم نفسه حتى خر ساجدا لله جل ثناؤه، وفيهم السادة والكبراء، فعاتب بعضهم بعضا على فعلهم هذا، ولامهم مَنْ تَغَيَّبَ عن الحضور من صناديد الشرك، فدسوا دسيسة المكر والكذب في ذلك ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ وقالوا: إنما حملهم على السجود أنه ﷺ أثنى على آلهتهم حيث قال عنها ما يقولونه من الثناء والمدح، وذلك عندما قرأ: « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » النجم: (19-20)

فقال: (تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى، وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى)[1] وقد أولع بعض المؤرخين بهذا الافتراء والكذب الذي لا أساس له، فجعلوه في كتبهم! والحقيقة أن ذلك كذب من أكاذيب المشركين التي اعتادوها تجاه الدعوة المحمدية السماوية لإحباطها، ولم تصح هذه القصة المشهورة بقصة الغرانيق بأي وجه من الوجوه، بل، هي مكذوبة مفترى كما سلف.

1- لفظ (الغرانيق) بفتح الغين جمع غرنوق بضم الغين وسكون الراء وضم النون، وهو طير أبيض طويل العنق، بيد أن المقصود بالغرانيق هنا أصنامهم التي كانوا يعبدونها، وقصة الغرانيق هذه من أشنع الأساطير والأكاذيب التي لا أساس لها كما تقدم.

فبلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة في صورة تختلف بصورتها الحقيقية حيث بلغهم أن قريشا أسلمت، ففرحوا بذلك ورجعوا إلى مكة، وذلك في شوال نفس السنة، غير أنه لم يصلوها حتى انكشف عنهم حقيقة الأمر، فرجع بعضهم، ودخلها بعضهم خفية، والباقي في جوار بعض قريش.

الهجرة إلى الحبشة مرة ثانية

ثم إن قريشا لم تأل في تعذيبها هؤلاء المسلمين المعاودين من هجرتهم وغيرهم من الذين لم يهاجروا، بل ضاعفت عليهم العذاب وأنواعا من الإيذاء حيث بذلت قُصَارى جهدها في التعذيب، فلما رأى النبي ﷺ ذلك أمرهم بالهجرة إلى الحبشة مرة ثانية لما رأى من حسن جوار النجاشي، فهاجر كثير من الصحابة يبلغ عددهم ثلاثة وثمانين مهاجرا، وثماني عشرة مهاجرة، وقد فطنت بهم قريش فسعوا لمنعهم، غير أن الله تعالى رد عليهم مكيدتهم فوصل هؤلاء المهاجرين الحبشة آمنين.

سعي قريش في رد المهاجرين:

وظل المسلمون عند النجاشي آمنين مطمئنين في أحسن الجوار، يعبدون ربهم إله الحق دون أن يلحقهم أي سوء، فلما رأت قريش ما هم فيه من الأمن، أثار ذلك غيظهم وحقدهم فأرسلوا رجلين لبيبين: عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وذلك قبل أن يسلما، وأرسلوا معهما الهدايا للنجاشي وبطارقته ليُحْضِرَ من عنده من المسلمين إلى مكة، وهذه أم عطية رضي الله عنها تروي لنا هذه القصة بتمامها:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: « لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى، لَا نُؤْذَى، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا، ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ جَلْدَيْنِ وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ[1] مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ،

1- أي من الأشياء التي يراها حسنة عجيبة حيث يحبها ويفرح بها.

وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا الْأُدُمُ[1] فَجَمَعُوا لَهُ أُدُمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ[2] بِطْرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَأَمَّرُوهُمَا بِأَمْرِهِمْ وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعَا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ ثُمَّ قَدِّمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ ثُمَّ سَلَاهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمَا قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ.

قَالَتْ: فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، وَقَالَا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ ضَوَى[3] إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا، وَلَا يُكَلِّمُهُمْ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ.

ثُمَّ إِنَّهُمَا قَدِمَا هَدَايَاهُمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ ضَوَى إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِك، وَجَاءُوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ مِنْ

1- بضم الجميع جمع أديم بفتح الهمزة وكسر الدال، وهو الجلد المدبوغ.

2- بفتح الباء جمع بطريق بكسرها، وهو الحاذق بالحرب وأمورها الذي يتولى أمور الجيش ويقوم بمسؤوليته بلغة الروم، كذا فسره صاحب النهاية ابن الأثير، ويجمع أيضا على بطاريق بوزن مفاعيل، وبالله التوفيق.

3- أي انضم ولجأ.

آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ.

قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَهُمْ النَّجَاشِيُّ.

قَالَتْ: فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقَا أَيُّهَا الْمَلِكُ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا،[1] وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا، فَلْيَرُدَّهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ.

قَالَتْ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لَاهَا[2] اللَّهِ إِذْن لَا أُسْلِمَهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلَا يُكَادُ[3] قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلَادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتَّى أَدْعُوهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ عَمَّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي.

قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ فَلَمَّا جَاءُوا، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ

1- أي أبصر بهم وأعلم بحالهم من غيرهم، فعيونهم فوق عين غيرهم.

2- أي لا والله، و(ها) للتنبيه، ويقال: ها الله.

3- أي لا يخدع ولا يمكر بهم.

أَسَاقِفَتَهُ[1] فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ؟

قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ.

فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلَّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاك، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِك، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمْ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

1- جمع الأسقف بالفتح، وهو العالم والرئيس من عند النصارى تزيد مرتبته على مرتبة القسيس.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَك مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، قَالَتْ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ "كهيعص" قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ، حَتَّى اخْضَلَّتْ[1] لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ[2] وَاحِدَةٍ انْطَلِقَا، فَلَا وَاللَّهِ لَا أُسْلِمَهُمْ إلَيْكُمَا، وَلَا يُكَادُونَ.

قَالَتْ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهِ لَآتِيَنَّهُ غَدًا عَنْهُمْ بِمَا اسْتَأْصَلَ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ. [3]

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا: لَا نَفْعَلُ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا، قَالَ وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إنَّهُمْ لَيَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إلَيْهِمْ فَسَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ.

1- أي ابتلت بالدموع.

2- أي: كلاهما كلام الله تعالى، والمشكاة هي الكوة بضم الكاف وتشديد الواو المفتوحة، وهي الخرق في جدار البيت للتهوية والإضاعة وما في معناهما.

3- أي ما يجتث أصلهم الذي منه تفرعوا، يقال: أباد الله خضراءهم، أي أفناهم وأهلكهم عن آخرهم.

قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْهُ، قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهَا قَطُّ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ ـ وَاللَّهِ ـ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ قَالَتْ فَقَالَ: لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ،[1] قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ بِيَدِهِ إلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ.

قَالَتْ: فَتَنَاخَرَتْ[2] بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ: فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شُيُومٌ بِأَرْضِي ـ وَالشُّيُومُ: الْآمِنُونَ ـ مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا مِنْ ذَهَبٍ وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ، ـ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ دَبْرِي مِنْ ذَهَبٍ، وَيُقَالُ: فَأَنْتُمْ سُيُومٌ، وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْجَبَلُ ـ رَدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرَّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرَّشْوَةَ فِيهِ وَمَا أَطَاعَ النَّاسُ فِيَّ فَأُطِيعُهُمْ فِيهِ.

1- العذراء: هي الجارية التي لم يمسها رجل في حالة بكارتها، و(البتول) هي المنقطعة عن النكاح مشتغلة بالعبادة.

2- أي تكلموا إشارة إلى غضبهم ونفورهم من صنيعه.

قَالَتْ فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحِينَ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ »[1] أخرجه ابن إسحاق في السيرة.

ففشلت مكيدة قريش هذه، ورجع هذان الرجلان خائبين، فاستمر المسلمون يعبدون الله تعالى في أحسن الجوار والأمن، وأسلم النجاشي، غير أنه أخفى إيمانه عن قومه لعلمه بما كانوا عليه من العناد والثبات على الباطل.

1- انظر السيرة النبوية لابن هشام: (1/ 334 - 337)

إسلام البطلين: (حمزة وعمر رضي الله عنهما)

وفي هذه الظروف أسلم رجلان عظيمان شريفان بطلان استجابة لدعوة النبي ﷺ، وهما حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وعمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنهما، غير أن إسلام حمزة أسبق من إسلام عمر بثلاثة أيام، وسبب إيمان حمزة رضي الله عنه: شدة إيذاء أبي جهل للنبي ﷺ، فذات يوم مر أبو جهل بالصفا والنبي ﷺ عنده، فآذى النبي ﷺ ونال منه، وهو ساكت لا يجيبه، فاشتد الإيذاء وتجاوز الحد حتى رماه أبو جهل بحجر في رأسه فَشَجَّهُ فنزف منه الدم، وكان ذلك كله بمشهد مولاة لعبد الله بن جُدْعَان لكونها تسكن عند الصفا، وكان حمزة رضي الله عنه يذهب إلى المصيدة ليصطاد، فأقبل من قنصه مُتَوَشِّحًا قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل، فغضب، وكان من أشد فتيان قريش عزة وشكيمة، وكان أبو جهل حينئذ جالسا بنادي قريش عند البيت، فخرج حمزة يسعى حتى أتى النادي فقام على رأس أبي جهل، وقال له: يا مُصَفِّرَ اسْته، تشتم ابن أخي وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم وثار بنو هاشم، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا.

وأما سبب إسلام عمر فهو: أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء على النبي ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوي، أو رجل من بني زهرة، أو رجل من بني مخزوم فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا، قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت، وتركت

دينك الذي كنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وخَتَنَكَ قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دامرًا حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة فيها: (طه) يقرئهما إياها، فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، وسترت فاطمة الصحيفة.

وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صبوتما.

فقال له ختنه: يا عمر، أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدًا.

فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها، فقالت، وهي غضبى: يا عمر، إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فلما يئس عمر، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحيا، وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ: " بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " فقال: أسماء طيبة طاهرة.

ثم قرأ (طه) حتى انتهى إلى قوله: « إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » طه: (14)

فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلوني على محمد، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس: « اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمْرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ »[1] فأخذ عمر سيفه، وتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار التي فيها النبي ﷺ بأصل الصفا، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب، فرآه متوشحًا السيف، فأخبر رسول الله ﷺ، واستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر؟ فقال: وعمر؟ افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال: « أَمَا أَنْتَ مُنْتَهِيًا يَا عُمَرُ حَتَّى يُنْزِلَ اللهُ بِكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ مَا نَزَلَ بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ؟ اللَّهُمَّ هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ » فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. وأسلم، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.

وكان إسلام هذين البطلين عزة وشرفا للإسلام والمسلمين، وتشجيعا لهم، وذلا للكفر والمشركين، حيث يعتبر فتحا عظيما للمسلمين، فإن المسلمين لا يستطيعون الصلاة عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم فعلوا ما لا يستطيعون فعله من قبل، وأظهروا

1- أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك: (4486) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو صحيح بجميع طرقه.

ما لا يقدرون على إظهاره من شعائر الإسلام، وكان إسلام هذين البطلين الشهمين في السنة السادسة من النبوة.

فوائد وعبر:

إن فيما تقدم من الدروس الماضية فوائد جمة وعبر كثيرة، ونذكر لك بعضها على الإجمال خشية الإطناب:

1- مشروعية الهجرة فرارا بالدين؛ ونقتطف من ثمار ما تقدم من الدروس أن المسلم إذا كان لا يستطيع أن يعبد ربه تبارك وتعالى مطمئنا في أرضه لما يلاقيه من الشدائد الصادرة من الكفار والطغاة، شرع له أن يغادر هذه الأرض ويذهب إلى غيرها حيث يجد الأمن والطمأنينة من غير أن تلحقه أي أذية، فهؤلاء المسلمون لما اشتد عليهم العذاب الذي يلاقونه من مشركي مكة حيث لا يستطيعون عبادة ربهم إلا في حالة الاستخفاء مخافة أن تقع عليهم عين الطغاة من المشركين فيعتدوا عليهم، لكونهم لا شوكة لهم يمنعون بها أنفسهم، أمرهم النبي ﷺ بالهجرة من مكة إلى الحبشة فرارا بدينهم، مع شرف مكة وفضلها عند الله تعالى.

2- قوة إيمان الصحابة الرعيل الأول وصدق يقينهم ووثوقهم بالله تعالى، إذ مثابرتهم وثباتهم على الحق بقطع نظرهم عما ينبلهم به المشركون من ويلات العذاب بأنواعه كي يصدوهم عن سبيل الحق، دليل على صدق إيمانهم ووثوقهم به.

3- إن المؤمنين الصادقين لا تردهم عقوبة معاقب عن إيمانهم كما لا يزعزع ذلك شيئا منه ولو كان يسبب إلى موتهم، وذلك لصدق إيمانهم ووثوقهم بربهم، فهم يعلمون أن

ما عنده من الثواب خير من الدنيا وما فيها، وأن غاية التعذيب الموت، والموت هو الباب الذي يوصلهم إلى مولاهم الحق، فإذن لا يخافونه لصدق يقينهم بالله تعالى وحسن ظنهم به.

4- جواز الدخول في أمن الكافر وجواره إذا دعت الحاجة إلى ذلك وبشرط أن لا يترتب من ذلك ما يضر بالدعوة الإسلامية أو بدين المرء، ثم إنه لا فرق في ذلك بين الكتابي والمشرك كما استفدنا من الدروس السابقة.

5- شفقة النبي ﷺ على أصحابه، لا شك أن النبي ﷺ نموذج رائع في حسن القيادة حيث كان يبذل قُصارى جهده في الاهتمام بما يهم أصحابه ما لا يبذله لنفسه، فإنه آثرهم على نفسه، يحزن بحزنهم، ويكرب بكربهم، وقد كان يشاركهم في الإيذاء الصادر من المشركين، بل، ما يلاقيه من المشركين من صنوف الإيذاء أكثر مما يلاقوه غيره من الصحابة، ومع ذلك لا يعبأ بنفسه كما يعبأ بهم، وقد مر بنا أنه لما رأى إيذاء قريش يتزايد عليه هو وأصحابه أمرهم بالهجرة إلى الحبشة كي يرتاحوا من هذا التعذيب، وما ذلك إلا شفقة عليهم، ويشهد على ما ذكرت لك من أن النبي ﷺ يعانيه كل ما يعاني أمته قول الله تعالى في محكم تنزيله: « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » التوبة: (129)

6- إن أعداء الدعوة لا يقصرون في بذل طاقتهم والسعي ليل نهار في سبيل إحباطها وإفنائها، وقد استبان ذلك من صنيع قريش حيث يحاولون كل المحاولة على هذه الدعوة الميمونة منذ بزوغ فجرها ليقضوا عليها، غير أنهم لم يقدروا على ذلك لثبات

النبي ﷺ وأصحابه على ما هم عليه وعدم تقهقرهم، فاستفيد من ذلك أن الثبات والمثابرة من عوامل النجاح.

7- إذا أراد الله تنفيذ أمره وإبلاغه إلى غايته المقصودة، لا يستطيع سعي الساعي رده ولا محاولة المحاول، فالمشركون ليس لهم أي هدف إلا القضاء على الدعوة النبوية الإلهية المحمدية منذ طلوع شمسها، غير أنهم لم يصلوا إلى تحقيق هذا الغرض حتى اليوم، فكلما كادوا للإسلام كيدا فشلوا في تحقيق ذلك، وهذا يدل على أن الإسلام هو دين الحق الذي ارتضاه الله تعالى.

8- فضيلة حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب الفاروق العدوي رضي الله عنهما، لا شك أن كلا من هذين الرجلين أمة مستقلة، فبإسلامهما انقلب موازين حياة المسلمين التي يعيشونها حينئذ من الحقارة والذل إلى العزة والمنعة، وهذا دليل على فضلهما وعظيم قدرهما في الإسلام.

الأسلوب التفاوضي

لما رأى المشركون عدم اهتدائهم إلى المسلك في القضاء على الدعوة المحمدية، وأن كل ما جاءوا به لتحقيق ذلك لا يزيد طينهم إلا بلة، سلكوا طريقا أخرى، وهي طريقة المفاوضة حيث أعرضوا على رسول الله ﷺ أمورا من حظوظ الدنيا ليقبلها ويكف عنهم.

وروى ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال رسول ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا

تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حم ۞ تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۞ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » فصلت: (1-7)

ثم مضى رسول الله فيها، يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وهكذا طفقوا يفتكرون ويتشاورون فيما بينهم ينتقلون من هذه النقطة إلى هذه لتحقيق أهدافهم، ومن هذه النقط طلبهم منه أن يسأل ربه أن يجعل له جنات من نخيل تتفجر الأنهار من خلالها تفجيرا، وكنوزا وقصورا من الذهب والفضة، أو يبعث له ملكا يصدقه، أو يسير عهم الجبال، أو يسقط السماء عليه كسفا، أو يرسل عليهم العذاب كما جاء في سورة الإسراء: « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » الإسراء: (90-93)

فأجاب لهم النبي ﷺ بما أمره الله تعالى أن يجيبهم به، فقال لهم: « مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ به أَطْلُبُ أَمْوَالكُمْ وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتابًا، وأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُم بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوا عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ »[1]

فلما رأوا قريش أن ذلك لم يُجْدِهم نفعا، جاءوا بنقطة أخيرة، وهي المساومة حيث ساوموه ﷺ في أمور متعلقة بالدين فأعرضوا عليه أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته، أو يترك كل منهما بعض ما هو عليه، فأرسلوا إليه الأسود بن المطلب بن

1- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 296)

أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمى وهو يطوف بالكعبة، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » الكافرون: (1-6)

مقاطعة قريش التعامل مع بني هاشهم:

ولما رأت قريش أن جميع ما جاءوا به من الأساليب والنقاط مع بذل قُصارى جهدهم في سبيل القضاء على الدعوة المحمدية لم يجدهم ذلك نفعا، وضاقت بهم الحيل، أجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ، فعرضوا على بني عبد مناف دية مضاعفة على أن يسلموا إليهم النبي ﷺ ليقتلوه، فأبوا أن يسلموه إليهم، ثم ذهبوا إلى أبي طالب وطلبوا منه أن يسلم إليهم رسول الله ﷺ على أن يسلموا إليه شابا من أشرف شبابهم بدلا منه ﷺ، فرد عليهم بقوله: عجبا لكم، تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه!

فلما تعذر ذلك عليهم، ورأوا ما لبني هاشم وبني المطلب من تصميمهم على حفظ النبي ﷺ والتحزب له، أجمعوا أمرهم على قطع التعامل معهم ومنابذتهم كل من تحزب له ﷺ، فكتبوا بذلك صحيفة تحالفوا فيها على ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا

يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يدعوا سببا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يكلموهم، ولا يقبلوا منهم صلحا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

فانحاز النبي ﷺ ومن تحزب له مؤمنهم وكافرهم في شعب أبي طالب، وكان ذلك في شهر محرم السنة السابعة من النبوة، فمكثوا هناك في هذه الحالة ثلاثة أعوام يذوقون أنواع الجهد والضيق والشدة حتى كانوا يأكلون ورق الشجر والخبط من الجوع.

وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا، ولا يخرجون من الشعب للحوائج إلا في الأشهر الحرم، فإن أرادوا الاشتراء من العير التي ترد مكة من خارجها ضاعف أهل مكة عليهم ثمن السلعة فيعجزوا عن شرائها.

وكان أبو طالب لا ينام أول ما يأخذ الناس مضاجعهم حتى إذا نام القوم، فإذا ناموا أمر النبي ﷺ بانتقال من فراشه إلى فراش أحد بنيه أو إخوانه، ويأمر هذا الذي اضطجع النبي ﷺ على فراشه باضطجاع على فراش النبي ﷺ الذي انتقل منه، وحكمة ذلك اغترار من أراد اغتياله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ذكر ما كان يأتي به أبو لهب.

وفي أواخر السنة الثالثة من هذا الحصار، قام خمسة من أشراف قريش بنقض هذه الصحيفة الجائرة، وفك هذا الحصار الحائف، وهم: هشام بن عمرو من بني عامر بن

لؤي، وزهير بن أبي أمية المخزومي، والمطعم بن عدي النوفلي، وأبو البختري بن هشام الأسدي، وزمعة بن الأسود الأسدي.

وكان هشام بن عمرو هذا يأتي بالطعام إلى بني هاشم في شعبهم مستخفيًا بالليل، وهو أول من قام بنقض هذه الصحيفة الظالمة، وكان من الذين يكرهون هذا الحصار الجائر، فذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي ابن عمة النبي ﷺ عاتكة بنت عبد المطلب، وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم؟ فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، قال: قد وجدت رجلًا، قال: فمن هو؟ قال : أنا، قال له زهير: ابغنا رجلًا ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البخترى بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامسًا.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له

القوم، فاجتمعوا عند الحَجُون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى ناديهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل: كذبت، والله لا تشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت، وقال بقيتهم نحوا من ذلك، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلت كل ما كتب فيها إلا اسم الله تعالى، فإنها لم تأكل شيئا من اسم الله جل ثناؤه، وقد أخبر النبي ﷺ عمه أبا طالب من قبل أن الله سلط على الصحيفة أرضة فأكلت كل ما كان فيها من الجور وقطيعة الرحم، ولم تبق شيئا إلا اسم الله تعالى، فوجدوها كما وصفها.

وبهذا تم نقض هذه الصحيفة وخرج النبي ﷺ ومن معه من الحصار، وذهب كل منهم إلى منزله.

فوائد وعبر:

يستفاد من الدروس الماضية من سيرته ﷺ فوائد كثيرة مع الاعتبار، وفيما يليك بيان ذلك على الإجمال:

1- إن الكفار الذين انغمسوا في دياجير ظلمات الضلالة لا يألوا جهدهم في سبيل القضاء على دين الله تعالى وعلى المتمسكين به، فإنهم يبذلون قُصَارى جهدهم ويسعون لَيلَ نَهَارَ من أجل تحقيق ذلك بأساليب مختلفة، فإذا فشلوا في نقطة انتقلوا

إلى غيرها، لا شك أن مشركي قريش حاربوا الدعوة النبوية بجميع قواتهم وحيلهم وأفكارهم، غير أن الله تعالى أراد أن يتم هذا النور، ولذا يفشلون في جميع ما جاءوا به.

2- إن دعوة النبي ﷺ خالصة من جميع أغراض الدنيا من مال، وجاه، وزعامة وملك، وليس هدفه ﷺ جمع المال ولا طلب الرئاسة والملك، ولا زواج الجميلات الشريفات، فالغاية الكبرى من دعوته ﷺ تطهير الناس من أدناس الكفر والشرك والوثنية بعبادة الله وحده لا شريك له جل ثناؤه وتعالى ذكره، وتأديب الناس بمحاسن الأخلاق التي أدبه ربه بها تبارك وتعالى فيفلحوا بذلك ويفوزوا فوزا عظيما، ويعيشوا سعيدين في الأولى والآخرة.

3- عظيم قدر كلام الله تعالى وجلاله، فإنه كلام لا يقدر البشر على الإتيان بمثله، وكذلك الجن وجميع الخلق حتى لو اجتمعوا على ذلك.

4- شدة محبة أبي طالب للنبي ﷺ مما أدى ذلك إلى أن تحزب له، وآثره على بنيه مع كونه لا يدين بدينه ﷺ، لا شك ولا ارتياب أن أبا طالب من أحد دعائم الدعوة النبوية في بداية أمرها، وقد بذل قصارى جهده في مساعدة النبي ﷺ ومؤازرته كي يؤدي رسالة ربه، لكن شاء الله تعالى أن يموت على غير دين النبي ﷺ، وهذا ما أراده الله تعالى وشاء أن يكون الأمر على النحو الذي أراد، فلا يسأل لما فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

5- العرب نموذج كبير في الحمية والغيرة على بني جنسهم، فهؤلاء بنو هاشم وبنو المطلب، آثروا أن يكونوا مع النبي ﷺ عندما قاطعت قريش التعامل معهم حتى يسلموه

ﷺ للقتل، وأبوا عليهم ذلك وانحازوا مع النبي ﷺ في شعب أبي طالب مؤمنهم وكافرهم مع أنهم قادرون على تسليمه إليهم، وذاق كفارهم ما ذاقه مؤمنهم من ويلات الضيق والجوع من ذلك، وهذا يدلك على شدة حمية العرب وغيرتهم على بني جنسهم، مع التعاون فيما بينهم، فإنهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، لكن انقلب الموازين وتغير الأمر بعد تطاول العمد كما يشاهده الواقع.

6- إن الله تعالى يؤيد دينه بمن كان لا يدين به، فينصره بالمال والنفس والجاه ويتحزب لأهله، وهذا من الحكم الإلهية، ومن أهمها ليري الله الناس أن الهدى والضلال بيده، فمن وجد نفسه على الحق والهدى، فبموافقة الله تعالى ومشيئته، ومن وجد نفسه على الضلال فبمشيئة الله تعالى.

7- لا يجتمع الناس كلهم على الشر والظلم، فمتى أجمع قوم أمرهم على ظلم أحد والطغيان عليه، يأتي الله بمن يقاومهم في ذلك منهم.

8- علم من أعلام النبوة، وفي واقعة المقاطعة أظهر الله علامة دالة على صدق النبي ﷺ، وهي إخباره عن شأن الصحيفة حيث أخبر عمه أن الله أرسل أرضة فأكلت الصحيفة ولم تبق منها شيئا إلا اسم الله تعالى، فوجدوا الأمر كما أخبر، لكن لم يزدهم ذلك إلا بعدا عن الحق وتصمما على ضلالاتهم.

9- الضيق والمشقة لا يدومان، فمتى اشتد الضيق على المرء سيذهب عنه يوما من الأيام حتى يكون مسجلا في صحائف التاريخ كأن لم يكن أصلا.

تأييد الإسلام بوفد نجران:

في هذه الظروف التي يتفاقم إيذاء مشركي قريش على النبي ﷺ وأصحابه، أيد الله تعالى دينه بوفد من خارج مكة، وهم وفود نجران، وكانوا بضعة وثلاثين رجلا من نصارى نجران، وفدوا على رسول الله ﷺ بعد أن وصل إليهم خبره من طريق مهاجري الحبشة ليطلعوا على صفاته وأحواله التي ذكرت في كتبهم، ويسألوه عن الإسلام، فلما جلسوا إليه ﷺ ورأوا أن صفاته وأحواله قد صادفت ما في كتبهم وزيادة، وسمعوا ما قرأ عليهم من القرآن، آمنوا كلهم، فبلغ ذلك أبا جهل فجاء إليهم يسبهم ويعيبهم يقول: ما رأينا ركبا أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم، فردوا عليه قائلين: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه، فنزل في حقهم قوله تعالى: « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۞ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » القصص: (52-55)

ما يستفاد من هذا المقطوع:

ويستفاد من هذا المقطوع أن سبيل الحق ميسر لمن وُفِّق له، فمتى أراد الله لعبده الاهتداء إلى سبيل الرشاد والاستنارة بنور الإسلام سهل له الأسباب وفتح قلبه فينكشف عنه الطبع والختم، ويذهب عنه الغشاوة حتى ينشرح صدره بالإيمان، فيقبل

الحق بدون الاحتياج إلى الإطناب في الاستدلال والاحتجاج. ويستفاد من ذلك أيضا أن ما يعانيه النبي ﷺ والمسلمون من إيذاء المشركين لا يدل على أن الله تعالى خذلهم، بل، قدوم هذه الوفود إلى النبي ﷺ وإسلامهم دليل على أن نصر الله تعالى وعونه قريب، وأنه معهم وهو عليم بما كانوا فيه من الضيق، فلا ييأسوا ولا يستكانوا للعدو، فالعاقبة للمتقين.

عام الحزن

من المعلوم أن خروج النبي ﷺ ومن معه من الشعب كان في أواخر السنة العاشرة من النبوة، وهذه السنة هي التي تسمى عام الحزن، وذلك أن النبي ﷺ فقد فيه أهم الناس عنده وأحسنهم إليه، فبعد خروجه ﷺ من الشعب بقليل توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وقد حزن النبي ﷺ عليها حزنا شديدا، وقد استحقت ذلك منه ﷺ لما لها من الدور الإيجابي المنفعل في دعوته ﷺ خاصة، وفي حياته عامة، فقد بذلت قُصارى جهدها في مؤازرته ومساعدته ﷺ، وجاهدت في الله حق الجهاد بالمال والنفس والجاه، وعلاوة على ذلك كانت أول نفس زكية آمنت به ﷺ وصدقته في جميع ما جاء به من الله جل ثناؤه، وأم أولاده كلهم حاشا إبراهيم كما تقدم، وكانت قريش تخفف إيذاءها على رسول الله ﷺ من أجلها، وذلك لما لها من الجاه والسؤدد في قومها، وكان ﷺ يكثر ذكرها ويثني عليها، يقول: « قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ »[1]

ولكثرة حسناتها من مشاركتها في إبلاغ رسالة الله، ومواساتها النبي ﷺ بالمال والنفس أرسل الله جبريل عليه السلام ليقرأ عليها السلام منه جل ثناؤه ويبشرها ببيت في الجنة مرصع بالذهب واليقوت، لا صخب فيه ولا نصب كما جاء في الصحيح.

1- أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده: (24864) من طريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها، وهو صحيح، وله شواهد في صحيحي البخاري ومسلم.

وفي نفس العام، توفي عمه أبو طالب أيضا، وقد سبق وفاته وفاة خديجة رضي الله عنها بشهر وخمسة أيام على ما جزم به ابن سعد في الطبقات، وقيل غير ذلك، ولما حضرته الوفاة وهو في مرضه جاءه النبي ﷺ ليدعوه إلى الإسلام فيتوفى عليه، لكن لم يشاء الله ذلك، وروى البخاري عن المسيب رضي الله عنه: « لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" التوبة: (113) وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" القصص (56) »[1]

وذلك أن أفكار الجاهلية تغلبت على أبي طالب وترسخت في عقله، مع كونه شيخا كبيرا، فمن الطبيعي أن يصعب عليه تغييرها في مجلس واحد، مع أن النبي ﷺ لا يألو

1- أخرجه البخاري: (3884)

جهدا في دعوته إلى الإسلام وحثه عليه منذ بزوغ فجر النبوة، لكن اقتضت حكمته تعالى أن يكون الأمر على النحو الذي أراده، وقد تقدم ذلك.

ولا حاجة لنا في ذكر ما كان عليه أبو طالب من بذل قُصَارى جهده في سبيل تحقيق نصر النبي ﷺ، وما له من الدور الإيجابي الفعال في هذه الدعوة، إذ أن ذلك أمر بين يستطيع القارئ المتأمل استنباطه، ولذلك يخفف الله له العذاب يوم القيامة، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: « نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »[1]

ويعتبر وفاة هاتين الشخصيتين الفريدتين العظيمتين من أكبر الدواهي لرسول الله ﷺ، لكونهما السندين له يدفعان عنه المشركين وأذيتهم، فخديجة رضي الله عنها كانت له سندا داخليا مخففا عنه ما يلاقوه من المحن والشدائد، عندما كان له أبو طالب سندا خارجيا دافعا عنه الأعداء وشرورهم، ولم يظهر ذلك كاملا إلا بعد وفاتهما، إذ بسقوطهما تزايد عليه اعتداء المشركين فتجرءوا عليه ونالوا منه ما لم يكونوا يقدرون عليه في حياة هاتين الشخصيتين.

ما يستفاد من هذا المقطع:

ويستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ على الإجمال أن الله تعالى لا يترك أحدا لأحد، فمبالغة المرء وسعيه في نفع الناس لا يقتضي ذلك أن الله تعالى يؤخره إذا جاء

1- أخرجه البخاري في الأدب، باب كنية المشرك: (6208)

أجله، فمتى انقضى أجله توفاه الله تعالى، وذلك لينبه الله الناس على أن النفع الصادر من هذا العبد إنما يكون بمشيئته وأن الذي يصدر النفع منه إنما هو وسيلة من وسائل ذلك وسببا من أسبابه، والأسباب كثيرة فإذا انقطع هذا جاء هذا، فالحكمة في تعجيل الله وفاة أبي طالب قبل استكمال المنعة للمسلمين ليبين الله للناس أن الحماية والعناية والنصر إنما تأتي من قِبَله وحده لا تنقطع بموت أحد من الناس ممن قد يتوهم أن ذلك منه، وأن الله تعالى هو الذي تكفل بحفظ دينه وإظهاره مع إتمام نوره، فما كان من اجتهاد أبي طالب في سبيل نصر دعوة رسول الله ﷺ فبمشيئة الله تعالى وتيسيره، فلما أراد أن يبين للناس ذلك قبضه قبل أن تكون شوكة المسلمين متكاملة.

ومن المعلوم أن الله تعالى وعد لنبي ﷺ أنه يعصمه من الناس ويكفيه شرهم عند إبلاغ الدعوة، ولعل قائلا يقول: لماذا لاقى النبي ﷺ هذه المحن والشدائد التي تنوء الجبال الشامخات بحملها؟ فالجواب أن المشقة والجهد مما يزيدان الشيء قيمة، فما حصل للمرء بدون مشقة لا يعادل قدره قدر ما حصل له بمشقة طبيعة، فعنايته بهذا الثاني تكون أكثر من عنايته بالأول غالبا، ولذا لو نجح النبي ﷺ في دعوته بدون مشقة لقلت همة من بعده من المسلمين في السعي لها، فتثقل عليهم الشدائد التي يتلاقونها في سبيل الدعوة إلى الإسلام فيستكانوا لأعدائهم حتى يندرس الإسلام.

ويستفاد من ذلك أيضا أن الهداية بيد الله تعالى يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله، وتجري الأمور على النحو الذي أراد، لا يسأل: لما فعلت هذا؟ وهل فعلت كذا؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

زواجه ﷺ بالسيدة سودة وعائشة رضي الله عنهما:

بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها تزوج النبي ﷺ سودة بنت زمعة العامرية القرشية في نفس السنة، أي السنة العاشرة من النبوة، وكانت قبله تحت السكران بن عمرو، أسلما جميعا وهاجرا إلى الحبشة، فمات بها أو بعد رجوعه، فلما انقضت عدتها خطبها النبي ﷺ وتزوجها، وهي أول امرأة تزوجها النبي ﷺ بعد خديجة.

ثم عقبها بعائشة بنت أبي بكر الصديق التيمية، تزوجها وهي بنت سبع سنين، وقيل: ست سنين، غير أنه لم يدخل بها إلا بالمدينة بعد الهجرة وهي حينئذ بنت تسع سنين، ولم يتزوج بكرا غيرها.

رحلته ﷺ إلى الطائف والدعوة خارج مكة

قد سلف لك أن وفاة السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى وأبي طالب الذين كانا يدافعان عن النبي ﷺ كالحرية الكاملة لمشركي قريش في اعتدائهم وطغيانهم على المسلمين، فإنهم شمروا عن ساقهم في إيذائهم حيث تفاقم الأمر وتعاظم، حتى تعلقوا بالنبي ﷺ ذات يوم يتجاذبونه ويقولون له: أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا؟ فما استطاع أحد من المسلمين أن يخلصه منهم لضعفهم إلا أبو بكر رضي الله عنه، فتوسط بينهما وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ولم يقتصروا على ذلك، بل، كانوا يضعون عليه أوساخ الدابة عندما يصلي، وينثرون التراب على رأسه.

فلما رأى النبي ﷺ تفاقم هذه الشدائد والمحن الصادرة من هؤلاء الطغاة وأحزابهم وتكالبهم عليه وعلى من معه، خرج إلى الطائف رجاء نصرة قومها ثقيف له وقبولهم

ما جاء به من ربه، وكان ذلك في أواخر مايو، وكانت الطائفة على بعد ستين ميلا من مكة تقريبا، فتوجه إليهم النبي ﷺ ماشيا على قدميه ومعه مولاه زيد بن حارثة لا يمر بقوم إلا دعاهم إلى الإيمان، غير أنه لم يُجِبه أحد حتى وصل الطائف.

فلما وصل إلى الطائف ذهب إلى سادتهم، وهم ثلاثة: عبد يَالِيل، ومسعود، وحبيب، واسم أبيهم عمرو بن عمير الثقفي، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى ونصرة دينه، فباغتوه بما لم يتوقع من الشدة والغلظة، وردوا عليه ردا قبيحا، ولم يقتصروا على ذلك، بل، طردوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء، وشج في رأسه عدة شجاج، وكان زيد بن حارثة يبالغ في الحيلولة بينه وبينهم حتى التجأ إلى بستان لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة بن ربيعة، فكفوا عنه ورجعوا، فعمد ﷺ هو ومولاه زيد رضي الله عنه إلى ظل شجرة عنب وجلسا فيه ليستريحا من التعب الناتج من هؤلاء السفهاء الطغاة، وكان عتبة وأخيه شيبة ينظران إليهما، وكانا من أعدائهما.

فلما هدأت نفسه ﷺ أخذ يدعو ربه تبارك وتعالى ويشكوا إليه ما لاقاه من هؤلاء السفهاء يقول: « اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟[1] أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ

1- أي يواجهني بما أكره من الإيذاء.

أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى[1] حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ »[2]

فلما رآه ابنا ربيعة أخذتهما الرأفة والشفقة، فأرسلا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له: عَدَّاس بقطف من العنب إلى النبي ﷺ وصاحبه، فبسمل ﷺ عندما أراد أكله ثم أكل.

فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني من أهل نِينَوَى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى، قال له: وما يدريك ما يونس ابن متى؟ قال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها.

فلما رأى ابنا ربيعة ذلك قال أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم خرج النبي ﷺ من الحائط كئيبًا محزونًا قد كسر قلبه، وأخذ طريقه إلى مكة فلما بلغ قرن المنازل أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال إذهابا لكربه وحزنه، وتأييدا

1- أي أطلب رضاك حتى ترضى عني، والعتبى: الرضا.

2- أخرجه الطبراني في الكبير: (14764) عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وإسناده ضعيف.

له، فاستأمره ملك الجبال أن يطبق الأخشبين على أهل مكة "وهما جبلا مكة جبل أبي قبيس والذي يقابله، فقال النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: « هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ.

فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا »[1]

ثم استمر يقصد مكة حتى وصل وادي نخلة، فنزل هناك وقام في جوف الليل يصلي، فجاءه وفد من الجن ممن كانوا على دين نبي الله موسى عليه السلام، فلما سمعوه يتلو كتاب الله استمعوا له، فآمنوا به وولوا إلى قومهم منذرين، وفي شأنهم نزل قوله تعالى:

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ ۞ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى

1- أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى: (3231)

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » الأحقاف: (29-31)

وقد جاءت قصتهم في السورة المسمى باسمهم بما هو أكثر من ذلك تفصيلا، وهي قوله تعالى: « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۞ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۞ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۞ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۞ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۞ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۞ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۞ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ۞ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۞ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۞ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۞ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۞ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۞ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » الجن: (1-15)

وكل هذا نصر غيبي أمده الله على رسوله ﷺ وأقشع به سحب الكآبة والحزن مع اليأس التي تراكمت عليه لسبب ما لاقاه من ثقيف من الجهل والسفاهة والطغيان.

ورجع النبي ﷺ إلى بلده مكة ودخلها في جوار المطعم بن عدي بن نوفل، بعد أن أرسل إليه رجلا من خزاعة ليخبره بأنه سيدخل مكة في جواره، لأن قريشا لا تتركه أن يدخلها لعلمها بأنه ذهب إلى الطائف يستنصر بثقيف عليهم.

فوائد وعبر:

ويستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ ما يلي:

1- مبالغته ﷺ في القيام بما كلف الله تعالى عليه من إبلاغ الرسالة، فإنه قد أبذل قُصارى جهده في دعوة قومه إلى الله تعالى واستعمل في ذلك جميع الأساليب الحكيمة، غير أنه لم يزدهم ذلك شيئا إلا عنادا، فما آمن به منهم إلا قليل، وأكثرهم الضعفاء، فلما رأى ذلك رحل إلى الطائف التي تجاوره لتوسيع دعوته وليستنصرهم على قومه الذين خذلوه وآذوه، غير أنه وجدهم أخبث من قومه وأشد منهم إيذاء له، وهذا كله يدل على عظم شأن هذا الدين عند الله تعالى، فقد استحق أن يسعى له.

2- مشروعية السفر في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، وأنه يجوز للداعي أن يتوجه إلى العدوي الخارجي الذي يتغلب على ظنه أنه يقبل الحق إذا جاءه، فيدعوه إلى الحق، ويستنصر به على عدوه الداخلي الذي يؤذيه ودعوته، وذلك أن النبي ﷺ سافر من بلده إلى بلد آخر وهو الطائف، وكان سكانه ثقيف حينئذ قوما كافرين لم يؤمنوا بالله، فدعاهم النبي ﷺ إلى دين الحق واستنصرهم على قريش، وإن كان لم يجد ضالته المنشودة عندهم.

3- بيان ما يلاقيه النبي ﷺ من العذاب الأليم والمحن الشديدة التي تكاد الجبال الشامخات أن تتصدع بحملها في سبيل إقامة هذا الدين، وهذا من جملة تكاليفه التبليغية، وفي ذلك دلالة واضحة على جلالة خطر هذا الدين ومكانته عند الله تعالى، وما تحلى به ﷺ من الصبر الوافر والحلم الكامل، والثبات الفائق ما ساعده على مواجهة جميع الشدائد والمحن والمصائب الملحوق بها في سبيل إقامة هذه الدعوة، ومن حكمة ذلك كي يتمرن مَنْ بعده من الدعاة على ذلك، ويستطيعوا منه تسكين عظائم الأمور.

4- إن الشدائد والمحن من مبشرات النصر وإرهاصات النجاح، فمتى تراكمت على المرء الكوارث والمحن وأخذت تتفاقم عليه، فلا شك أن النصر والنجاح قريب، والمحن زائلة، حيث تكون مخزونة في خزانة التاريخ، فهذا نبينا ﷺ توجه إلى ثقيف ودعاهم إلى الإسلام واستنصر بهم على قومه، ففاجؤوه بما لم يتوقع من ألوان الاستهانة والاحتقار، وانصبوا عليه وابلا من العذاب الأليم حتى أنهكه ذلك إلى ظل شجرة العنب لتهدأ نفسه، ثم انتقل إلى بلده حزينا كسير القلب، فأمده الله تعالى بالفتوحات الربانية الغيبية حيث سانده بجند من جنوده الغيبية شديدة البطش التي لا يقدر عليها البشر، ثم عقب هذا المد بالآخر حيث أرسل إليه جندا آخر من الجن، فآمنوا به ورجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان به، فقشع سحب هذه الأحزان واليأس وصارت مسطورة في صحائف التاريخ.

5- إن شجاعة النبي ﷺ باهرة فائقة لشجاعة جميع الناس حيث تتجسد في مواجهة أمواج الشدائد والمصائب بأنواعها دون أن يتغلغل في ذلك أي تراجع وتقهقر.

6- شفقة النبي ﷺ وعفوه عمن ظلمه، فهؤلاء القوم قد ظلموه ظلما كبيرا، لكن لما تمكن عليهم وأمده الله بالعون الذي يستطيع به إبادتهم بأجمعهم، صفح عنهم ودعا لهم بالهداية، وما هذا إلا تحقيق لقوله تعالى في حقه ﷺ: « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » الأنبياء: (107)

7- الإيمان بوجود الجن، وأنهم خلق من خلق الله تعالى، وأنهم من جملة الذين تشملهم الدعوة النبوية، ففيهم مؤمن، وفيهم كافر.

منحة الإسراء والمعراج

هكذا ظلت دعوة النبي ﷺ تشق طريقها، وبدأت ملامح النصر والنجاح تتلمح في آفاقها، وبجانب آخر تتقاذف أمواج الشدائد والمصائب نبالها تجاهه ﷺ، وفي هذه الظروف كرمه الله تعالى بالإسراء والمعراج، وكان ذلك في أوائل السنة الثالثة عشرة من النبوة قبل الهجرة بأشهر على ما جزم به صاحب الطبقات، وقيل غير ذلك.

والإسراء هو انتقال النبي ﷺ ليلا من الحرم المكي إلى بيت المقدس بأرض القدس، ورجوعه من نفس الليلة، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » الإسراء: (1)

وأما المعراج فهو ما أعقب الإسراء من الصعود به ﷺ إلى السموات حتى السابعة عند مليك المقتدر، وكانت هذه الرحلة والصعود بجسمه ﷺ وروحه في حالة يقظته لا في منامه، وهو مذهب الجماهير كما حكاه النووي عهم في شرح صحيح مسلم، وهو التحقيق.

وقد وردت الأحاديث الكثيرة بألفاظ مختلفة في قصة الإسراء والمعراج، ونقتصر على ذكر حديث واحد، وهو الذي رواه مسلم والبخاري، وهاك نصه:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ - وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ - قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، قَالَ: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ

الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَ بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ "وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا"

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً.

قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ »[1]

ثم رجع النبي ﷺ نفس ليلته، فلما غدا ذهب إلى أندية قريش وأخبرهم بما جرى له تلك الليلة وما شاهد فيها من القدرات الربانية الباهرة، فأخذ بعضهم يصفق حينما يضع بعضهم يده على رأسه تعجبا وإنكارا، حتى ارتد بعض ضعفاء القلوب من المسلمين، ونقل بعضهم الخبر إلى أبي بكر الصديق، فقال أبو بكر: إن كان قال ذلك فقد صدق، إني أصدقه على أبعد من ذلك، ومن هنا سمي صديقا.

وقد تحدى قريش النبي ﷺ على أن ينعت لهم مسجد الأقصى إن كان صادقا، لأن فيهم من عرفه بسبب تجارتهم إلى الشام، فوصفه لهم كما عرفوه، وسألوه عن الأشياء الأخرى المتعلقة بالقدس فوصفها كما هي، غير أنهم لم يزدهم ذلك إلا طغيانا وتكبرا عن الحق.

وفي ذلك اليوم جاء جبريل عليه السلام النبي ﷺ فعلمه كيفية الصلاة، وبين له أوقاتها.

ما يستفاد من قصة الإسراء والمعراج بالإجمال:

ويستفاد من قصة إسرائه ومعراجه ﷺ فوائد كثيرة، نجملها لك خشية التطويل، منها بيان ما كرم الله تعالى نبيه ﷺ به من هذه المعجزة العظيمة الباهرة التي لم يعطها أحدا قط، لا شك أن رحلة جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ من مكة إلى القدس وبينهما

1- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات: (162)

بُعد مِئات ميل مع تعقب ذلك بالصعود به إلى العالم العلوي عند مليك المقتدر في ليلة واحدة ذهابا وعودة تشريفا وتكريما له ﷺ من ربه، ودلالة ظاهرة على عظم شأنه ﷺ ومكانته العلية عند الله جل ثناؤه، وأنه بمقام عظيم لا يصل إليه أحد من الخلق، وأنه إمام الخلق أجمعين، وهو أيضا من ملامح النصر والغلبة على أعداء دعوته، وذلك كله من نتائج صبره على ما لاقاه من أعدائه من ألوان الأذى، وثباته على ما هو عليه من إبلاغ رسالة ربه للناس مع ما يواجهه من هذه الشدائد والمصائب دون أن يصده شيء من ذلك عما كان عليه، وكذلك يجزي الله الصابرين.

ومن الحكمة الإلهية في هذه الرحلة المباركة إلى العالم الغيبي العلوي: إتاحة الله له ﷺ فرصة الاطلاع على مظاهر قدرته الربانية الكبرى، فتتجلى له ملكوت السموات والأرض ويشاهدها عيانا، فتملأ قلبه ثقة بالله تعالى ويتقوى على مهاجمة سلطان الكفار حتى يستأصله من أصوله، وقد حقق الله ذلك في زمن خلفائه الراشدين، فإن الدنيا انخضعت للدعوة النبوية المحمدية بحذافيرها وقتئذ، وهيمت الدعوة على جميع السلطات والإمبراطوريات الكافرة.

وهذا غيض من الفيض من الفوائد والعبر التي تؤخذ من هذه الرحلة النبوية الربانية التي لا نظير لها، ذكرناها لك بصورة الإجمال خشية التطويل.

طوافه ﷺ على القبائل إبلاغا لرسالة ربه

ولم يأل النبي ﷺ جهده في إبلاغ رسالة ربه للناس باستعمال جميع الأساليب والوسائل التي تساعده على تحقيق أغراضه، فإنه لم يلبث بعد عودته من الطائف أن قام يعرض نفسه على القبائل التي تتوافد إلى بيت الله الحرام في موسم الحج، يتبع الحجاج في منازلهم يدعوهم إلى دين الله تعالى ويطلب منهم المنعة والنصرة والإيواء حتى يؤدي رسالة ربه للناس، ويقول: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ، وَتَذِلَّ لَكُمُ الْعَجَمُ، وَإِذَا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ »[1]

ويقول أيضا: « أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي »[2] وَكان أبو لهب عليه من الله ما يستحق بورائه يقول: لا تسمعوا منه فإنه كذاب.

فمن هذه القبائل من يرد عليه ردا جميلا، ومنهم من يرد ردا قبيحا، ومن هذه القبائل بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، وهم أقبحهم رادا عليه، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو عبس، وبنو مالك بن صعصعة، وبنو سليم، وغيرهم، وقد لقي النبي ﷺ من بعضهم أذى شديدا، فمنهم من تفل في وجهه الكريم الزكي، ومنهم من حثا عليه التراب،

1- ذكره الواقدي في المغازي بصيغة الإرسال، ورواه أحمد في المسند بإسناد حسن بغير هذا اللفظ: (19004) عن ربيعة بن عباد الديلمي، وكان قد سمع من النبي ﷺ قبل أن يسلم كما جزم به الذهبي.

2- أخرجه أبو داود في القرآن: (4734) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وهو صحيح.

ومنهم من سبه، وهكذا كان حتى انتصف النهار، ثم جاءته جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه.

وهكذا ظل النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل يخرج في مواسم العرب بعكاظ ومجنة وذي المجاز عاما بعد عام، ويدعوهم إلى توحيد الله تعالى وإيوائه مع النصرة، ففي السنة الحادية من الرسالة أخذ النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل كعادته، فبينما هو عند العقبة إذ جاءه رهط عرب يثرب من الخزرج يبلغ عددهم ستة، وهم أسعد بن زُرَارة من بني النجار، وعوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفْراء من بني النجار، ورافع بن مالك بن العَجْلان من بني زُرَيْق، وقُطْبَة بن عامر بن حديدة من بني سلمة، وعُقْبَة بن عامر بن نابي من بني حَرَام بن كعب، وجابر بن عبد الله بن رِئاب من بني عبيد بن غَنم.

فشرح لهم النبي ﷺ الإسلام ودعاهم إلى كلمة الإخلاص، فأراد الله بهم الخير فأسلموا جميعا، ومما اطمأن قلبهم لقبول الإسلام كونهم يعيشون مع اليهود في بلادهم، وكان إذا وقع بينهم وبين اليهود تشاجر أو قتال قال لهم اليهود: إن الله يبعث نبيا، وقد قرب زمانه، سنؤمن به ونقتلكم معه قتل عاد وإرم.

ولذا لما دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام قال بعضهم لبعض: والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى الإيمان به.

وكان هؤلاء النفر من قبيلة الخزرج كما تقدم، وكانوا يقطنون مدينة يثرب (المدينة المنورة) مع قبيلة الأوس، وهاتان القبيلتان أولاد أخوين بينهما العداوة ما يشعل نار

الحرب بينهم، فأملوا أن يكون إطلاع نور الإسلام في بلادهم سببا لوضع هذه الحروب وإذهاب العداوة، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا ووعدوه المقابلة في الموسم التالي، فلما رجعوا بلدهم أخبروا قومهم خبر النبي ﷺ ودعوهم إلى الإيمان به، فأجابوهم حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

ما يستفاد من هذا المقطع: ومما يستفاد من هذا المقطع بصورة الإجمال، بيان سعي النبي ﷺ ليل نهار وبذل أقصى جهده في سبيل إقامة هذا الدين كما أمره الله، وصبره مع الحلم والثبات عند المصائب والشدائد التي يلاقيها من أجل ذلك، وما يمنحه الله تعالى ويمده به من النصر بعد هذه المحن، فاستفيد من ذلك أن لكل محنة منحة.

بيعة العقبة الأولى

ولم يزل هؤلاء النفر يدعون أهل المدينة إلى الإيمان حتى انتشر الإسلام في المدينة حيث لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر النبي ﷺ، فلما كان العام المقبل السنة الثانية عشرة من النبوة جاء اثنتا عشر رجلا من الأنصار فيهم خمسة من الستة الذين جاءوا في العام الماضي، وتغيب جابر بن عبد الله بن رئاب عن الحضور، وكان اثنان منهم من الأوس، والباقي من الخزرج، فالتقوا برسول الله ﷺ عند العقبة الأولى، فأسلموا وبايعوه على بيعة النساء، على ألا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، فإن وفوا فأجرهم على الله، وإن أصابوا من ذلك شيئا عوقبوا به في الدنيا وهو كفارة له، وإن أصابوا من ذلك شيئا فستره الله فأمرهم إلى الله، إن شاء عاقبهم وإن شاء عفا عنهم.

وإنما لم يبايعوه على الحرب والجهاد لعدم مشروعية القتال حينئذ، وبعد أن تمت هذه البيعة وأرادوا العودة إلى المدينة بعث معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير العبدري، ليفقههم في الدين ويتعلموا منه شعائر الإسلام، وهو أول سفير في الإسلام.

بيعة العقبة الثانية

ولما وصل مصعب بن عمير رضي الله عنه المدينة نزل في بيت أسعد بن زرارة رضي الله عنه يعلم من أسلم من الأنصار الإسلام ويدعو من لم يسلموا إلى الإيمان، فأجاب معظمهم ودخلوا في دين الله تعالى، فلم يمض هذا العام إلا وقد كثر سواد المسلمين

بعدد كبير ونالت الدعوة النبوية القبول في المدينة حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها من آمن من الرجال والنساء، فلما كان العام المقبل السنة الثالثة عشرة من البعثة رجع مصعب بن عمير رضي الله عنه بجمع كثير من مسلمي الأنصار يزيدون على سبعين رجلا جاءوا مع حجاج قومهم المشركين لأداء مناسك الحج، فجرى بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية كي لا تطلع قريش على خططهم فتسعى في نقض ما أبرموه.

وذكر ابن هشام أن محمد بن إسحاق روى في سيرته عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبًا.

قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القَطَا، مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، وامرأتان من نسائنا؛ نُسَيْبَة بنت كعب من

بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب.[1]

وكان العباس إذ ذاك على دين قريش لم يسلم، غير أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ليتوثق به، فلما اجتمعوا شرح لهم النبي ﷺ شرائع الإسلام وأهداف دعوته، وبايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، فأخذ البراء بن معرور بيده وأقسم بالله على أنهم يفعلون ذلك، وقد بين لهم العباس أن ابن أخيه كان في منعة قومه حيث لم يُتِيحُوا لأحد ممن كان يظهر له العداوة والبغضاء أي فرصة فيه حتى تحملوا من ذلك ما تحملوه من الشدة، فإن كانوا يريدون الوفاء له بما بايعوه عليه من الإيواء والمنعة فالأمر في ذلك واضح، وإلا تركوه في منعة عشيرته، فأجابوا له بأنهم لا يريدون إلا الوفاء.

ثم قال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: « بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ »[2]

فبايعوا النبي ﷺ على توحيد الله تعالى وعلى ما طلب منهم من المنعة والإيواء، ومن أوائل من بايعه أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور، ثم أمرهم رسول الله ﷺ أن يختاروا

1- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 440)

2- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 442)

اثني عشر رجلا منهم كي يكونوا لهم نقباء، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وهم: أسعد بن زُرَارَة بن عدس، وسعد بن الرَّبِيع بن عمرو، وعبد الله بن رواحة بن ثعلبة، ورافع بن مالك بن العَجْلان، والبراء بن مَعْرُور بن صَخْر، وعبد الله بن عمرو بن حَرَام، وعبادة بن الصامت بن قيس، وسعد بن عبادة بن دُلَيْم، والمنذر بن عمرو بن خُنَيْس، وهؤلاء كلهم من الخزرج، وأما الأوس فهم: أُسَيْد بن حُضَيْر بن سِمَاك، وسعد بن خَيْثَمَة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير.

وبعد اختيار هؤلاء النقباء قال لهم النبي ﷺ: « أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلَاءُ، كَكَفَالَةِ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي »[1]

وقد بلغ خبر هذه البيعة المباركة المشركين، غير أن الله تعالى كفى المسلمين شرهم بما شاء، فلم يكتشف لهم حقيقة الأمر.

فوائد وعبر:

ونجمل لك بعض ما تضمنه هذا المقطوع من الفوائد، فمنها أن لكل محنة منحة، بل هي مبشر من مباشراتها، فمتى تراكم على الإنسان المحن لا شك أن الله تعالى يريد أن يشرفه بمنحة عظيمة، انظر إلى ما لاقاه النبي ﷺ في سبيل إقامة هذه الدعوة المباركة من جميع ألوان المحن التي تتفطر منها السموات وتنقض الكواكب والقمران بثقلها طوال اثنتي عشرة سنة، غير أن شجاعته ﷺ العالية تجسدت في مواجهة هذه المحنن العظيمة حتى تغلبت عليها، ثم طفقت نجوم النصر والنجاح تتلألأ في آفاق دعوته

1- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 444)

النبوية المحمدية، فعقب هذه المحن المنح الربانية العظيمة والأمداد الرحمانية، وأنهل الله عليه من سحب فتوحاته الصمدية، ومن أعظم هذه المنح ما شرفه الله تعالى به من الإسراء والمعراج حيث اطلعه الله على ملكوت السموات والأرض، وقدراته السبحانية، حتى بلغ سدرة المنتهى عند مليك المقتدر في الحضرة القدسية الإلهية، وهذا ذروة التكريم، ومبلغ التشريف، ومنتهى التعظيم ما لم ينله أحد من العالمين، ثم أمده بفتح عظيم، وهو بيعتا العقبة الأولى والثانية التان هما بجملتهما إشارة واضحة إلى أن موعد تأسيس الدولة الإسلامية العالمية الأولى قد حان، وأن موقعها المدينة المنورة، لا شك أن هذا فتح عظيم إسلامي، وجميع الفتوحات الإسلامية مربوطة به متعاقبة له بصورها المتدرجة.

هجرة الصحابة إلى المدينة

وبتمام هذه البيعة المباركة تم تأسيس الوطن للإسلام، واستكمل التمهيد والاستعداد للهجرة، وهذا أعظم كسب كرم الله به الإسلام والمسلمين.

وبعد عودة الأنصار إلى المدينة توسع مشركي قريش في اعتدائهم على المسلمين، فطفقوا يفاجئونهم بألوان الإيذاء الجديد، ويذيقونهم ويلات الضيق والشدة، فلما رأى النبي ﷺ ذلك أمرهم بالهجرة إلى دار الأمن المدينة المنورة.

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن عائشة رضي الله عنها قالت: « لما صدر السبعون من عند رسول الله، ﷺ، طابت نفسه وقد جعل الله له منعةً وقوما أهل حرب وعدة ونجدة. وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، واستأذنوه في الهجرة، فقال: قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخةً ذات نخلٍ بين لابتين، وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخلٍ وسباخ لقلت هي هي، ثم مكث أياما ثم خرج إلى أصحابه مسرورا فقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها؛ فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ، أبو سلمة ابن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ، أرسالا فنزلوا على الأنصار في دورهم، فآووهم ونصروهم وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم

المهاجرين بقباء قبل أن يقدم رسول الله ﷺ، فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة كلبت قريش عليهم وحربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم، وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ، في العقبة الآخرة ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون، وهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد، وخرج المسلمون جميعا إلى المدينة، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعلي، أو مفتون محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج »[1]

ولم يهاجر أحد من المسلمين إلا متسللا خيفة من قريش أن تفطن به فتمنعه حاشا عمر الفاروق أسد الله الباسل رضي الله عنه، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه، أي علقه على منكبه، وأخذ في يده أسهما، واختصر عصاه، وتوجه إلى أندية مشركي قريش عند الكعبة، فطاف بها سبعا مطمئنا، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف نحوهم فقال: من أراد أن يثكل أمه أو يؤتم ولده أو يرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، ثم ذهب، فما تبعه أحد منهم.

ولم تكن هجرة الصحابة هذه بمعنى نزهة يروح فيها المرء عن نفسه، بل، إنما هي التضحية بالمال والأهل وجميع المصالح الدنوية، للنجاح بالإيمان، فإن الصحابة غادروا مكة بدون أن يلتفتوا إلى شيء من المال والأهل وما في معنى ذلك، فكم منهم فرق

1- انظر الطبقات الكبرى لابن سعد: (1/ 175)

بينه وبين زوجته وأولاده كأبي سلمة المخزومي، وكم منهم جرد من ماله كصهيب بن سنان النمري، غير أنهم لم يعبأوا بذلك لكونهم آثروا الله ورسوله على كل شيء سواهما، وهذا هو معنى الهجرة لا غير.

وهاجر جميع المسلمين إلى المدينة لم يبق منهم إلا النبي ﷺ وربيبه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصديقه الودود أبو بكر الصديق الأكبر، ومولاه زيد بن حارثة، والمستضعفون الذين لا تمكنهم حالهم من الهجرة كالعبيد الأرقاء ومن في معناهم رضي الله عنهم.

أما النبي ﷺ فإنما منعه من الهجرة من أول يومها كونه ينتظر الأمر من الله تعالى، ولكونه أيضا إماما قائدا لا ينبغي أن يهاجر أولا ويترك أتباعه في الضيق والشدة، وهذا من صفات الرئيس العادل، وأما أبو بكر وعلي وزيد فليكونوا معه ﷺ ويستأنس بهم، إذ لا يليق أن يتركه ﷺ وحده حتى يطغى عليه بعض المشركين، وإن كان هو في منعة الله تعالى وحمايته.

خطة المشركين وهجرة النبي ﷺ المباركة

لما رأت قريش ما أمد الله تعالى به نبيه ﷺ من هذا الفتح المبين والنصر الخطير حيث تحشد دونه الأشياع من غير بلدهم، وتحزب له الأحزاب من الخارج، تحيروا من ذلك وطفقوا يتخبطون في غمراتهم الساهية، لأن ذلك نذير لهم على أن هناك خطر عظيم بصورته الحقيقية قد تجسد أمامهم للقضاء على كيانهم الوثني، فاجتمعوا على عجالتهم في دار الندوى[1] يتشاورون فيما بينهم في أمر النبي ماذا يصنعون به قبل أن يغادر مكة ويلتحق بأصحابه؟ فيجمع لحربهم، وذلك لعلمهم بما فيه من كمال القيادة، وما اتصف به أصحابه من العزيمة الكاملة والتضحية في سبيله، وقوة قبيلتي الخزرج والأوس، وما للمدينة من الموقع الاستراتيجي ما ليس لغيرها من بلاد الحجاز حيث لا يتمكن منها العدو، فاتفقوا أخيرا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا، ثم يعمد إليه هؤلاء الشباب بسيوفهم فيضربوه ضربة رجل واحد حتى يقضوا عليه، فيفترق دمه في هذه القبائل حيث لا تقدر عشيرته بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم، وذلك مما يضطرهم إلى أخذ الدية، فضربوا لذلك الميعاد، لكن الله تعالى هو الذي يقوم بعناية النبي ﷺ وقد وعده العصمة والكفاية من كيد الكائدين ومكر الماكرين، وكان وعده مفعولا، ولذا رد كيد هؤلاء المشركين فأرسل جبريل إليه ﷺ وأخبره بما دبره أعداؤه سرا، وأُمِر بالهجرة إلى دار الأمن العاصمة الإسلامية العالمية الأولى دار الهجرة النبوية

1- (دار الندوى) هي دار قصي بن كلاب التي تقضي قريش أمورها فيها.

المدينة المنورة، ونترك عائشة رضي الله تعالى عنها أن تقص لنا شيئا من قصة هذه الهجرة الميمونة:

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، وفيه قالت: « وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَى رِسْلِكَ[1] فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ وَهُوَ الْخَبَطُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ[2] قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا[3] فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بِالثَّمَنِ.

1- أي سر بتؤدة وتأن وتمهل ولا تعجل.

2- أي أول الظهيرة، والظهيرة وقت انتصاف النهار.

3- أي مغطيا رأسه بالعمامة أو بغيرها.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ[1] الْجِهَازِ وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ،[2] فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا[3] فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ،[4] فَيُدْلِجُ[5] مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ[6] بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا[7] عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ

1- ولعله تصحيف (أحب) كما قال صاحب الفتح، وهو قوي متجه.

2- لفظ: (سفرة) بضم السين، وهو زاد المسافر من الطعام، و(جراب) بكسر الجيم، وهو الوعاء المصنوع من الجلد.

3- النطاق: هو قطعة ثوب تشد به المرأة وسطها بعد لبسها إزارها.

4- ثقف: أي حاذق ماهر، و(لقن) ذو فهم وذكاء.

5- أي يأتيهما آخر الليل، والإدلاج هو السير في أول الليل أو آخره، ويطلق على السير في أية ساعة من الليل.

6- أي يمكران بهما لإيذائهما، يقال: اكتاد به إذا مكر به واحتال عليه وأراد به سوء.

7- أي يردها إليهما.

فِي رِسْلٍ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا[1] حَتَّى يَنْعِقَ[2] بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ.

وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيًا خِرِّيتًا، وَالخِرِّيتُ: الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ »[3]

وقبل خروج النبي ﷺ بعد استكمال خطة الهجرة مع الصديق رضي الله عنه، رجع ﷺ إلى بيته يترقب الليلة للهجرة، واستمر في أعماله اليومية المعتادة كي يصرف بذلك عقول قريش أنه يستعد للهجرة، وكانت هذه الليلة هي الموعودة لتنفيذ ما قررته قريش من قتل النبي ﷺ، فاجتمع شبابهم المذكورون الذين يقومون بتنفيذ القرار، وهم: أبو جهل بن هشام، والحَكَم بن أبي العاص، وعُقْبَة بن أبي مُعَيْط، والنَّضْر بن الحارث، وأُمية بن خَلَف، وزَمْعَة بن الأسود، وطُعَيْمة بن عَدِيٍّ، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونُبَيْه بن الحجاج، وأخوه مُنَبِّه بن الحجاج.

1- المنحة: هي ما يعير الرجل أخاه من الغنم أو الإبل أو البقر كي ينتفع باللبن ونحوه إلى مدة. و(الرضيف): هو اللبن الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليغلي ويذهب وخمه.

2- أي يصيح بالغنم لزجرها.

3- أخرجه البخاري في اللباس، باب التقنع: (5807)

وكان ﷺ ينام أول الليل ويخرج بعد انتصافه إلى الحرم فيقوم الليل فيه، فطفق هؤلاء المذكورون يرددون النظر من شقوق الباب ليثبتوا وجوده بالبيت، فلما حان الموعد أمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يضطجع على فراشه ويسجي ببرده كي لا يترددوا في وجوده بالبيت، ففعل علي رضي الله عنه ذلك، ثم خرج عليهم النبي ﷺ يقرأ قوله تعالى: « وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » يس: (9)

فجعلهم الله تعالى محجوبين عنه لا يقدرون على رؤيته، بل، لم يقتصر الأمر على ذلك، فإنه لم يبق رجل منهم إلا حثى رسول الله ﷺ التراب على رأسه، ثم لحق النبي ﷺ أبا بكر وسار معه حتى وصلا غار ثور فاختفيا فيه حتى ينقطع البحث عنهما لعلمها بأن قريشا تقتفي أثرهما لتقبضهما، ولما وصلا الغار، قال أبو بكر للنبي ﷺ: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل وفحصه، فإذا بأجحار في بعض جوانبه، فشق إزاره وسدها به، غير أنها لم تكف لسدها كلها، فقد بقي منها جُحران، فألقمهما رجليه بعد أن كنس الغار، ثم طلب من النبي ﷺ أن يدخل، فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر، غير أنه لم يتحرك خشية أن يستيقظ النبي ﷺ، فسقطت دموعه على وجه النبي ﷺ، فقال: "ما لك يا أبا بكر؟" قال: لدغت، فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده، وكان ذلك في ثاني ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة بعد الرسالة.

ولم يخرج النبي ﷺ مع علي رضي الله عنه، بل، خلفه بعده ريثما يؤدي عنه الأمانات من ودائع الناس التي كانت عنده، إذ أنه ليس هناك شيء نفيس من المال يخشى عليه الرجل من أهل مكة إلا استودعه عنده ﷺ لعلمهم بأمانته وصدقه ما ليس لغيره كما سلف.

وأما قريش فإنهم لما علموا بما أصابهم من هذا الفشل الخطير مع غاية تيقظهم وتنبههم، تحيروا من ذلك تحيرا ذريعا لم يقعوا لمثله قط، فأرسلوا وراءه الطلب من كل جهة، ووعدوا العطايا الثمينة لمن جاء بالنبي ﷺ وأبي بكر، لكل واحد منهما مائة ناقة، فوصل بهم الطلب إلى غار ثور حتى أحاطوا ببابه حيث لو طأطأ أحدهم رأسه لرآهما، فأوجس من نفس أبي بكر خيفة، وإنما خاف على رسول ﷺ لا على نفسه، وأخرج البخاري عن أنس عن أبي بكر رضي الله عنهما قال: « قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟ »[1] أخرجه البخاري.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى ذلك لنا في محكم تنزيله حيث يقول: « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » التوبة: (40)

1- أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم: (3653)

وقد حجبهما الله جل ثناؤه عن أعين هؤلاء الطغاة حيث أعمى أبصارهم فلم يقدر واحد منهم على رؤيتهما، فانقلبوا خائبين فاشلين.

وهكذا كان النبي ﷺ وصاحبه في الغار حتى ثلاث ليال، وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما كما تقدم في حديث عائشة رضي الله عنها، ثم انطلقا بعد أن خمدت نار الطلب والتفتيش، وقصدا المدينة المنورة بقيادة عبد الله بن أريقط الليثي الذي كان هاديا خريتا، أي ماهرا في معرفة مسالك الأرض وشعابها.

وأخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: « جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه إِلَى أَبِي فِي مَنْزِلِهِ، فَاشْتَرَى مِنْهُ رَحْلًا، فَقَالَ لِعَازِبٍ: ابْعَثِ ابْنَكَ يَحْمِلْهُ مَعِي، قَالَ: فَحَمَلْتُهُ مَعَهُ، وَخَرَجَ أَبِي يَنْتَقِدُ ثَمَنَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبِي: يَا أَبَا بَكْرٍ حَدِّثْنِي كَيْفَ صَنَعْتُمَا حِينَ سَرَيْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا، وَمِنَ الْغَدِ حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، وَخَلَا الطَّرِيقُ لَا يَمُرُّ فِيهِ أَحَدٌ، فَرُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ، لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ فَنَزَلْنَا عِنْدَهُ، وَسَوَّيْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَكَانًا بِيَدِي يَنَامُ عَلَيْهِ، وَبَسَطْتُ فِيهِ فَرْوَةً،[1] وَقُلْتُ: نَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ.

فَنَامَ وَخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِهِ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا، فَقُلْتُ لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ، قُلْتُ: أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: أَفَتَحْلُبُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَخَذَ شَاةً، فَقُلْتُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ التُّرَابِ وَالشَّعَرِ وَالْقَذَى.

1- بفتح الفاء، وهي الجلد ذات الشعر، والجمع: فراء بالكسر، وفروات بالفتح.

قَالَ: فَرَأَيْتُ الْبَرَاءَ يَضْرِبُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى يَنْفُضُ، فَحَلَبَ فِي قَعْبٍ كُثْبَةً[1] مِنْ لَبَنٍ، وَمَعِي إِدَاوَةٌ حَمَلْتُهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَرْتَوِي مِنْهَا،[2] يَشْرَبُ وَيَتَوَضَّأُ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ، فَوَافَقْتُهُ حِينَ اسْتَيْقَظَ، فَصَبَبْتُ مِنَ الْمَاءِ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ، فَقُلْتُ: اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: فَشَرِبَ، حَتَّى رَضِيتُ ثُمَّ قَالَ: "أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ" قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا مَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ، فَقُلْتُ أُتِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: "لَا تَحْزَنْ، إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَارْتَطَمَتْ[3] بِهِ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا - أُرَى فِي جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ، شَكَّ زُهَيْرٌ - فَقَالَ: إِنِّي أُرَاكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوَا لِي، فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ، فَدَعَا لَهُ النَّبِيَّ ﷺ فَنَجَا فَجَعَلَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: كَفَيْتُكُمْ مَا هُنَا، فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ، قَالَ: وَوَفَى لَنَا »[4]

خَيْمَتَا أم معبد:

وهكذا ظل النبي ﷺ وصاحبه الصديق الأكبر رضي الله عنه ومن معهما يسيرون متوجهين نحو المدينة، وذات يوم مروا بِخَيْمَتَيْنِ لامرأة تسمى أم مَعْبَد الخُزاعية، وكان

1- بفتح القاف، وهو القدح العظيم الغليظ، والجمع قعاب بالكسر، وقعبة كذا بالكسر، و(كثبة أي: قليل.

2- أي يشرب منها حتى يشبع.

3- أي غاصت قوائمها في الأرض حتى لصق بطنها بالأرض، مع أن المكان كان ذا صلابة.

4- أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (3615)

موقعهما بالـمُشَلَّل من ناحية قُدَيْد عند مساكن الخزاعة على بعد ثلاثين ومائة كيلو متر من مكة، وهاك القصة بتمامها:

عن هشام بن حبيش بن خويلد الـخُزاعي رضي الله عنه قال: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَدَلِيلُهُمَا اللَّيْثِيُّ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ، مَرُّوا عَلَى خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدٍ الْـخُزَاعِيَّةِ، وَكَانَتِ امْرَأَةً بَرْزَةً[1] جَلْدَةً[2] تَـحْتَبِي[3] بِفِنَاءِ الْخَيْمَةِ، ثُمَّ تَسْقِي وَتُطْعِمُ، فَسَأَلُوهَا لَـحْمًا وَتَـمْرًا لِيَشْتَرُوا مِنْهَا، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقَوْمُ مُرْمِلِينَ[4] مُسْنِتِينَ،[5] فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى شَاةٍ فِي كَسْرِ[6] الْخَيْمَةِ.

فَقَالَ: مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ؟ قَالَتْ: شَاةٌ خَلَّفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ، قَالَ: هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلُبَهَا؟ قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبْهَا، فَدَعَا بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا،

1- برزة: أي كبيرة السن حيث لا تحتجب احتجاب المخالطة، بل تجالس الناس وتحدث عندهم مع عفة.

2- جلدة: أي قوية صلبة.

3- تحتبي: أي تجلس على أليتيها وتضم فخذيها وساقيها إلى بطنها بيديها ليستند، وهذه هي جلسة الأعراب، و(الخيمة) بفتح الخاء هي البيت الذي يتخذ من صوف أو قطن يقام على أعواد، وهو غالب بيوت أهل البادية.

4- مرملين: أي نفد ما عندهم من القوت كأنهم لصقوا بالرمل من الفقر.

5- مسنتين: أي أصابهم القحط والجدب والمجاعة.

6- كسر الخيمة: بفتح الكاف، أي جانبها.

وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى، وَدَعَا لَهَا فِي شَاتِهَا، فَتَفَاجَّتْ[1] عَلَيْهِ وَدَرَّتْ،[2] فَاجْتَرَّتْ[3] فَدَعَا بِإِنَاءٍ يَرْبِضُ[4] الرَّهْطُ فَحَلَبَ فِيهِ ثَجًّا[5] حَتَّى عَلَاهُ الْبَهَاءُ، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوِيَتْ وَسَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا وَشَرِبَ آخِرَهُمْ حَتَّى أَرَاضُوا،[6] ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ الثَّانِيَةَ عَلَى هَدَّةٍ[7] حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ، ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا، ثُمَّ بَايَعَهَا وَارْتَحَلُوا عَنْهَا، فَقَلَّ مَا لَبِثَتْ حَتَّى جَاءَهَا زَوْجُهَا أَبُو مَعْبَدٍ لِيَسُوقَ أَعْنُزًا عِجَافًا يَتَسَاوَكْنَ[8] هُزَالًا مُخُّهُنَّ قَلِيلٌ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبَدٍ اللَّبَنَ أَعْجَبَهُ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا يَا أُمَّ مَعْبَدٍ وَالشَّاءُ عَازِبٌ[9] حَائِلٌ،[10] وَلَا حلوبَ[11] فِي الْبَيْتِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا،

1- تفاجت: أي فتحت ما بين رجليها كي يحلبها النبي ﷺ.

2- أي أنزلت اللبن من ضرعها.

3- أي أخرجت ما في بطنها من الأكل ومضغته مرة ثانية.

4- يربض: أي يرويهم ويثقلهم حتى يناموا، وهو مأخوذ من قولهم: ربض بالمكان إذا لصق به ولازمه.

5- ثجا: أي كثيرا سائلا، من الثجوج، وهو انصباب الماء وتدفقه.

6- أراضوا: أي شربوا مرة بعد أخرى حتى رووا، من إراضة، وهي أن يجتمع الماء في الأودية والأحواض حتى يواري أرضها.

7- هدة: بفتح الهاء اسم مرة من هد، وهو الصوت الشديد من خسف وغيره، وكأنها تريد صوت إنصباب اللبن من الضرع عند الحلب.

8- أي يتمايلن من الضعف والهزال.

9- عازب: أي بعيدة المرعى حيث لا ترجع إلى البيت إلا بالليل.

10- أي لا تحمل.

11- حلوب: أي شاة أو ناقة ذات اللبن الكثير.

قَالَ: صِفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبَدٍ، قَالَتْ: رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ، وَلَمْ تُزْرِيهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُّ أَقْرَنُ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ فَصْلًا، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ، يَتَحَدَّرْنَ، رَبْعَةٌ لَا تَشْنَأُهُ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إِنْ قَالَ: سَمِعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لَا عَابِسٌ وَلَا مُفَنَّدٌ.[1]

قَالَ أَبُو مَعْبَدٍ: هَذَا وَاللَّهِ صَاحِبُ قُرَيْشٍ الَّذِي ذُكِرَ لَنَا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذُكِرَ وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَأَصْبَحَ صَوْتٌ بِمَكَّةَ عَالِيًا يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ، وَلَا يَدْرُونَ مَنْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يَقُولُ:

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ	رَفِيقَيْنِ حَلَّا خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلَاهَا بِالْهُدَى وَاهْتَدَتْ بِهِ	فَقَدْ فَازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فَيَا لَقُصَيٍّ مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمُ	بِهِ مِنْ فَعَالٍ لَا تُجَازَى وَسُؤْدُدِ
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ	بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدُ اللَّهُ يَسْعَدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَقَامُ فَتَاتِهِمْ	وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا	فَإِنَّكُمُ إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ

1- وسيأتي شرح مفردات كلمات وصفها هذا له ﷺ في آخر الكتاب عند الكلام عن شمائله ﷺ إن شاء الله تعالى.

دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ عَلَيْهِ صَرِيحًا ضَرَّةَ الشَّاةِ مَزْبَدِ
فَغَادَرَهُ رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ يُرَدِّدُهَا فِي مَصْدَرٍ بَعْدَ مَوْرِدِ.

فَلَمَّا سَمِعَ حَسَّانٌ الْهَاتِفَ بِذَلِكَ، شَبَّبَ يُجَاوِبُ الْهَاتِفَ، فَقَالَ:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ فَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتْبَعِ الْحَقَّ يَرْشُدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلَالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا عَمًى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
وَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ رِكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ »[1]

وكان أبو بكر رضي الله عنه ردفًا للنبي ﷺ، وكان شيخًا يُعرف لكونه يمر بالقبائل التي بين مكة وغيرها لتجارته إلى الشام، خلافا للنبي ﷺ، فإنه لا يُعرف، فإذا لقيه أحد وسأله عن النبي ﷺ؟ قال له: هذا الرجل يهديني الطريق، فيحسب أنه يعني به الطريقة الحقيقية، غير أنه يريد طريق الخير.

1- أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك، في الهجرة: (4326) وهو صحيح الإسناد كما قال مخرجه، وهو كما قال.

قصة سراقة بن مالك المُدْلِجِي:

وقد سلف لك أن قريشا جعلت الجوائز الجسيمة لمن أتى بالنبي ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، وانتشر هذا الخبر إلى جميع الجهات، فبينما النبي ﷺ وصاحبه يسيران بساحل البحر قاصدين المدينة، إذ رآهما رجل من المُدلِجِ، فأقبل إلى جماعة من قومه وأخبرهم بأنه رآهما، وكان فيهم رجل يسمى سُراقَة بن مالك، فعرف سراقة أن هذين المذكورين هما الذان جعلت عليهما قريش الجوائز.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِيِّ وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ: « جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ فَقَالَ: يَا سُرَاقَةُ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً[1] بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً.

1- أسودة: جمع قلة لسواد، وهو الشخص، وسمي بذلك لأنه يرى من بعيد أسود، ويجمع أيضا على أساود.

ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ، فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ، فَحَطَطْتُ[1] بِزُجِّهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا، فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ فَاسْتَقْسَمْتُ[2] بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لَا فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ، تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ، سَاخَتْ[3] يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ[4] سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ فَوَقَفُوا.

فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَرْزَآنِي[5] وَلَمْ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ:

1- أي أملت حديدته إلى الأرض وأنزلتها إليها، والزج بضم الزاي هو نصل الرمح، أي الحديدة الملتصقة به من أسفله.

2- استقسمت: أي ضربت واقترعت بها كي أعلم نصيبي وقدره كما كانت الجاهلية تفعل.

3- أي رسخت وغاصت.

4- عثان: أي الغبار.

5- يرزآني: أي لم يقبضا عني شيئا.

أَخْفِ عَنَّا، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ »[1] أخرجه البخاري.

الوصول إلى قباء والنزول بها:

وهكذا واصل النبي ﷺ ومن معه السير حتى وصلوا قباء، وذلك في ثاني ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة بعد البعثة السنة الأولى للهجرة، فاستقبله أهلها، ونزل في بني عمرو بن عوف عند كلثوم بن الْهِدمِ، وأقام هناك أربعة أيام، وأسس مسجد قباء الذي وصفه الله تعالى بقوله الطيب: « لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » التوبة: (108)

ثم التحق علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنبي ﷺ فيها بعد أن أدى عنه الودائع إلى أصحابها.

قدوم المدينة:

وبعد تأسيس النبي ﷺ مسجد قباء المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه هو وأصحابه الذين كانو معه، تحول إلى دار الهجرة النبوية العاصمة الإسلامية العالمية الكبرى المدينة النبوية المنورة الطيبة.

قال عروة بن الزبير: « وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا

1- أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (3906)

بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ[1] مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمُ[2] الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ »[3]

ولما دخل النبي ﷺ المدينة استقبله جميع سكانها حتى الشيوخ، والشباب، والأطفال، فرحا بمجيئه، ولم يفرحوا بشيء قط كفرحهم بقدوم النبي ﷺ، وقد استحق ﷺ ذلك منهم، لأن البقاء معه ﷺ بالإيمان أفضل خَيرٍ مَنَّ الله به على أحد من خلقه، ولذا يعتبر الأنصار ذلك اليوم من أسعد أيامهم على الإطلاق، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت البنات بغاية الفرح والسرور يقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعْ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا ... جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعْ

وكان كل من الأنصار يسير وراءه ﷺ يود أن يكون النبي ﷺ نزيله، فلا يمر بدار من دورهم إلا أخذوا زمام راحلته يقولون: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان

1- أطم: أي حصن مبني بالحجارة، أو البيت المسطح.
2- جدكم: أي حظكم وسعادتكم.
3- أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (3906)

يقول لهم: "خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ" فلم تزل تسير به حتى وصلت إلى موقع مسجده الشريف بدار أخواله بني مالك بن النجار فبركت هناك، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت فبركت في مبركها الأول، فنزل عنها، ونزل بدار أبي أيوب الأنصارى رضي الله عنه.

وروى ابن إسحاق في سيرته عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: « لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي، نَزَلَ فِي السُّفْلِ وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ فِي الْعُلْوِ، فَقُلْت لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي لَأَكْرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ، وَتَكُونَ تَحْتِي! فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي الْعُلْوِ وَنَنْزِلَ نَحْنُ فَنَكُونَ فِي السُّفْلِ، فَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوبَ، إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا، أَنْ نَكُونَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ.

قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سُفْلِهِ وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ، وَلَقَدِ انْكَسَرَتْ جُرَّةٌ فِيهَا مَاءٌ يَوْمًا، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا، مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرَهَا، نُنَشِّفُ بِهَا الْمَاءَ تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيَهُ.

قَالَ: وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعَشَاءَ ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِهِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، حَتَّى بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بِعَشَائِهِ وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ بَصَلًا أَوْ ثُومًا، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فِيهِ أَثَرًا، قَالَ: فَجِئْتُهُ فَزِعًا، فَقُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، رَدَدْتَ عَشَاءَكَ، وَلَمْ أَرَ فِيهِ مَوْضِعَ يَدِكَ، وَكُنْتُ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا، تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِكَ، نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، قَالَ: إِنِّي

وَجَدْتُ فِيهِ رِيحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِي، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ، قَالَ: فَأَكَلْنَاهُ وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدُ »[1]

ثم وصلت إليه بعد ذلك زوجه سَوْدَة بنت زمعة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وابن حبه أسامة بن زيد، وحاضنته أم أيمن بركة الحبشية، ومعهم عبد الله بن أبي بكر وأم رومان زوج أبي بكر، وبنتاه عائشة وأسماء زوج الزبير بن العوام رضي الله عن الجميع، وأما زينب فبقيت عند أبي العاص، ولم تجد إلى الهجرة سبيلا إلا بعد بدر.

وقد منع مشركي مكة المستضعفين من المسلمين عن الهجرة حيث حبسوهم وعذبوهم عذابا غليظا، منهم هشام بن العاص، والوليد بن الوليد، وخلق سواهما، وكان ﷺ يدعو لهم، وكان بعضهم يتسللون إذا انتهزوا فرصة لذلك.

وأما المهاجرون فلم تطيب لهم هواء المدينة أولا حتى تسبب ذلك إلى إصابة كثير منهم بالحمى، فلما رأوا الأمر يتفاقم شكوا إلى النبي ﷺ ذلك فدعا لهم وقال: « اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ »[2] فاستجاب الله دعاءه هذا المبارك، وانكشف عنهم ما بهم فعاشوا فيها سعيدين في السلام.

1- انظر الروض الأنف: (2/ 340) وأخرجه أحمد في المسند برقم: (23570) باختلاف، وهو صحيح الإسناد.

2- أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة: (3926).

فوائد وعبر:

يستفاد من هذه الدروس المباركة المتقدمة فوائد عظيمة جليلة، نجملها لك فيما يأتي:

1- إن الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل أمر قديم، بل، هو السنة الإلـهية الجارية منذ بداية التاريخ البشري، وكل من يتتبع القرآن مع التأمل والتدبر يجد أمثلة ذلك في عدة مواضع منه، فإنه مملوء بأخبار السالفين من الأنبياء وما جرى بينهم وبين قومهم من صراع عظيم، إذن فكل ما كان يجري من ذلك اليوم فهو كالتاريخ يكرر نفسه، ولم تزل هذه السنة نافذة مستمرة إلى نهاية العالم، إلا أن العاقبة للمتقين كما قال تعالى: « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » المجادلة: (21)

2- إن النبي ﷺ قد بلغ مبلغا عظيما من الأمانة والصدق حيث صار نموذجا فائقا في ذلك، ولذا كان مشركي قريش مع ما أضمروه له من الحقد والعداوة يعتبرونه من أصدقهم حديثا، وأحفظهم أمانة حيث يستودعون نفائسهم التي يخشون ضياعها عنده ﷺ، فلما أجمعوا أمرهم على قتله وأُمِر بالهجرة إلى المدينة المنورة ليتخلص من كيدهم، جاء بأروع المثال في الصدق والأمانة حيث أمر علي بن أبي طالب بأن يتخلف بعده ليؤدي عنه الأمانات من الودائع إلى أصحابها الذين كانوا مشركين غالبا بغض نظره عما لاقاه منهم من الشدائد ثم إخراجه من مولده، وهذا يدل على أن الصدق والأمانة من أعظم محاسن الإسلام التي أدب الله بها نبيه ﷺ وأمر المؤمنين بالمحافظة عليها، فإن الصدق والأمانة من أكبر أسباب الفلاح والنجاح في الأمور كلها، فلا يجوز للمسلم أن يخون الأمانة إذا ائتمن عليها، ولو كان من ائتمنه كافرا يؤذيه، أو ظالما يظلمه، بل يجب عليه الحفاظ على الأمانة مطلقا، ولا يخن من خانه،

والقواعد الشرعية متظاهرة على ذلك، منها قوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا » النساء: (58)

أمر الله تعالى بأداء الأمانات إلى أصحابها مطلقا بصرف النظر من كون صاحبها كافرا أو فاسقا أو ظالما، والنبي ﷺ أفضل من يقتدى به في ذلك وأروع مثال.

3- إن المقصود بالهجرة التضحية بالنفس والمال والوطن والأهل وما في معنى ذلك من مصالح الدنيا في سبيل إقامة كلمة الإخلاص، وليس المراد منها مغادرة الوطن والسياحة للنزهة كعادة السياحين، فمن تأمل هجرة النبي ﷺ وأصحابه يتبين له من خلال ذلك أنها مبنية على هذا الغرض لا غير، فلم يغادر النبي ﷺ مكة بشيء من المال أو الأهل، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم إنما غادروها بأنفس الأشياء في الحقيقة: الإيمان والإخلاص، وحب الله ورسوله الخالص، وهكذا ينبغي أن يكون كل مهاجر، وبالله التوفيق.

4- مشروعية الأخذ بالأسباب، ومن تتبع هذه الهجرة النبوية المباركة يجدها مملوءة بالأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، فالنبي ﷺ فوض أمره إلى الله تعالى واتكل عليه، غير أنه سعى في تحقيق هدفه بالأخذ بالأسباب المبلغة للآمال مع أن الله قادر على أن يأمر جبريل بإيصاله إلى المدينة في أقل من الدقيقة بدون مشقة، بل هو قادر على ما هو أعظم من ذلك، لكن اقتضت حكمته أن يكون الأمر على النحو الذي أراد تبعا لخططه الربانية، وفي ذلك دلالة واضحة على أن الأخذ بالأسباب سنة إلهية

اختارها الله تعالى لعباده الصالحين، وأن مجرد التفويض بدون أي سعي ليس من الأمور التي يحض الشارع على مطلوبيتها.

5- بيان ما مَنَّ الله تعالى به على رسوله ﷺ من دقة التخطيط مع إحكام الأمور، لا شك أن ذلك من الأمور المطلوبة شرعا، لكونه من عوامل النصر والنجاح المنفعلة.

6- شجاعة علي رضي الله عنه مع وثوقه بالله تعالى وبرسوله ﷺ وإيثاره محبته ﷺ على نفسه ما يدل على أنه قد استكمل الإيمان، فإن النبي ﷺ أمره بأن يضطجع على فراشه عندما اجتمع المشركون بباب بيته ليقتلوه، وضمن له أنه لا يمسه سوء، ففعل رضي الله عنه ذلك إيمانا وتصديقا، محبة وإجلالا.

7- فضيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وشدة حبه لرسول الله ﷺ، لا ارتياب أن من تتبع هذه الهجرة المحمدية المباركة يتبين له من خلالها مدى ما وصل إليه أبو بكر رضي الله تعالى عنه من الإيمان والمحبة والإيثار على النفس مع التضحية بها في سبيل إقامة الدعوة النبوية، فإنه قد بلغ مبلغا عظيما فائقا في محبة رسول الله ﷺ حيث يفضله على نفسه ويسارع إلى مواجهة المهالك للحيلولة بين النبي ﷺ وبينها، ويعامله معاملة تفوق معاملة الأم ولدها من الرفق والحنان والحماية، لا شك أنه من الإيمان والمحبة بمكان علي فائق قد بلغ غايتهما، وهو إمام الناس في محبة النبي ﷺ، وهم عيال عليه، والأحاديث الواردة في فضله ومناقبه ومنزلته عند النبي ﷺ كثيرة مشهورة موجودة في مظانها قبح الله وجه من سبه.

8- ما أكرم الله تعالى به النبي ﷺ، من المعجزة، وقد وقعت أشياء خارقة للعادة في هذه الهجرة المباركة من إعماء أبصار المشركين الذين جاءوا لقتله ﷺ، وإبراء أبي بكر

من وجع لدغ الحية أو العقرب، وإدرار اللبن من الشاة العازب المجهودة بمسح يده الطاهرة الزكية ضرعَها، وسَوخِ قوائم فرس سراقة في الأرض كلما توجه نحو النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه ليقبضهما، وكل من ذلك معجزة للنبي ﷺ أظهر الله بها شرفه ﷺ ومنزلته عنده، وأنه ﷺ في رعاية ربه تعالى لم يخذله.

9- جواز الاستعانة بالمشرك فيما يقدر عليه عند عدم وجود من يسد مسده من المسلمين في ذلك، وبشرط أن يكون موثوقا به مؤتمنا من شره، وذلك أن النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه استأجرا عبد الله بن أريقط ليدلهما على طريق المدينة وجعلاه قائدا لهما في ذلك مع كونه مشركا، فدل ذلك على الجواز بتوفر ما تقدم من الشروط.

10- قوة إيمان الأنصار ومحبتهم لرسول ﷺ وكرمهم له، لا شك أن ما فعلوه له ﷺ من استقبالهم له وإظهار فرحهم بقدومه بلدهم مع تنافسهم في إنزاله دليل على أن الإيمان قد تمكن في قلوبهم وترسخ، وبالله توفيق.

بناء المسجد الشريف

بعد أن استقر النبي ﷺ بالدولة الإسلامية العالمية الأولى، أخذ في تشديد دعائمها على قواعد متينة، وأسس راسخة، وأول خطوة قام بها من خطواته المستهدفة الميمونة بناء مسجده الشريف، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم إصدار الدستور الإسلامي لتنظيم العلاقات فيما بين المسلمين والكفرة من اليهود والمشركين الذين يقطنون المدينة، ثم إعداد الجيوش الإسلامية الذين يدافعون عن الإسلام ويسهمون في تمكين الدعوة النبوية، وغير ذلك من الخطوات المهمة التي لا تستغني أي دولة منها، وبالله التوفيق.

فبدأ النبي ﷺ بأهم الخطوة، وهي بناء المسجد الشريف الذي يكون قاعدة للدولة الإسلامية ومركزا لها حيث يُدَار فيه جميع الشئون الدينية والاجتماعية، وعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية، كما يكون جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم دينهم وتوجيهاته، ومنتدى يجتمعون فيه فتتآلف عناصرهم المختلفة، وتتكون المودة فيما بينهم فتطفأ نار الحقد والعداوة والبغضاء بينهم.

فشرع النبي ﷺ في تنفيذ هذا المشروع المبارك، وكان موقعه بمبرك ناقته ﷺ أول قدومه المدينة في محلة بني مالك بن النجار كما سلف، وكان الموضع مربدا لغلامين يتيمين من الأنصار كانا في كفالة أسعد بن زرارة رضي الله عنهم، فدعاهما النبي ﷺ وسام فيه، فقالا: نهبه لك يا رسول الله، فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة، بل، اشتراه منهما بعشرة دنانير.

وكان فيه قبور قديمة للمشركين، وشجر النخل والغرقد، فأمر النبي ﷺ الصحابة بنبش القبور، وقطع الشجر، فنبشوها، وقطعوا الشجر وصفوها في قبلة المسجد، وسووا ما كان فيه مِنَ الْخَرِبِ، ثم أخذوا في بنائه باللبن حتى بلغ موضع السقف فويق القامة، فسقفوه بجريد النخل، وجعلوا عمده من جذوعها، وفرشوا أرضه بالرمال والحصباء، وجعلوا عضادتي الباب من حجارة، وكانت أبوابه ثلاثة، أحدها من جهته الشرقية، وثانيها من جهته الغربية، وثالثها من جهته الجنوبية، وكان عمق أساسه ثلاثة أذرع تقريبا، وطوله من مقدمه إلى مؤخره مائة ذراع، وجانباه قريبا من ذلك، وكانت قبلته إلى بيت المقدس، وبُنِيَ بجانبه بيوتًا بالحجر واللبن، وسُقِفَتْ بالجريد والجذوع، اتخذها النبي ﷺ مسكنا له ولأزواجه أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، فانتقل إليها من بيت أبي أيوب.

وبِجَانب آخر اتخذه كثير من فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم دارا لهم، وهم الذين يسمى بأهل الصفة.

وقد شارك النبي ﷺ الصحابة في بناء هذا المسجد الشريف المبارك بيده الزكي الشريف، وكان ينقل اللبِن والحجارة ويقول عندما يرتجز الصحابة ليحفز هممهم ويزيدهم النشاط في العمل:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَة   فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةْ

مشروعية الأذان:

وبعد أن تم بناء المسجد الشريف تشاور النبي ﷺ مع أصحابه فيما يصنع لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة وتنبيه نائمهم والساهي، فطفق كل من الصحابة يُبْدِي ما يراه صالحا لذلك، ويعترض عليه غيره، حتى أشار البعض على النداء فاستقر الأمر على ذلك، ثم أُرِيَ عبد الله بن أبي محذورة كيفيته حيث جاءه ملك وهو بين النائم واليقظان، عَنْ أَبِي عُمَيْرِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ بَعْضِ عُمُومَةٍ لَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: « اهْتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ لِلصَّلَاةِ كَيْفَ يَجْمَعُ النَّاسَ لَهَا، فَقِيلَ لَهُ: انْصِبْ رَايَةً عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَاةِ فَإِذَا رَأَوْهَا آذَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ، قَالَ: فَذُكِرَ لَهُ الْقُنْعُ (يَعْنِي الشَّبُّورَ) وَقَالَ زِيَادٌ: شَبُّورَ الْيَهُودِ، فَلَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ، وَقَالَ: هُوَ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ، قَالَ: فَذُكِرَ لَهُ النَّاقُوسُ فَقَالَ: هُوَ مِنْ أَمْرِ النَّصَارَي، فَانْصَرَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ وَهُوَ مُهْتَمٌّ لِهَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأُرِيَ الْأَذَانَ فِي مَنَامِهِ، قَالَ: فَغَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَبَيْنَ نَائِمٍ وَيَقْظَانَ إِذْ أَتَانِي آتٍ فَأَرَانِي الْأَذَانَ، قَالَ: وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ رَآهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَكَتَمَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا، قَالَ: ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي؟، فَقَالَ سَبَقَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا بِلَالُ، قُمْ فَانْظُرْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ فَافْعَلْهُ، قَالَ: فَأَذَّنَ بِلَالٌ، قَالَ أَبُو بِشْرٍ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو عُمَيْرٍ أَنَّ الْأَنْصَارَ تَزْعُمُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زَيْدٍ لَوْلَا أَنَّهُ كَانَ يَوْمَئِذٍ مَرِيضًا لَجَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُؤَذِّنًا »[1] أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ.

1- أخرجه أبو داود برقم: (498) وإسناده جيد.

وكان من حكمة مشروعيته كما تقدم تَنْبِيهُ الْغَافِلِينَ مِنَ الْمُصَلِّينَ عَلَى دُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ، وَتَشْجِيعُهُمْ عَلَى التَّأَهُّبِ لَهَا، فَبَعْضُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ بِدُخُولِ الْوَقْتِ إِلَّا بِأَذَانِ الْمُؤَذِّنِ، فَيُسَاعِدُهُمْ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِ كُلِّ مَا يُشْغِلُهُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

وبعد تمام هذه الخطوة النبوية المباركة خطوة بناء المسجد النبوي الشريف الذي هو المركز الأول الرئيسي للدولة الإسلامية، قام النبي ﷺ بخطوة أخرى تكملة للسابقة، وهي ربط العلاقة بين المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة، وكان ذلك في دار أنس بن مالك، ويبلغ عددهم تسعين نفسا كما جزم به صاحب الهدي المحمدي ابن القيم، نصفهم من المهاجرين والآخر من الأنصار، فآخى بينهم النبي ﷺ على المواساة وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الموت دون ذوي رحم، فكان الأمر كذلك حتى أنزل الله تعالى قوله الطيب: « وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » الأنفال: (75) فرد التوارث إلى الرحم.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ » الأنفال: (75) قَالَ وَرَثَةً « وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » النساء: (33) كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرِيُّ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا

نَزَلَتْ: « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ » نُسِخَتْ ثُمَّ قَالَ: « وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » مِنَ النَّصْرِ وَالرِّفَادَةِ وَالنَّصِيحَةِ وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَيُوصِي لَهُ.[1]

وقد جاء الأنصار بأروع المثال الذي لم تتشرف البشرية على مثله عبر تاريخها الطويل في هذا الإخاء الميمون الذي ذهبت به فوارق النسب والجنس والبلد، واستأصلت به عصبيات الجاهلية ونزعاتها التي كثيرا ما تشعل نار الحروب، فتآلفت فيه العناصر القبلية المختلفة وتكونت المحبة والمودة، فإنهم كانوا يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم في جميع الأمور، حتى كان الأنصاري يطلق إحدى زوجتيه إذا كان له أكثر من زوجة واحدة ليتزوجها أخوه المهاجري الذي لا زوج له بعد تمام عدتها، ويقسم ماله نصفين نصف له ونصف لأخيه المهاجري كما عرض ذلك سعد بن الربيع الأنصاري لأخيه عبد الرحمن بن عوف المهاجري رضي الله عنهما، فأبى عبد الرحمن أن يقبل ذلك وبارك له في أهله وماله، وطلب منه أن يدله على السوق، ففعل فبارك الله له، وبالجملة كان الأنصار يفضلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم كما شهد لهم الله تعالى بذلك في محكم تنزيله: « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » الحشر: (9)

1- أخرجه البخاري في التفسير، باب: (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) النساء: (7) رقم الحديث: (4580)

ومن الذين آخى بينهم النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار: عبد الرحمن بن عوف المهاجري وأخوه سعد بن الربيع الأنصاري، وعمر بن الخطاب المهاجري وأخوه عتبان بن مالك الأنصاري، وأبو بكر الصديق المهاجري وأخوه خارجة بن زهير الأنصاري، وجعفر بن أبي طالب المهاجري وأخوه معاذ بن جبل الأنصاري، إلى آخرهم.

فوائد وعبر:

1- بيان أهمية بناء المسجد وأن الغرض من ذلك لا يقتصر على مجرد أداء الصلوات فيه، بل، هو المركز التربوي الديني يتلقى فيه تعاليم الإسلام وتوجيهاته القيمة، وكيفية بناء الأمة على أسس متينة من ترسيخ العقيدة في قلوب الناس، وتهذيب أخلاقهم حتى تكون في غاية الصفاء.

وهو أيضا القاعدة لإدارة الشؤون الدولية وعقد المجالس التنفيذية والاستشارية، ومن أهم منتديات المسلمين حيث يجتمعون فيه خمس مرات في كل يوم وليلة لأداء فرض الصلاة، لا شك أن ذلك مما يزيد علاقاتهم القوة ويؤلف عناصرهم القبلية المختلفة فيتكون من ذلك التحاب والتواد فيما بينهم ويذهب الحقد والشحناء عنهم، وقد كان الأمر كذلك، فإن النبي ﷺ قد وجد ضالته المنشودة التي هي من أهم الباعث إلى بناء مسجده الشريف، فقد أذهب الله الحقد والعداوة التي بين الأوس والخزرج التي مضت عليها مئات السنين تنشأ منها الحروب الدامية من أجل هذا المجمع المبارك، وعلاوة على ما سبق يكون المسجد منزلا للغريب والفقراء الذين لا مأوى لهم كما كان مسجده ﷺ الشريف منزلا للمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم.

2- تواضع النبي ﷺ حيث شارك أصحابه في بناء المسجد الشريف، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة وولاة الأمور بعده، فإنه من المندوب إليه أن يشارك الداعي أتباعه في الأعمال الخيرية العامة، وكذلك الرئيس، وهذا ليس بواجب كما ذكرنا، لكنه سنة من سنن المصطفى ﷺ، فإن من تتبع سيره ﷺ يجد أنه لا يترك الصحابة وحدهم يشتغلون بعمل من الأعمال العامة، بل، هو أول من يقوم بذلك قبلهم، وهذا هو معنى السيادة والرئاسة.

3- ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع والزهد والورع حتى في مسكنه، حيث اختار أن تكون بيوته من الطين وبعض الأحجار، وليس هي كبيوت الملوك والأكاسرة الفخامة، وهذا دليل واضح على صدق دعوته النبوية، وأنه لا يطلب من ورائها عرض من أعراض الدنيا، ولا يستهدف بها شيئا من ذلك.

4- استدل الحنفية بشراء النبي ﷺ المربد من الغلامين اليتيمين على صحة تصرف من لم يبلغ سن الرشد، لأنه لو لم يصح ذلك لما اشترى النبي ﷺ المربد منهما، وخالفهم جماهير العلماء بأن ذلك إنما كان بواسطة كافلهما أسعد بن زرارة رضي الله عنهم كما وقع في بعض الروايات، وهذا هو التحقيق.

5- إذا كان الداعي ممن وسع الله له في رزقه حيث يستغني بما رزق به من المال عما في أيدي الناس في إقامة دعوته، ينبغي أن يكون كذلك حيث يكف عن سؤالهم، ويستقل بنفسه وينفق من ماله في ذلك حتى في بناء المسجد الذي يكون مركز الدعوة، والنبي ﷺ هو قدوتنا في ذلك، فإنه لما وهبا له اليتيمان المربد ليبني المسجد أبى أن يقبل منهما واختار شراءه بثمنه، وإنما فعل ذلك ليقتدي به من بعده من الدعاة، فإن

ذلك أفضل للداعي وأشجع له عند إصدار كلمة الحق بصرف النظر عن الموقف والْمُلْقَى إليه.

6- حكمة النبي ﷺ البالغة وخبرته القيادية حيث يستعمل الخطوات التي تساعده على تدعيم دعائم دعوته النبوية وترسيخ قوائمها كي تتجسد لمجابهة الباطل دون أن يزعزعها شيء، لا شك أن فيما قام به ﷺ من الإخاء بين المهاجرين والأنصار جودة التخطيط ومهارة قيادية تجاه الدولة الإسلامية الجديدة، لأن كل دولة إنما تقوم على أساس وحدة الأمة وتعاضدها، فلا يمكن لها النهضة والغلبة على عدوها الخارجي إلا بذلك، وما هو سبب تعوق العالم الإسلام اليوم سوى عدم المذكور، وبالله التوفيق.

7- فضل الأنصار وقوة إيمانهم حيث آثروا الله ورسوله على أنفسهم، لا شك أن ما أظهروه للمهاجرين من المحبة والمودة والإيثار من الأدلة الواضحة على صدق إيمانهم بالله ورسوله ووثوقهم بهما، ولذا أثنى الله عليهم في مواضع كثيرة من كتابه العزيز كما تقدم ذكر بعضها من سورة الحشر.

8- إن الحب في الله تعالى من أقوى الدعائم في بناء المجتمع الإسلامي، ومن أعظم وسائل النصر والنجاح للأمة الإسلامية.

اليهود والمنافقون في المدينة

قد سلف لك أن اليهود من ضمن الذين يقطنون المدينة قبل مجيء النبي ﷺ، وهم ثلاث قبائل: بنو قريظة، وبنو قينقاع، والنضير، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يبتلى النبي ﷺ والمسلمين بهؤلاء اليهود كما ابتلاهم بمشركي مكة، فإنهم أظهروا عداوتهم وحسدهم له ﷺ من بعد ما جاءهم بالبينات، فآذوه بأنواع الإيذاء وسعوا ليل نهار في القضاء عليه، غير أن الفرق بينهم وبين مشركي مكة أن السلطة بيد النبي ﷺ في المدينة خلافا لمكة، وسيأتي الكلام عن مكائدهم ومكرهم بالنبي ﷺ والمسلمين ونتيجة ذلك لهم في مواضع ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد بين الله تعالى لنا أحوالهم الخبيثة في مواضع عديدة من الذكر الحكيم بما يشفي العليل ويروي الغليل، كسورة البقرة، وآل عمران، فلم يبق شيء من ذلك إلا بينه الله لنا، قال جل ثناؤه: « أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » البقرة: (75-76)

وقال تعالى: « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۞ وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۞ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » البقرة: (89-93)

وقال أيضا: « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » البقرة: (101)

وهذا غيض من الفيض من الآيات الواردة في بيان أحوال اليهود الخبيثة، ونكتفي بها خشية التطويل.

وبجانب آخر ظهرت فرقة أشد من اليهود والمشركين إيذاء للإسلام، وهم المنافقون الذين يظهرون الإسلام والحب للنبي ﷺ والمسلمين، ويبطنون الكفر والبغض لهم، وزعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج، فالعدو الخفي ذو الوجهين أضر وأخبث من الظاهر الخارجي، وسبب ظهور هذه الفرقة أن زعيمهم ابن سلول المذكور كان مرشحا لرياسة المدينة النبوية قبل مجيء النبي ﷺ، فلما طلع عليها نور الهدى والسعادة الحقيقية النبي ﷺ بهجرته إليها وجعلها دولة وعاصمة للإسلام ودعوته المحمدية، بعد أن بايعه الأنصار، تركه الناس وبطل الترشيح، فطفق هذا الرجل وجماعته يسعون ليل نهار لتثبيط الدعوة النبوية وإفنائها، ويحاولون كل المحاولة على الإفساد فيما بين المسلمين ومظاهرة هؤلاء اليهود على محاربة الإسلام، وقد وردت الآيات

الكثيرة في القرآن الكريم تنكشف حقيقة أحوال هؤلاء المنافقين في عدة مواضع، ومظان هذه الآيات سورة البقرة، والتوبة، والمنافقون، وغيرهن من السور القرآنية، وقد انكشف الله عنا ما في سريرتهم، وبين لنا صفاتهم وأحوالهم في قوله تعالى: « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۞ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۞ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۞ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۞ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » البقرة: (8-20)

وفي قوله تعالى: « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَفْقَهُونَ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۞ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » المنافقون: (1-8)

وكان النبي ﷺ يقبل ظواهرهم ويحكم على ذلك، ويفوض سريرتهم إلى الله تعالى حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى.

إصدار الوثيقة:

بعد تأسيس النبي ﷺ الأمة الجديدة بإقامة الوحدة العقدية والسياسية والنظامية فيما بين المسلمين، طفق في إصدار الدستور لنظم العلاقات بين المسلمين وغيرهم من اليهود المذكورين، وكتب في ذلك كتابا وادعهم فيه على ترك الحرب والأذى، وعاهدهم على ألا يظاهروا عليه أحدا من أعدئه، وإن فاجأه العدو بالمدينة ينصرونه، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وهذا أهم ما تضمنه الكتاب بالنسبة إلى اليهود، وأما بالنسبة إلى المسلمين فأهم ما فيه بالجملة النصرة والتعاضد فيما بينهم، وأنهم يد واحدة على من سواهم، وألا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

فوئد وعبر:

1- إن الدعوة الإلهية لا تكون بمعزل عن الأعداء الذين يسعون ليل نهار ويبذلون أقصى جهدهم في سبيل إحباطها، فإن الدعوة النبوية ما زالت تواجه كيد أعدائها منذ بزوغ فجرها حتى أدى ذلك إلى هجرة صاحبها ﷺ إلى المدينة، فلما هاجر إليها وجد فيها اليهود وأعوانهم المنافقين الذين كانوا من ألد خصومه وأكبر عائق لدعوته حيث آذوه غاية الإيذاء، فتبين من ذلك أن الدعوة إلى الله تعالى مظنة المحن والابتلاءات، وذلك سنة إلهية جارية منذ بداية التاريخ، فمن أراد أن يدعو إلى الله تعالى فليتزود بالصبر والحلم والثبات، غير أن العاقبة الحسنة للمتقين.

2- إن تنظيم العلاقات بين أبناء الدولة وتحديد مفهوم الأمة من الأهمية بمكان عظيم، لأن ذلك من أهم وسائل الأمن والسلام في المجتمع، ولذا جعله النبي ﷺ خطوة ثالثة من خطواته الربانية تجاه المجتمع الجديد، فهو قدوة حسنة في ذلك والمرجع إليه.

3- توفر صفات الرياسة والقيادة في النبي ﷺ، لا شك أنه ﷺ هو القائد الذي اتصف بجميع صفات القيادة من العدالة المطلقة والمواساة التامة بين بني الإنسان، وحسن التنظيم والتنفيذ، فهو أول من اعتنى بالحرية الكاملة وحقوق الإنسان حيث سوغ لكل أن يتمتع بذلك بصرف النظر عن الألوان، واللغات، والأديان، فهؤلا الغرب الذي يَدَّعُون الحرية فإنما ذلك مجرد الدعوى بدون أي تطبيق كما يتبين ذلك من تصرفاتهم الظالمة.

الدفاع عن النفس والمكافحة الدامية:

قد سلف لك ذكر الشدائد من التنكيلات والاضطهادات التي أدلى بها كفار مكة على النبي ﷺ وأصحابه قبل الهجرة، غير أنه لم يبارز واحدا منهم دفاعا عن النفس كما لم يحارب أحدا على الامتناع عن استجابة دعوته الطاهرة وتصديقه، بل تجسد في مواجهة اضطهاداتهم المذكورة بالصبر والحلم والثبات على ما هو عليه من دعوته المباركة، وذلك وفقا للخطط الربانية، وقد اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن تكون الدعوة على هذا النمط في العهد المكي، فلما مكن الله نبيه ﷺ في الأرض بإعطائه المنعة التي أسس بها دولته الإسلامية، أذن له بالدفاع عن النفس ومبارزة كل من يتعرض لدعوته لإحباطها، فقال تعالى: « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » الحج: (41-39)

وفي هذه الآيات الإذن بالقتال من غير إيجاب، والوعد بالنصر، وبيان ثمرة ذلك من السلامة والأمن، وأن الغاية المقصودة فيه إقامة شرائع الله تعالى التي لا تقوم إلا بذلك، ثم أوجب الله على المسلمين قتال كل من قاتلهم فقال: « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ

مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۞ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » البقرة: (190-193)

ولذا كان يقتصر على قتال قريش لكونهم هم الذين يقاتلونه حينئذ، فلما تعرض له غيرهم من مشركي العرب، فرض الله على المسلمين قتال جميع الكفار فقال: « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » التوبة: (36)

ولذا قال ﷺ: « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ »[1] أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وفي رواية لمسلم: « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ »[2] أَخْرَجَهُ مسلم.

فدل هذا على أن نفس المسلم مصونة من القتل، فلا يجوز قتل من قال: لا إله إلا الله، إلا بحق الإسلام، ولو أبطن الكفر في الباطن، لأن الأحكام تُجرى على ظاهرها، وما سوى ذلك فمرده إلى الله تعالى، وهو عليم بكل شيء لا يخفى عليه شيء من الموجودات.

1- أخرجه البخاري برقم: (392) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

2- أخرجه مسلم برقم: (133) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومما تقدم من هذه النصوص يتبين لنا أن قتال النبي ﷺ الكفارَ في أول الأمر إنما هو دفاع عن النفس حيث يقاتل كل من قاتله من المشركين أو ظاهر على ذلك، وكذلك من خانه من اليهود الذين وادعهم كما سيأتي الحديث عنهم في مواضعه إن شاء الله تعالى.

فوائد وعبر:

1- إن التدرج في الأمور سنة الله التي يربي نبيه ﷺ عليها ليقتدي به من بعده، وهي السنة التي اختارها الله تعالى نفسه في تصرفاته كخلقه السماوات والأرض في ستة أيام مع أنه قادر على خلقهن في أقل من لحظة واحدة، لا شك أن في ذلك حكم ربانية كثيرة، وقد تقدم ذكر بعضها.

2- إن قتال النبي ﷺ للأعداء إنما هو الدفاع عن النفس وحماية العقيدة، وليس هو بالاعتداء والطغيان على من لم ينح نحوه كما يزعمه أعداء الإسلام عليهم من الله ما يستحقون، فكل من تتبع سيرته ﷺ ورأى ما لاقاه هو وأصحابه من ويلات العذاب والاضطهاد يعلم أن ما يذكره هؤلاء الظلمة ما هو إلا أكاذيب مفتراة، وأساطير ساذجات.

3- إن من ثمرة هذا الجهاد قمع الفساد في الأرض من الوثنية التي تورث الخوف وعدم السلامة في المجتمع، وتركيز الحق الذي من نتائجه انتشار الأمن والسلامة في الأرض، فيعيش الناس فيها بسلام، وأعظم من ذلك السعادة السرمدية التي لا تزول.

السرايا والغزوات قبل بدر الكبرى

لا شك أن ما منحه الله تعالى لنبيه ﷺ من فتح الفتوح الذي هو تأسيس الدولة والأمة الجديدة مع إقامة الوحدة العقدية والقيادية والنظامية فيما بين أبنائها خطر عظيم متجسد تجاه كفار مكة يهدد كيانهم الوثني والاقتصادي، ومن المعلوم أنهم لا يألون جهدهم في اتخاذ مواقف عدائية لمعالجة ذلك، وقد كان الأمر كذلك، فإنهم أخذوا يشعلون نار الحرب بينهم وبين المسلمين ويأتون بأشياء اعتدائية كالمقدمة لها، ولذا قرر النبي ﷺ أمره على التعامل معهم حسب ما تقتضيه الحالة لتوطيد دولته الإسلامية وفاقا لما سبق من الإذن بقتال كل من قاتله، فبدأ ﷺ بإرسال السرايا.

والسرايا جمع سرية، وهي قطعة من الجيش من خمسة إلى ثلاثمائة، والمقصود بها هنا: أن يرسل النبي ﷺ جماعة من أصحابه ليعترضوا العدو بصرف النظر عن حدوث القتال وعدمه. والغزوة هي أن يخرج النبي ﷺ نفسه بعدد من المسلمين لقتال العدو، سواء وقع بينهما قتال أم لا.

وهاك ذكر بعض السرايا والغزوات التي كانت قبل بدر الكبرى بصورة الإجمال:

سرية حمزة بن عبد المطلب:

لما كانت مشروعية القتال في بداية الأمر من أجل كفار مكة الذين آذوا المسلمين غاية الإيذاء حتى أخرجوهم من ديارهم وجردوهم عن أموالهم، كان من الجدير أن يتتبع النبي ﷺ كل حركة لهم، ومن المعلوم أنه ليس لهم مورد اقتصادي إلا التجارة حيث يذهبون ببضائعهم إلى الشام ويستوردون بالأخرى، وكانت المدينة النبوية التي

اتخذها النبي ﷺ قاعدة لدعوته من إحدى البلدان التي يُجْتَاز بها قبل الوصول إلى الشام من مكة، ولذا اتخذ النبي ﷺ عيونا يتجسسون له عن قوافل قريش، وفي رمضان من السنة الأولى للهجرة، بعث عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ومعه ثلاثون رجلا من المهاجرين ليعترضوا عيرا لقريش عندما ترجع من الشام، وكانت ثلاثمائة راكب فيهم أبو جهل، فعقد ﷺ لعمه حمزة لواء أبيض وحمله أبو مرثد الغنوي، وسار حمزة رضي الله عنه حتى بلغ ساحل البحر من ناحية العيص، فلقي العير هناك وتصافوا للقتال، فحجز بينهما مجدي بن عمرو الجهني وكان حليفا لكل من الفريقين، فانصرف كل منهما بدون قتال.

سرية سعد بن أبي وقاص:

في ذي العقدة نفس السنة، بعث النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلا لاعتراض عير قريش، وعقد له لواء أبيض يحمله المقداد بن عمرو، فخرجوا مشاة حتى بلغوا الخرار من الحجاز، فوجدوا العير قد مرت بالأمس، ثم رجعوا إلى المدينة.

سرية رابغ:

في شوال نفس السنة أيضا أرسل النبي عبيدة بن الحارث في ستين رجلا من المهاجرين لاعتراض قافلة مشركي مكة التي يقودها أبو سفيان، ويزيد عددها على مئتي راكب، فسار حتى لقيهم بوادي رابغ، فترامى الفريقان بالنبل، وأول من رمى من المسلمين هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو أول من رمى بالسهم في الإسلام.

غزة الأبواء:

في السنة الثانية من الهجرة خرج رسول الله ﷺ بنفسه في سبعين رجلا من المهاجرين خاصة ليعترض عيرا لقريش، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة رضى الله عنه، فسار حتى بلغ ودان، غير أنه لم يحدث بينهما قتال، وهي أول غزوة غزاها النبي ﷺ، وتسمى غزوة ودان، وكان عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه هو حامل اللواء.

غزوة بواط:

في شهر ربيع الأول نفس السنة أيضا، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، بعد أن استخلف فيها على المدينة سعد بن معاذ ليعترض عيرا لقريش، وكان فيها أمية بن خلف الجمحي، وألفان وخمسمائة بعير، فواصل السير حتى بلغ بواطا من ناحية رضوى ولم يحدث قتال، وكان سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه هو حامل اللواء.

غزوة ذي العُشَيْرَة:

في جمادى الأولى، نفس السنة أيضا خرج ﷺ في عدد كثير من المهاجرين زهاء مائتين، ومعهم ثلاثون بعيرا يعتقبونها، وذلك ليعترضوا عيرا لقريش، قاصدة الشام، وقد بلغه الخبر من مكة أن قريشا جمعوا فيها أموالهم كلها، وكانت تحت قيادة أبي سفيان بن حرب، واستعمل ﷺ على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، فواصل النبي ﷺ السير

حتى بلغ ذا العُشَيْرَة، فوجد العير قد فاتته بأيام، ثم رجع النبي ﷺ المدينة يترقب رجوع هذا العير من الشام.

غزوة بدر الأولى:

في شهر ربيع الأول نفس السنة الثانية خرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلا من أصحابه لطلب رجل من المشركين يسمى كرز بن جابر الفهري، وذلك أنه أغار على سرح المدينة، ونهب بعض المواشي فهرب، واستخلف ﷺ على المدينة زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان الذي يحمل اللواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسار ﷺ حتى بلغ وادي سفوان من ناحية بدر، غير أنه لم يدرك كرزا وأصحابه، فرجع إلى المدينة.

فوائد وعبر:

ومما يستفاد من هذه الدروس بصورة الإجمال بيان خبرة النبي ﷺ القيادية ومهارته الجهادية، فإن من أهم أهداف هذه السرايا تدريب الصحابة وترويضهم على مواجهة ما سيستقبلهم من القتال الشديد، فيكسبوا من ذلك المرونة على مبارزة أي عدو ومقاومته، ومن ذلك أيضا أن جميع هذه السرايا والغزوات التي سبقت بدرا إنما كانت لاستعادة بعض حقوق المهاجرين المسلوبة من كفار مكة، وإضعاف شوكتهم مع إنهاك اقتصادهم، وإرهاب أعداء الدعوة النبوية الداخليين، ولذا كان معظم أفراد هذه السرايا أو كلهم مهاجرين كما مر بنا، وما فعله النبي ﷺ من اعتراض عير قريش لا يُجْعَل من عداد الاعتداء كما يزعمه أعداء الدين الظلمة، بل هو من باب رد المظالم إلى

أصحابها وتنبيه الظالم على أن المظلوم قد بلغ أشده وقوي كي يكون منه على حذر فيكف عن ظلمه، ويؤخذ من ذلك جواز سعي المظلوم في استعادة مظلمته من ظالمه بأخذ ما معه قهرا إن قدر على ذلك، وذلك إذا لم يكن هناك حكومة يرفعه إليها أو يرجى عدلها، وألا يأخذ ما زاد على حقه، وبالله التوفيق.

التشريعات

بعد إرهاب النبي ﷺ أعداء دعوته الخارجيين والداخليين وإظهار قوة دولته الإسلامية وشوكتها اشتغل بتعليم أصحابه أحكام الدين وتهذيب أخلاقهم وتوجيههم إلى القيم الإسلامية السنية، وفي أثناء ذلك أخذ الوحي ينزل إلى النبي ﷺ في تشريع بعض العبادات وأحكامها.

تشريع صيام رمضان:

في شعبان السنة الثانية للهجرة كتب الله صيام رمضان على المسلمين كما كتبه على الأمم الغابرة، وذلك في قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » البقرة: (183) وكان ذلك يوم الاثنين.

وصيام رمضان هو من عداد أركان الإسلام الخمسة التي لا يتحقق الإسلام بدون واحد منها، ولتشريعه حِكَم كثيرة من الناحية الدينية والدنوية، ومن الدينية ترويض النفس على مراقبة الله جل ثناؤه والرضى بأقداره المؤلمة مع التصبر عليها وعدم التسخط بها، وما في معنى ذلك، وأما الدنوية فمنها تقوية البدن بتطهير الأمعاء والمعدة، والتخفف من وطأة السمن وثقل البطن، وعلاوة على ما سبق يُكَوِّن في المؤمنين عاطفة الرحمة وحب الخير والمساواة فيما بينهم حتى تلين نفوس أغنيائهم فيسهل عليهم بذل الصدقات لفقرائهم المحتاجين، وبالله التوفيق.

تشريع صدقة الفطر:

في رمضان نفس السنة شرع الله تعالى زكاة الفطر لتكون طهرة للصائم مما حدث له حال صومه من الإفراط والتفريط، وسدا لحوائج الفقراء الذين لا يجدون كفايتهم، فيكفوا عن تكفف الناس يوم العيد، وخَرَّجَ أبو داود عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: « فَرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ »[1]

تشريع صلاة العيد:

في نفس السنة أيضا شرع صلاة العيد، فخرج النبي ﷺ بالناس إلى المصلى خارج البلد، وصلاها هناك ركعتين بدون أذان ولا إقامة، وذلك شكرا لله تعالى على ما أسبغ عليهم من نعمه وأياديه، وإظهارا للفرح والسرور.

تشريع الزكاة:

في نفس السنة أيضا أي السنة الثانية فرض الله تبارك وتعالى الزكاة على كل مسلم ملك النصاب وحال عليه الحول، وهي من أركان الإسلام الخمس كالصيام السابق، ويشهد على ذلك قوله ﷺ: « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ »[2]

1- أخرجه أبو داود برقم: (1609) وابن ماجه برقم: (1827)

2- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام: (22)

ومن حِكَم تشريعها مواساة الفقراء والمساكين بسد حوائجهم الضرورية، ولكي لا يكون ما يسبغه الله على عباده من الأموال دولة بين طائفة محدودة، ومن ذلك تطهير النفوس من آثار البخل والشح، والشره والطمع، وتطهير المال وبركته، قال تعالى: « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » التوبة: (103)

تحويل القبلة:

قد سبق لك أن قبلة مسجد النبي ﷺ كانت نحو بيت المقدس قبلة اليهود، أي الغرب، وكان ﷺ يريد أن تكون قبلته الكعبة، فبينما هو يصلي إذ أوحى الله تعالى عليه بقوله: « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » البقرة: (144)

فتحول إلى الكعبة بعد أن مكث ستة عشر شهرا يستقبل بيت المقدس، وقد كان ذلك سببا لارتداد بعض ضعفاء القلوب على أعقابهم.

غزوة بدر الكبرى

تقدم لك في غزوة العشيرة أن قريشا خرجت بعير عظيمة متوجهة إلى الشام للتجارة، وجمعت فيها جميع ما عندها من أنواع المال، وكان يقودها أبو سفيان، وأن النبي ﷺ لما سمع بها خرج إليها لاعتراضها، غير أنها أفلتت منه ﷺ، وأنه رجع إلى المدينة يترقب رجوعها، فلما سمع برجوعها ندب ﷺ الأصحاب للخروج بقوله: « هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللهَ يُنْفِلُكُمُوهَا »

ولم يعزم النبي ﷺ على أحد منهم بالخروج، ولذا أسرع بعضهم للإجابة وتثاقل البعض، إذ لا يتصورون قتالا في ذلك.

فخرج الرسول ﷺ لثلاث ليال مضت من شهر الله المبارك شهر رمضان ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا أكثرهم من الأنصار، وكان معهم سبعون إبلا وفرسان يعتقبونها، واستخلف النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وأعطى مصعب بن عمير العبدري لواء القيادة العامة.

وقد كان أبو سفيان يقظا بجميع تحركات المسلمين يبالغ في التجسس عن ذلك لعلمه بخططهم فيهم، فلما بلغه عزم النبي ﷺ هو وأصحابه على الخروج إليهم ليوقعوا بالعير، بادر إلى تحويل المسار وسلك بالعير طريق الساحل إلى مكة كي ينجي عيره، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة ليخبر قريشا الخبر ويستنفرهم للخروج كي يمنعوه هو وأموالهم، فلما بلغهم الخبر تجهزوا على عجالتهم وخرج جميع صناديدهم تحت قيادة أبي جهل بن هشام، وكان عددهم زهاء ألف رجل، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير وستمائة درع، وكانوا ينحرون كل يوم تسعا أو عشرا من الإبل.

فلما رأى أبو سفيان أنه استخلص قافلته من قبضة المسلمين حيث عدل بها عن الطريق الرئيسي إلى ساحل البحر، أرسل إلى قريش أن يراجعوا مكة، غير أن أبا جهل قائد الجيش أصر على المضي وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجَزُور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

فواصل جيش قريش سيره حتى نزل بالعدوة القصوى من وادي بدر، وأما النبي ﷺ فلم يصل إليه شيء من فعل المشركين هذا حتى بلغ الروحاء فجاءه الخبر الذي يدل على أنه لا بد من اللقاء الدامي، فعقد مجلسا استشاريا جمع فيه أكابر الجيش، واستشارهم في ذلك، فمال بعضهم إلى عدم الارتياح لأمر القتال إذ أنهم لم يستعدوا له كما أنهم لم يتوقعوا ذلك، بل إنما خرجوا ليوقعوا بقافلة المشركين، وفي ذلك يقول الله تعالى: « كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۞ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » الأنفال: (5-8)

وكان معظم الذين يريدون إقناع النبي ﷺ بترك المواجهة للعدو من الأنصار، وهم ثلثا الجيش، وهذا لا يدل على مخالفتهم ما بايعوه ﷺ عليه من المنع والنصرة في العقبة، إذ أنه لم يكن في بيعتهم إياه بالعقبة الماضية ما يدل على إلزامهم بالقتال خارج بلدهم، وأما قادة الجيش فإنهم شجعوا النبي ﷺ على الكفاح الدامي حتى قال المقداد بن

الأسود: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: « فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ » المائدة: (24)
وفي الصحيح عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: « شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهْوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: "اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا" وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ »[1] يَعْنِي قَوْلَهُ.

ثم وجه النبي ﷺ خطابه للأنصار فقال: « أشيروا علي أيها الناس » فقال سعد بن معاذ سيد الأوس: فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُر في الحرب، صُدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تَقَرَّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال : « سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدَ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ »[2]

ثم واصل جيش المسلمين سيره تحت قيادة النبي ﷺ حتى نزل قريبا من بدر، وقام ﷺ مع صديقه أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالاستكشاف، وبينما هما يتجولان حول

1- أخرجه البخاري في مناقب الأنصار: (3952)
2- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 615)

مُعَسكر جيش مكة إذ لقيا شيخا من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال لهما الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: « إذا أخبرتنا أخبرناك » قال: أو ذاك بذاك؟ قال: « نعم »

قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المدينة ـ وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش مكة.

ثم قال لهما: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: « نحن من ماء » ثم انصرف عنه، وبقى الشيخ يتحدث في نفسه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟

ثم بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من الصحابة إلى ماء بدر ليكتشفوا له الأخبار عن أحوال جيش المشركين، فوجدوا غلامين من قريش يستقيان للجيش، فأخذوهما وأتوا بهما إلى النبي ﷺ وهو قائم يصلي، فسألهما القوم عن أحوال المشركين فقالا: نحن سقاة لقريش أرسلونا نسقيهم الماء، فضربوهما ظنا منهم أنهما غلامي أبي سفيان، حتى اضطرهما الضرب إلى أن قالا نحن لأبي سفيان، فتركوهما، فلما أتم النبي ﷺ صلاته قال لهم: إذا « إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا وَاللهِ، إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ »[1]

1- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 617)

ثم خاطب الغلامين قائلًا: « أخبرني عن قريش » قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: « كم القوم؟ » قالا: كثير، قال: « ما عدتهم؟ » قالا: لا ندرى، قال: « كم ينحرون كل يوم؟ » قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: « القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف » ثم قال لهما: « فمن فيهم من أشراف قريش؟ » قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البَخْتَري بن هشام، وحكيم بن حِزام، ونَوْفَل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطُعَيْمَة بن عدى، والنضر بن الحارث، وَزمْعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف في رجال سمياهم. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها »[1]

وبعد أن حصل النبي ﷺ على معلومات جمة عن قوات جيش المشركين انتقل بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويَحُول بينهم وبين الماء.

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي خلف العَقَنْقَلِ[2] وبطن الوادي وهو يَلْيَلُ[3] بَين بدر وبين العَقَنْقَلِ الكثيب الذي خلفه قريش والقلب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يَلْيَل إلى المدينة، وبعث الله السماء وكان الوادي دهسا،[4] فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض

1- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 617)

2- العقنقل: بفتح العين والقاف وسكون النون وفتح القاف، وهو الكثيب العظيم المتداخل الرمل

3- يليل: بفتح الياء الأولى وسكون اللام وفتح الثانية، وهو اسم وادي.

4- أي السهل اللين الذي دون الرمل.

ولم يمنعهم عن السير وأصاب قريشا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به

فقال الحباب بن المنذر ابن الجموح: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزِله ثم نُغَوِّرُ ما وراءه من القُلُبِ[1] ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم نشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبني حوضا على القَلِيب الذي نزل فملىء ماء ثم قذفوا فيه الآنية.[2]

ثم طلب سعد بن معاذ رئيس الأوس رضي الله عنه من النبي ﷺ أن يبني له عريشا كي يكون بمأمن فيه، قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونُعِدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم

1- القلب: بضم القاف واللام جمع القليب بفتح القاف وكسر اللام، وهو البئر.

2- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 620)

يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير ثم بني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه. [1]

وقد أرى الله نبيه ﷺ في منامه عدد المشركين حيث رآهم قليلا كما قلل عدد المسلمين في أعين المشركين، قال تعالى: « إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » الأنفال: (43-44)

وكان ذلك قبل الشروع في القتال، وبعده كثر الله عدد المسلمين في أعين المشركين كما قال تعالى: « قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ » البقرة: (13)

فالحكمة في تقليل المشركين في أعين المسلمين قبل القتال تقوية قلوبهم على مواجهة أعدائهم بدون أي خوف، والحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين كي يغتروا بكثرتهم وقلة المسلمين فيثبط ذلك همتهم حتى يفشلوا، وكذلك الأمر في تكثير المسلمين في أعينهم بعد القتال، فإن ذلك يثبط نشاطهم ويخضد شوكتهم.

قال ابن هشام: ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر

1- انظر سيرة ابن هشام: (1/ 621)

ويقول فيما يقول: « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدْ » وأبو بكر يقول: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك، وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه، فقال: « أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النَّقْع[1] »

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم، وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ،[2] أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.[3]

فلما رأى رسول الله ﷺ جيش المشركين تصوب من العَقَنْقَلِ وهو الكثيب الذي جاءوا منه إلى الوادي، قال: « اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولِكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ أَحِنْهُمُ[4] الْغَدَاةَ »

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها ثم قال: شاهت الوجوه،[5] ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال: شدوا، فكانت الهزيمة،

1- النقع: بفتح النون أي الغبار.

2- بخ بخ: كلمة تقال عند الإعجاب.

3- انظر السيرة النبوية لابن هشام: (1/ 627)

4- أحنهم: من الإحن، وهو في الأصل الحقد والعداوة، والمراد هنا: أي أهلكهم.

5- شاهت الوجوه: أي قَبُحَتْ.

فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم، فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله ﷺ متوشح السيف في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ﷺ في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ يخافون عليه كرة العدو، ورأى رسول الله ﷺ فيما ذكر لي في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له رسول الله ﷺ: والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم، قال: أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال.[1]

وفي هذه الغزوة فرق الله بين الحق والباطل وأعز الإسلام والمسلمين حيث هزم جيوش المشركين وصرع صناديدهم الذين بذلوا قُصارى جهدهم في إيذاء النبي ﷺ وتعذيب المسلمين بمكة، ومن أشدهم أبو جهل بن هشام زعيم جيش المشركين، فإن مصرعه كان بهذه المعركة، وكان قتلى المسلمين أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين والباقي من الأنصار، وأما المشركون فقد قتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون معظمهم الزعماء والقادة والصناديد، وأمر النبي ﷺ بالقتلى فطرحوا في قليب بدر.

أسرى بدر:

واستشار النبي ﷺ الصحابة في أمر الأسرى ماذا يصنع بهم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعَشِيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم

3- انظر السيرة النبوية لابن هشام: (1/ 628)

الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضدًا.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كذبوك، وقاتلوك، وأخرجوك، فأنا أرى أن تمكنني من فلان . قريب له . فأضرب عنقه، وتمكن عليًا من عَقِيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فمال رسول الله ﷺ إلى ما قال أبو بكر، وأخذ منهم الفداء: وكان مقدار الفداء أربعة آلاف درهم أو ثلاثة آلاف درهم أو ألف درهم حسب حال كل من الأسرى، وكان فيهم من ليس عنده ما يفدي به نفسه، فمن كان كذلك دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة ليعلمهم القراءة والكتابة، فإذا حذقوا فهو فداء، وذلك أن أهل مكة يكتبون، خلافا لأهل المدينة فإنهم لا يكتبون.

وهناك مَنْ مَنَّ النبي ﷺ عليهم من الأسارى حيث أطلقهم بغير فداء، منهم: المطلب ابن حَنْطَب، وصَيْفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الجُمَحِى.

فلما كان من الغد غدا عمر إلى النبي ﷺ فوجده هو وأبا بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: « أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ

أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، فَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ »[1]

ثم أنزل الله تعالى: « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » الأنفال: (67 – 68)

والمراد بالكتاب الذي سبق من الله: قوله تعالى: « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » محمد: (4) ومقتضى ذلك الإذن بأخذ الفدية من الأسارى؛ ولذلك لم يعذبوا، وإنما عاتبهم الله على ذلك لأنهم أسروا قبل أن يثخنوا في الأرض.

فوائد وعبر:

ولغزوة بدر فوائد عظيمة وعبر غزيرة من الناحية العقدية والقيادية والتنفيذية وغير ذلك، ونُجْمِلُها لك هنا:

1- إن الله تبارك وتعالى دائما يختار لعباده الصالحين ما هو خير وأفضل مما قصدوه بتحويل المقصود إلى غيره، وذلك أن النبي ﷺ وأصحابه إنما قصدوا بخروجهم الإيقاع بقافلة المشركين ليستعينوا بما فيها من المال ولعل ذلك يخفف لهم ما سبق من اعتداء المشركين عليهم من أخذ أموالهم وأهاليهم وإخراجهم من ديارهم، لا لأجل القتال، فاقتضت حكمة الله جل ثناؤه أن يقع اللقاء الدامي بين الفريقين الذي أعز الله به الإسلام والمسلمين وجعلهم مرهوبين منهم في قلوب العرب، والخطر العظيم في قلوب

1- أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (1763)

العجم، وأسبغ عليهم ثروة طائلة ما لم يكونوا يتوقعونه، وبجانب آخر كرم بعضهم بالاستشهاد، وهذا من فضل الله تعالى على عباده الصالحين وعنايته بهم الفائقة.

2- خبرة النبي ﷺ النضيجة القيادية والتنفيذية، لا شك أن من تأمل قصة غزوة بدر هذه يجد أن خطواته ﷺ في هذه الغزوة فعالة في غاية الجودة والإحكام، وأنه ﷺ أروع المثال في ذلك.

3- قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم وشدة ثقتهم بالله تعالى ورسوله ﷺ حيث اختاروا التضحية بالنفس في سبيل إعلاء كلمة الإخلاص وتدعيم الدعوة النبوية، لا شك أن الصحابة قد جاءوا بأروع الأمثلة من ذلك في هذه الغزوة المباركة الفارقة بين الحق والباطل.

4- جواز التورية، وهي في البديع أن يأتي المرء بلفظ يحتمل معنيين أحدهما قريب يقتضيه ظاهر الكلام، والآخر بعيد وهو المقصود، ويؤخذ ذلك أي جواز التورية من قول النبي ﷺ لما سأله الشيخ الذي التقى به هو وصديقه حيث قال لهما: مما أنتما، فقال له رسول الله ﷺ: « نحن من ماء » ثم انصرف عنه، وبقى الشيخ يتحدث في نفسه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ فالمقصود بالماء ماء المني الذي هو أصل كل إنسان حاشا الأبوين.

5- إن التوكل على الله تعالى وتفويض الأمور كلها إليه أمر مطلوب من الشارع الحكيم، فإن التوكل على الله تعالى هو من أعظم العوامل التي ساعدت المسلمين في هذه الغزوة حتى انتصروا على أعدائهم، وذلك أن من يتوكل على الله تعالى يكفيه الله

ولا يخيب أبدا، والأدلة الشرعية متظاهرة على أمر المؤمنين بالتوكل على الله تعالى وتفويض أمورهم إليه.

6- إن الأخذ بالأسباب من لوازم التوكل على الله تعالى، ولا يتحقق التوكل إلا بذلك، ومن المعلوم أن الله قادر على إهلاك هؤلاء المشركين بوسائل متعددة بدون الاحتياج المسلمين إلى اللقاء الدامي، غير أن سنته التي أراد أن تجري في عباده تأبى ذلك، فلا بد من الأخذ بالأسباب لما في ذلك من الحكم العظيمة.

7- إن التضرع لله تعالى والخضوع له من الأمور التي حض الشارع الحكيم على مطلوبيتها سيما وقت الشدة والبؤس، فإن ذلك من أكبر وسائل الفرج والنصر، ولذا بالغ النبي ﷺ في التضرع والخضوع له سبحانه وتعالى في دعائه كي ينصره الله تعالى على أعدائه الذين هم أكثر منهم عددا وعُدَّةً، فنصره الله تعالى عليهم وأعزه هو ومن معه من المسلمين، وهذا من نتائج التضرع له جل ثناؤه.

8- ما أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ من معجزات عظيمة في هذه الغزوة المباركة، ومن أعظمها تأييده بنزول الملائكة من السماء يقاتلون مع المسلمين ويساعدونهم على أعدائهم، وما هذا إلا إكرام وتشجيع للمسلمين ودلالة على أن الله تعالى معهم بنصره وتأييده، وإلا فإن واحدا من الملائكة يستطيع تدمير الدنيا وما فيها بصيحة واحدة لو أمر بذلك.

ثم إنه ليس للملائكة أي تأثير ذاتي من حيث النصر، إذ أن النصر بيد الله تعالى، وإنما أنزلهم الله تعالى لمجرد تثبيت قلوب المسلمين كما تقدم، ومصداق ذالك قوله تعالى: « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ

لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ » آل عمران: (123-127)

9- مشروعية مشاورة الرئيس رعيته في الأمور العامة، نجد النبي ﷺ لا يستبد برأيه في أمر هذه الغزوة، بل يستشير الصحابة في ذلك ويعطي كلا حقه ويعمل بما جاء به من خبرته إن رأى في ذلك مخلصا، وهذا من هديه ﷺ في جميع أموره التي كان للشورى دخل، وهكذا ينبغي أن يكون كل من يرأس جماعة، فإنه لا يخيب من استشار، وقد جعل الله تعالى الشورى من صفات المؤمنين ومدحهم على ذلك في قوله: « وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » الشورى: (38)

10- يستفاد من قضية الأسرى أنه لا يجوز للإمام أن يأخذ منهم الفدية ويخلي سبيلهم حتى يخضد المسلمون شوكتهم بالمبالغة في قتلهم وإذلالهم كما قال تعالى: « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » الشورى: (38)

وقال أيضا: « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » محمد: (4)

أي إذا أكثرتم قتلهم وغلبتموهم حيث تمكنتم في الأرض وخضعوا لكم صاغرين فخذوهم وأوثقوهم وافعلوا ما بدا لكم فيهم، وذلك أن إطلاقهم قبل إضعاف قوتهم خطر عظيم بالنسبة إليكم، إذ أنهم يعيدون التأهب مرة أخرى للقضاء عليكم بخلاف ما إذا كسرتم شوكتهم، فإنهم لا يستطيعون مواجهتكم بعد ذلك، وبالله التوفيق.

غزوة ماء الْكُدْرِ

بلغ النبي ﷺ أن بني سليم وبني غطفان تجمعوا لغزوته، وذلك في شوال بعد عودته من بدر بسبع ليال، ففاجأهم النبي ﷺ بهجوم سريع في مائتي راكب من أصحابه، وبلغ إلى منازلهم التي كانت بموضع يسمى: الكُدْر، فلما أحسوا به هربوا، وتركوا إبلهم، وقد بلغت خمسمائة بعير، فقسمها النبي ﷺ بين الجيش بعد إخراج الخمس، وأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلاما يقال له: يسار، فأعتقه، وأقام ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة.

غزوة السَّوِيقِ[1]

كان مِنْ قَتلَى المشركين يوم الأحد ابن لأبي سفيان وبعض أقربائه، ولذا حلف على أنه لا يمس رأسه الماء حتى يغزو النبي ﷺ، فخرج بمائتي راكب من أصحابه إبرارا لقسمه، وذلك في شهر ذي الحجة، فسلك النَّجدِيَّة حتى نزل بقرب جبل يقال له ثَيْب من المدينة على بريد تقريبا، ثم خرج من الليل وأتى بني النضير فتوجه إلى سيدهم حُيَيِّ بن أَخْطَبَ فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له بابه وخافه فانصرف عنه إلى سَلَّامِ بن مِشْكَمٍ وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له، فَقَرَاه وسقاه، وبطن له من خبر الناس، ثم خرج في عقب ليلته حتى

3- السويق: بفتح السين، وهو طعام متخذ من دقيق الحنطة أو الشعير.

أتى أصحابه فبعث رجلا من قريش إلى المدينة، فأتوا ناحية منها يقال لها: العريض فحرقوا بعض نخل وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له، ثم انصرفوا وهربوا.

ولما بلغ النبي ﷺ ذلك خرج طالبا لهم، واستخلف على المدينة بشير بن عبد المنذر، حتى بلغ قَرْقَرَةَ الْكُدْرِ ولم يلحقهم، إذ أنهم بالغوا في الهرب حتى طرحوا معظم زادهم كي يتخففوا من أثقالها، وفيما طرحوه السويق، فطفق المسلمون يأخذون ما طرحوه من زادهم حتى رجعوا بسويق كثير، وهذا هو سبب تسمية هذه الغزوة بغزوة السويق.

غزوة بني قَيْنُقَاعَ

سبق لك أن في المدينة ثلاث قبائل من اليهود، وهم بنو قُرَيْظَ، وقَيْنُقَاعَ، والنَّضِيرِ، وأن النبي ﷺ أصدر الوثيقة وادعهم فيها على ترك الحرب والأذى، وعاهدهم على ألا يظاهروا عليه أحدا من أعدائه، وإن فاجأه العدو بالمدينة ينصرونه، وأقرهم على دينهم وأموالهم، ولم يخالف النبي ﷺ شيئا من هذه العهود، غير أنهم لم يوفوا بشيء من ذلك وفقا لطبائعهم المملوءة بالغدر والخيانة كما حفظ ذلك التاريخ، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع بعد أن رأوا ما أعز الله به الإسلام والمسلمين من النصر العظيم والفتح الكبير، وتكسير شوكة أعدائهم مع إلقاء هيبة المسلمين في قلوبهم، فنكثوا العهود والمواثيق المذكورة، وأظهروا ما أضمروه للمسلمين من الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، وسبب هذه الغزوة ما رواه ابن هشام عن عبد الله ابن جعفر بن الْمِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ عن أبي عون قال: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها

على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاصترخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

ولما بلغ النبي ﷺ ذلك سار إليهم بجيشه من المهاجرين والأنصار في نصف من شوال من السنة الثانية، فتحصنوا بحصونهم، ولم يزل يحاصرهم حتى خمس عشرة ليلة، فاستكانوا له لعدم قدرتهم على مقاومته، وطلبوا منه ﷺ أن يخلي سبيلهم فيغادروا المدينة على أن لهم نساءهم وذراريهم وللمسلمين الأموال، فقبل النبي ﷺ ذلك وأمر بإجلائهم، ثم خمس أموالهم، وأعطى كلا نصيبه.

وفيهم أنزل الله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۞ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ » آل عمران: (13-12)

وذلك أن النبي ﷺ جمعهم ووعظهم وقال: « يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا » فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين يبين لهم أنهم سيغلبون من غير بعيد كما غلب مشركي مكة، إذ أن النصر بيد الله تعالى، وهو خاص بعباده الصالحين.

وقد حاول ابن سلول رأس المنافقين على تثبيط النبي ﷺ فيما هم به حول هؤلاء اليهود، وبذل أقصى جهده في مساعدتهم بإبطال ما أبرمه ﷺ.

غزوة ذي أَمْرٍ

وصلت الأخبار من الاستخبارات إلى النبي ﷺ أن قوما من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمر بزعامة دعثور بن الحارث المحاربي يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فسار إليهم النبي ﷺ في أربعمائة وخمسين رجلا بين راكب وراجل، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان، وفي طريقهم لقيوا برجل من بني ثعلبة يقال له جبار، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم، وصار دليلا لهم إلى أرض العدو.

ولما سمع العدو بمسير النبي ﷺ هربوا إلى رءوس الجبال، وأقام ﷺ بمكان تجمعهم صفرا كله ليلقي الرعب في قلوب العرب فيكونوا منه على حذر.

وقد أسلم دعثور بن الحارث بعد أن ظهرت له معجزة على يد النبي ﷺ، وذلك أن المطر أصاب المسلمين حتى ابتلت ثيابهم، فنزع النبي ﷺ ثيابه لتجف، وهو تحت الشجرة يرتاح والمسلمون متفرقون، فأبصره دعثور فتسلل إليه شاهرا سيفه حتى وقف على رأسه، وقال: يا محمد، من يمنعك مني اليوم؟ فقال ﷺ: الله، فألق الله الرعب وهيبة النبي ﷺ في قلبه حتى سقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال له: من يمنعك مني؟ فقال: لا أحد، فتركه النبي ﷺ ثم أسلم دعثور ودعا قومه للإسلام، فصارت عداوته للنبي ﷺ محبة له وتعظيما.

غزوة بَحْرَان

في جمادى الأولى من السنة الثالثة للهجرة خرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة من المسلمين إلى أرض تسمى بحران لقتال بني سليم، فوجدهم قد هربوا، فانصرف.

سرية زيد بن حارثة

سبق لك أن المدينة كانت بطريق الشام، وأن قوافل قريش التجارية تمر بها ذهابا وعودة، ومن المعلوم أن معركة بدر السابقة تكون سببا للحيلولة بينهم وبين الممر بها، ولذا عقدوا مجلسا استشاريا يتشاورون فيما بينهم أي طريق يسلكون للوصول إلى الشام؟ فاستقر الأمر على اختيار طريق العراق، وخرجت عيرهم آخذة الطريق المذكور بقيادة صفوان بن أمية، فبلغ الخبر النبي ﷺ، فأرسل زيد بن حارثة في مائة راكب للإيقاع بها، وذلك في جمادى الآخرة، فواصلوا سيرهم حتى لقيوا العير عند ماء يقال له القردة بناحية نجد، فأخذوها وما فيها وهرب رجال العير، فخمسها النبي ﷺ وقسم ما بقي بين أفراد السرية.

مقتل كعب بن أشرف

هناك رجل يسمى كعب بن أشرف من بني نَبْهَانَ من قبيلة طَيءٍ، أصاب أبوه دما في الجاهلية فهرب إلى المدينة وحالف يهود بني النضير، ثم تزوج منهم عَقِيلَةَ بنت أبي الحَقِيق فولدت له هذا الرجل، وكان كعبا من أشد اليهود عداوة للإسلام وأعظمهم إيذاء للنبي ﷺ بلسانه، وكان شاعرا غنيا مترفا اشتهر بجماله، وكان يحرض الناس على حرب النبي ﷺ، فلما بلغه ما لقيه المشركون يوم بدر من الهزيمة وقتل صناديد قريش، أخذ يهجو النبي ﷺ والمسلمين ويحرض قريشا على قتاله، فلما رأى النبي ﷺ ذلك أمر بعض الصحابة بالخروج إليه لقتله.

وقد روى لنا البخاري قصة قتله بتمامها، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ" فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَأْذَنْ لِي أَنْ أَقُولَ شَيْئًا، قَالَ: "قُلْ"

فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَنَا صَدَقَةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَنَّانَا،[1] وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ، قَالَ: وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمَلُّنَّهُ.

قَالَ: إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ فَلَا نُحِبُّ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تُسْلِفَنَا وَسْقًا، أَوْ وَسْقَيْنِ، فَقَالَ: نَعَمِ، ارْهَنُونِي.

3- عنانا: بالتشديد، أي حملنا على المشقة والتعب، وهو من العناء الذي يعني التعب.

قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟ قَالَ: فَارْهَنُونِي نِسَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ، قَالَ: فَارْهَنُونِي أَبْنَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ أَبْنَاءَنَا فَيُسَبُّ أَحَدُهُمْ، فَيُقَالُ: رُهِنَ بِوَسْقٍ أَوْ وَسْقَيْنِ، هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْهَنُكَ اللَّأْمَةَ ـ قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي: السِّلَاحَ ـ فَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ، فَجَاءَهُ لَيْلًا وَمَعَهُ أَبُو نَائِلَةَ وَهْوَ أَخُو كَعْبٍ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْحِصْنِ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: أَيْنَ تَخْرُجُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَأَخِي أَبُو نَائِلَةَ.

وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قَالَتْ: أَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُ، قَالَ إِنَّمَا هُوَ أَخِي مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ بِلَيْلٍ لَأَجَابَ، قَالَ: وَيُدْخِلُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَعَهُ رَجُلَيْنِ.

قِيلَ لِسُفْيَانَ: سَمَّاهُمْ عَمْرٌو؟ قَالَ: سَمَّى بَعْضَهُمْ، قَالَ عَمْرٌو: جَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْنِ.

وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: أَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، قَالَ عَمْرٌو: وَجَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْنِ.

فَقَالَ: إِذَا مَا جَاءَ فَإِنِّي قَائِلٌ بِشَعَرِهِ فَأَشَمُّهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمْكَنْتُ مِنْ رَأْسِهِ فَدُونَكُمْ فَاضْرِبُوهُ.

وَقَالَ مَرَّةً: ثُمَّ أُشِمُّكُمْ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ مُتَوَشِّحًا وَهْوَ يَنْفَحُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيبِ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ رِيحًا ـ أَيْ أَطْيَبَ ـ وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قَالَ: عِنْدِي أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ وَأَكْمَلُ الْعَرَبِ، قَالَ عَمْرٌو: فَقَالَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشَمَّ رَأْسَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَشَمَّهُ، ثُمَّ

أَشَمَّ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذَنُ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهُ قَالَ: دُونَكُمْ. فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ »[1]

زواج النبي ﷺ بحفصة بنت عمر رضي الله عنهما:

وفي ذلك الوقت تزوج النبي ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بعد أن تأيمت من خنيس بن حذافة السهمي، وكان صحابيا توفى بالمدينة رضي الله عنه، وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

« أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ ـ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتُوُفِّيَ بِالْمَدِينَةِ ـ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ فَقَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي.

فَلَبِثْتُ لَيَالِي ثُمَّ لَقِيَنِي فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ زَوَّجْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، وَكُنْتُ أَوْجَدَ عَلَيْهِ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ.

فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا، قَالَ عُمَرُ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل كعب بن أشرف: (4037)

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبِلْتُهَا »[1]

زواج علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها:

وفي ذلك الوقت أيضا تزوج علي بن أبي طالب السيدة فاطمة بنت محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وسيد الخلق أجمعين الكريمة بنت الكريم، وكان عمره إذ ذاك إحدى وعشرين سنة، وهي ابنة خمس عشرة سنة، وهي أم سبطي النبي ﷺ الحسن والحسين رضي الله عنهما

فوائد وعبر:

ويستفاد من الدروس السابقة فوائد كثيرة وعبر جمة، وفيما يليك ذكر شيء منها بصورة الإجمال:

1- إن أصحاب الباطل أعداء الحق لا يزالون يقاتلونه ويعادون أهله حتى يردوهم عن الحق ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، ويشهد على ذلك قوله جل شأنه: « وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » البقرة: (217)

1- أخرجه البخاري في النكاح، باب عرض ابنته أو أخته على أهل الخير: (5122)

ولذا نجدهم يسعون ليل نهار في سبيل إحباط الدعوة النبوية والقضاء على أهلها، غير أن الله متم نوره ولو كره الكافرون، ومصداق ذلك قوله جل ثناؤه: « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » الأنبياء: (18)

2- ما يبذله النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين من أقصى جهدهم في سبيل إقامة هذا الدين وإحقاق الحق، فإنهم لا يُفَرِّطون في ذلك طرفة عين، وهذا يدل على فضل الصحابة وأنهم آثروا الله ورسوله ﷺ على النفس والأهل والمال وشهوة النفس، فرضوان الله عن الجميع.

3- مهارة النبي ﷺ القيادية ومبالغته في إبلاغ رسالة ربه والثبات على ذلك حيث يبالغ في رد كل ما يواجه دعوته وأمته مما يهدد كيانها بالدمار، حتى اتخذ رجال الاستخبارات الذين ينقلون له جميع تحركات أعدائه كي يكون منهم على حذر، ونجده أيضا لا يرصد كل من أراد إغارته من العدو، بل، فمتى وصل إليه الخبر سار إليهم على عجالة ليحسم شرهم، فينبغي لكل من يرأس جماعة أن يتأسى به في ذلك كله.

4- إن اليهود لعلى مكان عظيم فائق من الغدر والخيانة ونقض المواثيق، فلا يجاورهم أحد إلا غدروا به، وهم من أشد الناس عداوة للمسلمين، فهناك حقد دفين في صدورهم للمسلمين، وقد تقدم ذكر بعض أحوالهم الخبيثة، وبالله التوفيق.

5- التعامل مع المنافقين على ظواهرهم، فإن عبد الله ابن سلول بالغ في السعي في الدفاع عن يهود بني قينقاع بالشكل الذي يُظْهِر ما في سريرته من الكفر والنفاق، غير أن النبي ﷺ عامله على أنه مسلم، ففهم من ذلك أن المنافق يقبل ظاهره فيعامل عليه، ويوكل سريرته إلى الله.

6- جواز أمر الإمام بقتل من كان يؤذي الإسلام والمسلمين ولو كان الإيذاء يصدر من لسانه، سواء معاهدا كان أو غيره، غير أنه يشترط أن يكون بموضع تحكمه الدولة الإسلامية حيث لا يترتب من ذلك شر على المسلمين.

7- إن حكم شاتم النبي ﷺ أن يضرب عنقه بالسيف حتى يموت بقطع النظر من كونه معاهدا أو غيره، وكذلك الأمر في المسلم، فإنه يضرب عنقه بسب النبي ﷺ، ولو تاب قبل إقامة الحد عليه لا تنفعه توبته، بل لا بد من إقامة الحد عليه ثم يوكل أمره إلى الله، فإن كانت توبته صادقة فأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، وإن كان كاذبا فيها فالأمر فيه ظاهر.

8- إن المعاهد إذا خان وغدر بالعهد ينبذ إليه عهده كما فعل النبي ﷺ بيهود بني قينقاع، قال جل ثناؤه: « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » الأنفال: (58)

غزوة أحد

سبق لك ذكر ما آل إليه أمر مشركي مكة من الهزيمة والفشل، وقتل صناديدهم وأشرافهم، وتكسير شوكتهم، وتأزم اقتصادهم، لا شك أن ذلك يهيج غيظهم على المسلمين ويضطرهم إلى التماس طرق الأخذ بالثأر، وقد كان الأمر كذلك، فإنهم أجمعوا أمرهم على القيام بقتال شامل ضد المسلمين كي يشفوا علة غيظهم ويرووا أُوام حقدهم، واستعانوا بِعِير أبي سفيان التي نجا بها، وتحشد جيشهم المكون من ثلاثة آلاف مقاتل فيه النسوة والعبيد، وذلك ليشجع النسوة الرجال على القتال كي لا يولوا أدبارهم، وكذلك استعانوا بحلفائهم الأحابيش من بني المصطلق وبني الهُون بن خزيمة، فتوجهوا المدينة سائرين حتى نذلوا بذي الحليفة، وكان خروجهم يوم السبت لسبع مضت من شوال السنة الثالثة.

ولما بلغ النبي ﷺ الخبر من طريق عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه استشار أصحابه وخيرهم بين الخروج للمبارزة والإقامة في المدينة حتى إذا دخلوا عليهم فيقاتلوهم، فرجح بعض شيوخ الصحابة القول بالإقامة في المدينة منهم ابن سلول رأس المنافقين حينما رجح كثير من شباب الصحابة القول بالخروج واللقاء الدامي منهم حمزة بن عبد المطلب عمه ﷺ: وقالوا: "يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفا" فوافقهم رسول الله ﷺ على ذلك لكونهم الأكثرين والأقوين جلدا.

ثم صلى النبي ﷺ بهم الجمعة يومها، فحضهم على الجد والثبات، ثم دخل بيته ولبس درعه وحمل سلاحه، ولما خرج عليهم قالوا: يا رسول الله، استكرهناك على الخروج، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت قعدت، فقال ﷺ: « مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ »[1]

ثم قسم النبي ﷺ الجيش إلى ثلاث كتائب، كَتِيبة المهاجرين، وكتيبة الخزرج، وكتيبة الأوس، فعقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير العبدري، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وكان الجيش مكون من ألف مقاتل.

ثم تحرك جيش المسلمين نحو العدو، واستعمل النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، فواصل سيره حتى بلغ موضعا يقال له السوط، وهو بستان بين أحد والمدينة، تمرد رأس المنافقين ابن سلول فرجع بثلاثمائة من جماعته المنافقين، يقول عصاني محمد وأطاع الولدان، فعلام نقتل أنفسنا، وتبعهم عبد الله بن حرام يناشدهم ألا يخذلوا نبيهم، فقال ابن سلول: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فأنزل الله فيهم قوله: « وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » آل عمران: (167)

1- ذكره ابن القيم في زاد المعاد: (3/ 173) وأخرجه البخاري معلقا قبل حديث: (7369) ورواه النسائي في الكبرى: (7647) باختلاف يسير، وهو صحيح الإسناد.

وقوله: « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۞ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » النساء: (88)

فتحرك النبي ﷺ بمن بقي من جيشه وهم سبعمائة مقاتل حتى نزل بالشعب من أحد، وأمر خمسين راميا من أصحابه بقيادة عبد الله بن جبير أن يصعدوا جبلا بوادي قناة خلف معسكر الجيش، ويتمركزوا عليه، ولا يغادروه حتى يأمرهم بذلك، وهاك ما قال لهم: « لَا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا »[1] أخرجه البخاري.

ثم التحم الفريقان مقاتلين وحميت الحرب، وكان في مقدمة جيش المسلمين أسد الله الباسل عم النبي ﷺ حمزة بن عبد المطلب، وأبو دُجَانَةَ، ومصعب بن عمير رضوان الله عليهم، فإنهم أبلوا في هذه المعركة بلاء حسنا، وجاهدوا في الله حق الجهاد، وكان النصر للمسلمين في الجولة الأولى، وشعارهم: أَمِت، أَمِت.

ولما رأى الرماة الذين بالجبل ما آل إليه أمر المشركين من الهزيمة ورأوا الغنائم، حفزهم ذلك إلى ترك موضعهم ظنا منهم أن المعركة قد انتهت، وطفقوا يجمعون الغنائم، ونسوا أمر النبي ﷺ، فذكرهم رئيسهم عبد الله بن جبير رضي الله عنهم فلم يلتفتوا إليه، فلما رأى خالد بن وليد ذلك كر راجعا بالخيل هو وعكرمة بن أبي جهل، وكانا من قادة

1- أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أحد: (4043)

جيش المشركين حينئذ، فقتلوا من ثبت على الجبل من الرماة، وأخذوا يهجمون على المسلمين من الخلف، وقتل ابن قمئة مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين، وجاء شيطان يهتف بأن محمدا قد قتل، فحينئذ أصاب المسلمين الرعب وفشلوا حتى قال بعضهم: علام نقاتل إذا كان محمد قد قتل.

وأما النبي ﷺ فإنه ثبت هو وجماعة منهم سعد بن أبي وقاص، وأبو طلحة، وأبو دُجَانَةَ الأنصاري، وعلي بن أبي طالب، وخلق سواهم رضي الله عن الجميع، وترس أبو دُجَانَةَ نفسه دون النبي ﷺ والنبل يَنْهَلُّ على ظهره ولا يتحول، وكان رجل من المشركين يسمى أبا عامر الراهب قد حفر حفرا وغطاها كي يقع فيها المسلمون، فوقع النبي ﷺ في إحداها فأغمي عليه وخدشت ركبتاه، وبعد أن أخرجه علي وطلحة بن عبيد الله رماه عتبة بن أبي وقاص بحجر، فكسر رباعيته، غير أن حاطب بن أبي بلتعة تبع عدو الله فقتله، ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ: « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ. فَنَزَلَتْ "لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ" »[1]

استشهاد حمزة بن عبد المطلب:

وفي هذه المعركة استشهد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد تقدم لك أنه من الذين أبلا فيها بلاء حسنا، وجاهدوا في الله حق الجهاد، وهاك قصة استشهاده، وفي الصحيح عن وحشي رضي الله عنه قال: « إِنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ طُعَيْمَةَ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب "لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ" آل عمران: (128) قبل حديث: (4071)

بِبَدْرٍ، فَقَالَ لِي مَوْلَايَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بِعَمِّي فَأَنْتَ حُرٌّ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ النَّاسُ عَامَ عَيْنَيْنِ، وَعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بِحِيَالِ أُحُدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَادٍ خَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ.

فَلَمَّا أَنِ اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ خَرَجَ سِبَاعٌ فَقَالَ: هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟ قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ: يَا سِبَاعُ يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ الْبُظُورِ[1] أَتُحَادُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ؟ قَالَ: ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ فَكَانَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ،[2] قَالَ: وَكَمَنْتُ لِحَمْزَةَ تَحْتَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي فَأَضَعُهَا فِي ثُنَّتِهِ[3] حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ وَرِكَيْهِ.

قَالَ: فَكَانَ ذَاكَ الْعَهْدَ بِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ رَجَعْتُ مَعَهُمْ فَأَقَمْتُ بِمَكَّةَ حَتَّى فَشَا فِيهَا الْإِسْلَامُ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى الطَّائِفِ فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا، فَقِيلَ لِي: إِنَّهُ لَا يَهِيجُ[4] الرُّسُلَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: أَنْتَ وَحْشِيٌّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَنْتَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ؟ قُلْتُ: قَدْ كَانَ مِنَ الْأَمْرِ مَا بَلَغَكَ، قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّبَ وَجْهَكَ عَنِّي؟ قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَمَّا قُبِضَ

1- البظور: بضم الباء جمع بظر بفتحها، وهو لحمة بين شُفري فرج المرأة، تقطع عند الختان، وإنما دعاه حمزة رضي الله عنه بـ (بن مقطعة البظور) لكون أمه تختن النساء، وكانت العرب تستعمل هذا اللفظ في معرض الذم بقطع النظر من كون أم من يلقيه به خاتنة أو غير خاتنة.

2- كأمس الذاهب: كناية عن قتله، أي صيره عدما كأن لم يكن، يقال: ذهب كأمس الدابر، أي لم يترك أثرا.

3- ثنته: بضم الثاء وتشديد النون المفتوحة، وهي العانة.

4- لا يهيج الرسل: أي لا يأتيهم بما يُزعِجهم ويُضِيقهم.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ، قُلْتُ: لَأَخْرُجَنَّ إِلَى مُسَيْلِمَةَ لَعَلِّي أَقْتُلُهُ فَأُكَافِئَ بِهِ حَمْزَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ.

قَالَ: فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي ثَلْمَةِ جِدَارٍ كَأَنَّهُ جَمَلٌ أَوْرَقُ ثَائِرُ الرَّأْسِ قَالَ: فَرَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي فَأَضَعُهَا بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، قَالَ: وَوَثَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلَى هَامَتِهِ[1] »[2]

وقد وجد النبي ﷺ على قتل عمه حمزة رضي الله عنه وجدا شديدا، وكان عدد قتلى المسلمين سبعين رجلا، مَثَّلَ المشركون بهم لاسيما حمزة، فإنه بُقِرَ بَطْنُه وَجُدِعَ أَنْفُه وأذناه!، وأمر النبي ﷺ بدفنهم في ثيابهم التي قتلوا فيها، وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنهما قال: « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدٍ قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ وَقَالَ: أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُغَسَّلُوا.

وَقَالَ أَبُو الْوَلِيدِ عَنْ شُعْبَةَ عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ: قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا قُتِلَ أَبِي جَعَلْتُ أَبْكِي وَأَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَجَعَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَنْهَوْنِي وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَنْهَ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَبْكِيهِ أَوْ مَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ »[3]

1- هامته: أي رأسه.

2- أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل حمزة: (4072)

3- أخرجه البخاري في المغازي، باب من قتل يوم أحد: (4080)

ولما أراد المشركون الرجوع بعد أن تحقق لهم النصر الذي هو الهزيمة والخسارة حقيقة، أشرف أبو سفيان على الجبل واستقبل المسلمين، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجبه أحد، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجبه أحد، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجبه أحد منهم أيضا لأن النبي ﷺ منعهم من الإجابة.

فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوؤك، فقال: قد كان فيكم مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني.

ثم قال: أُعْلِ هُبَل، فقال رسول الله ﷺ: « أَلَا تُجِيبُونَهُ؟ » فقالوا: فما نقول؟ قال: « قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ »

ثم قال: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: « أَلَا تُجِيبُونَهُ؟ » قالوا: ما نقول؟ قال: « قُولُوا : اللهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ »[1]

ثم قال أبو سفيان: أَنْعَمْتَ فَعَال، يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال، فأجابه عمر، وقال: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

ثم قال أبو سفيان: هلم إلي يا عمر، فقال رسول الله ﷺ: « ائْتِهِ فَانْظُرْ مَا شَأْنُهُ؟ » فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدا؟ قال عمر: اللَّهم لا، وإنه ليستمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قَمِئَة وأبر.

1- أخرجه البخاري في المغازي: (4043)

وقد أظهر اليهود وإخوانهم المنافقون شماتتهم بالمسلمين، ويقول ابن سلول: لو أطعتمونا ما قتل منكم من قتل، وأخذوا يتساءلون عن النصر الذي كان يعدهم النبي ﷺ، وقد رد الله عليهم في سورة آل عمران وكشف عن سرائرهم.

غزوة حَمْرَاءِ الْأَسَدِ

لم يزل النبي ﷺ حذرا من عودة المشركين المدينة لإتمام انتصارهم، وقد كان الأمر كذلك، فإن أبا سفيان عزم على الرجوع إلى المدينة بجيشه لغزوها، فلما سمع النبي ﷺ ذلك ندب أصحابه إلى الخروج خلف العدو لمطاردتهم وإبطال ما قصدوه، وألا يخرج إلا من قاتل معه بالأمس، فاستجابوا لله ولرسوله ﷺ مع ما بهم من الجروح، وخرج ﷺ غد يوم الأحد لست عشرة خلت من شوال، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى علي بن أبي طالب اللواء، فواصل السير حتى انتهى إلى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، فعسكر هناك.

وهناك مر معبد بن أبي معبد الخزاعي بالجيش الإسلامي، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عَيْبَةَ نُصْحٍ[1] لرسول الله ﷺ بتهامة، صَفْقَتُهم معه[2] لا يخفون عنه شيئا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك ولودنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا:

1- عيبة نصح لرسول الله ﷺ: أي موضع سره.

2- صفقتهم معه: أي اتفقوا معه، يقال: أصفق مع فلان على الأمر، إذا اجتمع معه عليه.

أصبنا حَدَّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لَنَكُرَنَّ على بقيتهم فلنفرغن منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد، قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، كذا قاله ابن هشام. [1]

ومعبد الخزاعي هذا نصر عظيم للنبي ﷺ، إذ أنه إنما فعل ذلك ليخوف المشركين وينقض ما أبرموه، وقد كان الأمر كذلك، فإن الله تعالى ألقى الرعب في قلوب المشركين فتمادوا على سيرهم إلى مكة خائفين، وفي طريق رجوعهم مكة مر بهم ركب بنو عبد القيس يقصد المدينة فقال لهم أبو سفيان: هل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيبًا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة؟ قالوا: نعم، قال: فأبلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الكرة؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه.

فمروا بالجيش الإسلامي وهم بحمراء الأسد، فأخبروهم بما قال أبو سفيان، وفي ذلك نزل قوله تعالى: « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ

1- انظر سيرة بن هشام: (2/ 102)

وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۞ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » آل عمران: (173-175)

بعض حوادث السنة الثالثة:

في نفس السنة الثالثة في رمضان تزوج النبي ﷺ أم المساكين أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية بعد أن تأيمت من عبد الله بن جحش الذي استشهد بأحد، وهي أخت ميمونة بنت الحارث من الأم، فمكثت عنده ثمانية أشهر ثم توفيت في أواخر ربيع الأول.

وفيها زوج ﷺ ابنته أم كلثوم لعثمان بن عفان رضي الله عنهما بعد وفاة أختها رقية رضي الله عنها تحته، ولذلك كان يسمى ذا النورين، لأنه ليس هناك أحد جمع بنتي نبي واحدة بعد أخرى سواه.

وفيها أيضا حرم التعامل مع الخمر، وذلك أنها أم الخبائث، وكان تحريمها بالتدريج لتعلق العرب بها تعلقا شديدا حتى كانوا يظنون أنها تحملهم على الكرم، ولذا يسمون العنب كرما لكونهم يتخذونها منه، وفي تحريمها بالتدريج حكمة عظيمة، إذ لو جاء تحريمها دفعة واحدة يصعب عليهم الترك، وهذا من سنن الله تعالى التشريعية.

وكان أول ما نزل فيها قوله تعالى: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » البقرة: (219) ولم تحرم في هذه الآية بالكلية لما تقدم لك من الحكمة، غير أنها تشير إلى أن ترك التعامل معها أفضل وأسلم، فلما انكسر قوة تأثيرها في قلوب الصحابة بعد نزول هذه الآية التي تبين ما فيها من المفاسد حرمها الله تعالى برمتها في قوله: « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ

وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » المائدة: (90-91)

فوائد وعبر:

وقد كانت لهذه الغزوة غزوة أحد فوائد ودروس وعبر غزيرة لا يستغني عنها المسلم، وفيما يليك بيان ذلك بصورة الإجمال:

1- إن التشاور بين المسلمين من أهم مبادئ النصر والنجاح في حياتهم الدينية والاجتماعية، وهو من الآداب الإسلامية التي يربي النبي ﷺ الأمة عليها حيث نجده يستشير الصحابة في جميع أموره التي تحتمل المشاورة على الرغم من أنه أفضل الناس عقلا وذكاء والاهتداء لوجه الصواب، فيجب على كل مسلم أن يتأسى به ﷺ في ذلك حتى لا يستبد برأيه، فإنه لا يندم من استشار الناس، غير أنه يستشير ذوي الصلاح والعقل أصحاب التجربة والخبرة بغض النظر من كونهم رجالا أو نساء.

2- إن أعداء الحق لن يحبوا أهله أبدا كما أنهم لا يزالون في بذل أقصى ما عندهم من الجهد لإطفاء نوره وإطماس أثره بالكلية، وما يظهرونه للمسلمين من المحبة والمودة لا يجاوز اللسان، فإن مكنون ضمائرهم من حقد المسلمين وضغينتهم تنوء الجبال الشامخات بثقلها، وقد كشف الله لنا ما في سرائرهم من ذلك في عدة مواضع من ذكره الحكيم.

3- التمييز بين المؤمنين الصادقين في إيمانهم وبين الكاذبين، وقد كانت غزوة أحد سببا لكشف سرائر الناس ومكنون ضمائرهم حول الإيمان حيث محص الله المؤمنين

عن أخلاطهم المنافقين الكاذبين في إيمانهم، وذلك ليبين للمؤمنين أن معهم الأعداء الداخليين الذين يظهرون لهم المودة ويكمنون لهم العداوة، فليحذروا منهم، وهذا من حِكَمِ وقوع القتال على الشكل الذي تقدم كما قال تعالى: « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » آل عمران: (165-166) أي ليميز ويمحص، إذ أن ذلك سبق في علمه الأزلي.

4- جودة خطط النبي ﷺ الحربية وخبراته التنفيذية، وهو مثال رائع في ذلك، فإنه لا يأتي بخطة في ميدان القتال إلا صارت سببا للظفر والنجاح.

5- إن مخالفة أمر النبي ﷺ من أكبر أسباب الفشل حتى في ميدان القتال لإعلاء كلمة الله، وذلك أن النبي ﷺ أمر الرماة بالمثابرة على الجبل ونهاهم عن مغادرته بصرف النظر من انتصار المسلمين أو العكس، فكان النصر للمسلمين في الجولة الأولى، ولما عصوا معظم الرماة أمر النبي ﷺ بمغادرة الجبل والاشتغال بجمع الغنائم انقلبت موازين القتال وأصاب المسلمين فشل ذريع لم يتوقعوه، وهذا من سوء عاقبة معصية الله ورسوله ومخالفة أمرهما.

6- شدة شجاعة النبي ﷺ وثباته تجاه العدو، لا شك أن هذه المعركة أظهرت لنا ما جمعه النبي ﷺ من الشجاعة التامة والبسالة الوافرة والثبات الكامل مع الصبر والحلم ما لم يجمع في غيره.

7- ما لقيه النبي ﷺ من الشدائد في هذه الغزوة، وهذا ليس بشيء بالنسبة إلى ما واجهه من الشدائد والمصائب التي تكاد السماوات تتفطرن بثقلها من كفار مكة، وهذا كله يدل على حلمه وإقدامه وثباته ﷺ تجاه أي مصيبة وشدة تواجهه.

8- إن ما بلي به النبي ﷺ والمسلمين في هذه المعركة من الفشل هو النصر والظفر حقيقة، وما حصل للمشركين من النصر هو في الحقيقة هزيمة، ومن المعروف أن الابتلاء سنة الله تعالى جارية في عباده المرسلين والصالحين، ثم تكون العاقبة لهم، وتأخير النصر لهم في بعض المواطن لا يدل على أن الله تعالى خذلهم، بل، إنما كان ذلك ليكرم بعضهم بالشهادة التي هي غاية الكرم للمؤمنين، وليطهر نفوسهم من الكبر والعجب الناتجين من الظفر الدائم بلا مداولة، ومن ذلك أيضا تمحيص المؤمنين عن غيرهم كما تقدم، فإنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم حيث لا يستطاع أن يميز الصادق من الكاذب، فناسبت المداولة المذكورة ذلك كله.

ويصدق ما ذكرت لك كله قوله تعالى: « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » آل عمران: (140-142)

وهناك فوائد وعبر كثيرة غير ما ذكرنا، والله تعالى أعلم.

السرايا والحوادث بين أحد والأحزاب

هناك سرايا وحوادث وقعت فيما بين غزوة أحد والأحزاب، وفيما يليك ذكرها بصورة الإجمال والإيجاز:

سرية أبي سلمة:

في بداية السنة الرابعة للهجرة بلغ النبي ﷺ أن بني أسد بن خزيمة بقيادة طلحة وسلمة ابني خويلد الأسدي يريدون قتاله، فبعث إليهم النبي ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي في مائة وخمسين مقاتلا، ففاجأهم أبو سلمة في ديارهم، فهربوا، وأصاب المسلمون إبلا وشاء لهم فاستاقوها، ورجعوا إلى المدينة سالمين.

سرية عبد الله بن أنيس الأنصاري:

في نفس الشهر أيضا الشهر المحرم وصل الخبر إليه ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلي جمع له الجموع بِعُرَنَةَ لقتاله، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله بن أنيس الجهني الأنصاري، فسار إليهم لخمس مضت من المحرم، ومكث ثماني عشرة ليلة حتى قتل خالدا، ثم جاء النبي ﷺ برأسه، فأعطاه ﷺ عصا وقال: « هَذِهِ آيَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةَ »[1] فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه.

1- أخرجه ابن حبان في صحيحه: (7160) وهو ضعيف الإسناد، بيد أنه يعتضد بجميع طرقه.

وقعة الرجيع:

في صفر نفس السنة الرابعة حدثت فاجعة الرجيع، وقد روى لنا البخاري القصة بتمامها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً عَيْنًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ وَهُوَ جَدُّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحْيَانَ، فَتَبِعُوهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَامٍ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى أَتَوْا مَنْزِلًا نَزَلُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرٍ تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا: هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ.

فَتَبِعُوا آثَارَهُمْ حَتَّى لَحِقُوهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَى عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى فَدْفَدٍ،[1] وَجَاءَ الْقَوْمُ فَأَحَاطُوا بِهِمْ فَقَالُوا: لَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ إِنْ نَزَلْتُمْ إِلَيْنَا أَنْ لَا نَقْتُلَ مِنْكُمْ رَجُلًا، فَقَالَ عَاصِمٌ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ، فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ بِالنَّبْلِ وَبَقِيَ خُبَيْبٌ وَزَيْدٌ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَأَعْطَوْهُمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ.

فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ[2] فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ الَّذِي مَعَهُمَا: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَلَمْ

1- فدفد: بفتح الفاءين، وهو الرابية المشرفة.

2- قيسي: بكسر القاف والسين مع التشديد جمع قوس بفتح القاف فإسكان، وهو الآلة الحربية المعروفة، وتجمع أيضا على أقواس.

يَفْعَلْ، فَقَتَلُوهُ وَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَزَيْدٍ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ، فَاشْتَرَى خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ.

وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ فَمَكَثَ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى إِذَا أَجْمَعُوا قَتْلَهُ اسْتَعَارَ مُوسًى[1] مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ لِيَسْتَحِدَّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ، قَالَتْ: فَغَفَلْتُ عَنْ صَبِيٍّ لِي فَدَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ فَوَضَعَهُ عَلَى فَخِذِهِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ فَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَ ذَاكَ مِنِّي وَفِي يَدِهِ الْمُوسَى فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَكَانَتْ تَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ ثَمَرَةٌ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ، وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ، فَخَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فَقَالَ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ لَزِدْتُ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ هُوَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا. ثُمَّ قَالَ:

مَا أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى عَاصِمٍ لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ يَعْرِفُونَهُ، وَكَانَ عَاصِمٌ قَتَلَ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ »[2]

1- موسى: هو آلة فُولَاذِية معروفة يحلق بها الشعر، تذكر وتؤنث، والجمع: مُوسَيات، ومَواس.

2- أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان: (4086)

وما فعلته هذيل من قتل هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم ثأرا من المسلمين لخالد بن سفيان الهزلي الذي قتله عبد الله بن أنيس وجاء برأسه إلى النبي ﷺ كما تقدم.

فاجعة بئر معونة:

وفي نفس الشهر حدثت حادثة فظيعة أفظع من السابقة، وهي مأساة بئر معونة، وخلاصتها أن أبا براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة وفد على النبي ﷺ، وهو من سادة بني عامر، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، بل مدح أمر النبي ﷺ وطلب منه أن يبعث رجالا من أصحابه إلى أهل نجد كي يدعوهم إلى الإسلام، وقال: أرجو أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: "إني أخشى عليهم أهل نجد" فقال عامر: أنا لهم جار، فبعث إليهم النبي ﷺ سبعين رجلا بقيادة المنذر بن عمرو كلهم حفظ معظم القرآن، ولذا يقال لهم القراء، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فأرسلوا حرام بن مِلْحَان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى اللعين عامر بن الطُّفَيْل، فلم يلتفت إليه، بل أمر رجلًا فطعنه بالحربة من خلفه، فقال حرام: الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة.

ثم استنفر بني عامر إلى قتال بقية البعثة، فلم يجيبوه لأجل جوار ملاعب الأسنة، فاسترخ عليهم بني سليم رِعْل وعصية وذَكَوان، فجاءوا حتى أحاطوا بالقراء، فقاتلوهم حتى قتلوهم لقلتهم وكثرة العدو، ولم يبق منهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه وقع بين القتلى حتى ظُن أنه منهم، فعاش إلى أن قتل يوم الأحزاب.

وقد حزن النبي ﷺ لمقتل هؤلاء القراء حزنا شديدا حتى ظل شهرا يقنت في صلاة الصبح يدعو على بني سليم، عن أنس رضي اللّه عنه قال: « بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْعِينَ

رَجُلًا لِحَاجَةٍ يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، فَعَرَضَ لَهُمْ حَيَّانِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ عِنْدَ بِئْرٍ يُقَالُ لَهَا بِئْرُ مَعُونَةَ، فَقَالَ الْقَوْمُ: وَاللَّهِ مَا إِيَّاكُمْ أَرَدْنَا إِنَّمَا نَحْنُ مُجْتَازُونَ فِي حَاجَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَتَلُوهُمْ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ شَهْرًا فِي صَلَاةِ الْغَدَاةِ، وَذَلِكَ بَدْءُ الْقُنُوتِ وَمَا كُنَّا نَقْنُتُ »[1] أخرجه البخاري.

فوائد وعبر:

ولدروس المتقدمة فوائد وعبر عظيمة سيما حادثتي الرجيع وبئر المعونة، وخلاصتها أن الابتلاءات والمحن سنة الله تبارك وتعالى الجارية في عباده الصالحين، والحكمة في ذلك أن الله تعالى أعد للصالحين من عباده دار الكرامة والمنازل العالية لا تبلغهم إياها أعمالهم، فَقَيَّضَ لهم أسباب المحن والابتلاء ليصلوا إليها على الرغم من أنه قادر على إبلاغهم تلك المنازل بدون أي عمل، غير أن الله تعالى شاء أن تجري الأمور على النحو الذي أراد، فإنه تعالى يفعل ما يريد ولا مكره له، لا شك أن أصحاب الرجيع وقراء بئر معونة أكرمهم الله تعالى بالشهادة التي هي غاية الشرف التي تتوق نفس كل مسلم إليها، وقد تظاهرت النصوص السماوية على بيان ما للشهادة والشهداء من الفضائل العظيمة والمنزلة الفائقة عند خالقهم، فبهذا يتبين لنا أن ما أصاب هؤلاء الصحابة رضوان الله على الجميع ليس بنقص في حقهم، بل هو فضل من عند الله تعالى شرفهم به، ومنها أن طريق الله تعالى مظنة الابتلاء والمحن للحكمة المذكورة، ومنها أن الدعوة إلى الله تعالى على عاتق كل مسلم، وليس أمرها موكولا إلى الأنبياء

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان: (4088)

والمرسلين فقط، غير أن بعض الناس يحمل مسؤوليتها عن الآخرين، ومنها الحذر من الكفار والمشركين حال الدعوة إلى الله لكونهم مظنة الغدر والخيانة، وغير ذلك من الفوائد والعبر، والله تعالى أعلم.

غزوة بني النضير

قد تقدم لك ذكر قبائل اليهود الثلاثة الذين يسكون المدينة النبوية وما كان بينهم وبين النبي ﷺ من العهود والمواثيق، وسبق لك أيضا ما فعل النبي بإحدى هذه القبائل يهود بني قينقاع من نبذه عهدهم إليهم وإجلائهم من ديارهم لِمَا جاءوا به من الغدر والخيانة، غير أن ذلك لم يكن رادعا لهم عن غدرهم هذا لكونه مركوزا في طبائعهم الخبيثة، ومن المعلوم أن اليهود ليست لهم يد طولى في ميادين الحرب، وإنما اشتهروا بالمكر والخديعة والغدر، وتقدم أيضا أنهم من أعداء المسلمين الألداء يضمرون العداوة الشديدة للنبي ﷺ والمسلمين، غير أنهم لا يستطيعون مواجهتهم، ولم يزالوا خائفين من المسلمين طيلة ما بين قتل كعب بن أشرف وبين أحد، فلما وقعت معركة أحد وانتصر المشركون على المسلمين أخذت جرأتهم على المسلمين تبدو، ولم يزالوا كذلك حتى وقعت مأستي الرجيع وبئر معونة، فأحيا ذلك أملهم من جديد بتحقيق مطامعهم وأغراضهم تجاه المسلمين حتى أدى ذلك إلى مؤامرتهم التي تهدف القضاء على النبي ﷺ.

وكانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة بعد أحد، وسببها محاولة يهود بني النضير على اغتيال النبي ﷺ لما خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر أجارهما النبي ﷺ، فقتلهما عمرو بن أمية الضمري وهو لم يعلم بجوار النبي ﷺ لهما، وكان استعانته ﷺ بهم في ذلك وفقا لما في العهد الذين بينه ﷺ وبين بني النضير حول الدية.

فلما أتاهم رسول الله ﷺ وذكر لهم السبب الذي أخرجه إليهم، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك، فجلس رسول الله ﷺ إلى جدار من جدران بيوتهم هو وأبو بكر وعمر وعلي وبعض الصحابة رضي الله عنهم، ثم خلا اليهود بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه فمن رجل يعلوا على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة، فأرسل الله جبريل عليه السلام ليخبر النبي ﷺ بما هموا به من قتله، فنهض رسول الله ﷺ مسرعا، وتوجه المدينة، ثم تبعه أصحابه، فأخبرهم بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم: "اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه"

فأخذوا يتهيئون للرحيل، فبعث إليهم عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين يقول: لا تخرجوا من دياركم فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وفيهم أنزل قوله تعالى: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ۞ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۞ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ

جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ »
الحشر: (11-14)

فاطمأن نفس رئيسهم حُيَي بن أَخْطَبَ لما قاله هذا المنافق، وتمردوا وأبوا عن الخروج، فخرج إليهم النبي ﷺ واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وحاصرهم ست ليال.

قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد تَعِيبُه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها.

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عدو الله عبد الله بن أبي ابن سَلُول، ووديعة، ومالك بن أبي قَوْقَلٍ، وسويد، وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتَمَنَّعوا، فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلْقَةَ،[1] ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[2] بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام. [3]

1- الحلقة: بفتح الحاء أي السلاح.
2- نجاف: بكسر النون، العتبة التي بأعلى الباب.
3- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 191)

وقد جاء وصف هذه الغزوة وهؤلاء اليهود في قوله تعالى: « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۞ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ » الحشر: (2-5)

واستولى المسلمون على أرضهم وديارهم وأموالهم، وأخذ ﷺ سلاحهم، وفيها خمسون درعًا وخمسون بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفًا.

وكانت أموالهم خاصة بالنبي ﷺ يضعها حيث يشاء، ولذا لم يَخَمِّسْها كسائر الغنائم، لأن الله أفاءها عليه ﷺ من غير إيجاف المسلمين عليها بِخَيلٍ ولا رِكاب كما قال جل شأنه: « وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » الحشر: (6)

وأعطى رسول الله ﷺ من هذا المال فقراء المهاجرين الأولين خاصة، بيد أنه أعطى أبا دُجَانة، وسهل بن حُنَيف من الأنصار، وذلك لفاقتهما، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكُرَاع عدة في سبيل الله كما قال تعالى: « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » الحشر: (7)

فوائد وعبر:

إن لهذه المعركة فوائد وعبرا عظيمة، وبيانها بصورة الإجمال أن الغدر والخداع والدسيسة أمر مركوز في طبائع اليهود، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وأنه يجوز إتلاف المال لمصلحة مقتضية لذلك كما حرق النبي ﷺ نخل بني النضير كي يضطرهم ذلك للخروج من حصنهم، ومنها أيضا أن أمر الفيء موكول إلى الإمام حيث يضعه في مصالح المسلمين العامة من غير تخميسه، وهذا هو مذهب جماهير العلماء، ويؤيد ما ذهبوا إليه ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ عمر بن الخطَّابِ رضي الله عنه قال: « كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوْجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، وَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَالِصًا، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْزِلُ نَفَقَةَ أَهْلِهِ سَنَةً، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »[1]

1- أخرجه البخاري في الجهاد، باب المجن ومن يتترس بترس صاحبه: (2904) ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء: (1757)

غزوة ذات الرقاع

في ربيع الأول بعد إجلاء يهود بني النضير بشهر وبضعة أيام نفس السنة الرابعة على ما ذهب إليه جماهير أهل السير بلغ النبي ﷺ أن جمعا من قبائل نجد وهم: بنو ثعلبة وبنو محارب يريدون قتاله، فخرج رسول الله ﷺ إليهم في سبعمائة مقاتل من أصحابه، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان، فواصل السير حتى انتهى إلى ديارهم، فلم يجد فيها أحدا إلا نسوة فأخذهن، فلما سمع المشركون بذلك أصابهم الرعب وتفرقوا على رءوس الجبال، وفي هذه الغزوة أنزل الله تعالى مشروعية صلاة الخوف، فصلى النبي ﷺ بأصحابه العصر على صفتها المشروعة في المقام، وفي الصحيح عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ عَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتِ بْنِ جُبَيْرٍ عَمَّنْ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ صَلَاةَ الْخَوْفِ: « أَنَّ طَائِفَةً صَفَّتْ مَعَهُ وَطَائِفَةً وِجَاهَ الْعَدُوِّ، فَصَلَّى بِالَّذِينَ مَعَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ ثَبَتَ قَائِمًا فَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفُوا فَصَفُّوا وِجَاهَ الْعَدُوِّ، وَجَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَصَلَّى بِهِمُ الرَّكْعَةَ الَّتِي بَقِيَتْ ثُمَّ ثَبَتَ جَالِسًا وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ »[1]

1- أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع: (4129) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الخوف: (842)

وقد نقبت أقدام بعض الصحابة وسقطت أظفارهم لقلة الظهر وبُعد السفر، وكانوا يَلُفُّون على أرجلهم الخِرَقَ من ذلك كما يخبرنا بذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: « خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا وَنَقِبَتْ قَدَمَايَ وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، وَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرَقَ، فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ مِنْ الْخِرَقِ عَلَى أَرْجُلِنَا »[1] أخرجه البخاري.

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة ذات الرقاع: (4028)

غزوة بدر الصغرى الأخيرة

بعد أن خضد النبي ﷺ شوكة من حوله من الأعراب أخذ يتجهز لمواجهة جيش أبي سفيان جيش مكة، وذلك أن أبا سفيان جعل الموعد للملاقاة الدامية مرة ثانية في غزوة بدر السابقة، وفي شعبان نفس السنة الرابعة حان الموعد، غير أن هيبة الإسلام استولت على مشاعره وتخلل الرعب جميع مسالكه، ولذا احتال لمنع المسلمين عن الخروج لئلا يوصف بخُلف الوعد حيث استأجر رجلا يقال له نعيم بن مسعود الأشجعي إلى المدينة ليرجف المسلمين بجيش أبي سفيان أنه جمع جموعا عظيما لغزوهم، ففعل ذلك، غير أنه لم يُجْدِ ذلك لأبي سفيان نفعا، بل شجعهم على الخروج لمواجهة أعدائهم، فخرج النبي ﷺ في ألف وخمسمائة مقاتل من أصحابه، وولى على المدينة عبد الله بن عبد الله ابن سلول، فواصل السير حتى نزل ببدر فلم يجد أحدا من جنود أبي سفيان لكونه رجع بجيشه حيث علل قريشا بأن العام عام الجدب لا يصلح فيه القتال إلا في عام الخصب، ولم يزل النبي ﷺ ببدر حتى ثمانية أيام، ثم رجع المدينة بعد أن توطدت هيبته في نفوس العدو، وفي ذلك يقول الله تعالى: « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۞ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » آل عمران: (173-175)

حوادث:

وفي هذه السنة أي السنة الرابعة تزوج النبي ﷺ أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية بعد أن تأيمت من أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي أخي النبي ﷺ من الرضاعة، وكانت هي وزوجها أبو سلمة ممن هاجر إلى الحبشة، ثم رجعا مكة ثم هاجرا إلى المدينة فتوفي هناك، وهي آخر من مات من أمهات المؤمنين.

وفي هذه السنة توفيت أم المساكين زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها، وفيها أيضا ولد سبط النبي ﷺ وريحانته الحسن بن علي بن أبي طالب سيد شباب الجنة رضي الله عن الجميع، ثم ولد الحسن بعد بضعة أشهر.

غزوة دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ

بعد بدر الصغرى الأخيرة ببضعة أشهر بلغ النبي ﷺ أن أناسا من الأعراب بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ يعتدون على الناس بقطع الطريق حيث ينتهبون المارة أموالهم، وأنهم قد تحشدوا لمهاجمة المدينة، فخرج النبي ﷺ في ألف رجل من أصحابه لخمس ليال بقين من ربيع الأول للسنة الخامسة، وولى على المدينة سِبَاعَ بنَ عُرْفُطَةَ الغِفاري، واتخذ رجلا من بني عُذْرَةَ يقال له مذكور دليلا له، وأخذ يسير الليل ويكمن النهار كي يفاجئهم، فلما وصل إليهم خبره، فروا وتركوا أنعامهم وماشيتهم، فلما وصل النبي ﷺ ساحتهم لم يجد منهم أحدا، فغنم ما تركوه من هذه الأنعام ورجع المدينة، وقد ساد المنطقة الأمن والسلامة.

غزوة بني المصطلق

وقعت هذه الغزوة في شعبان السنة الخامسة للهجرة على ما قطع به المحققون من أهل السير والتاريخ، وسببها ما بلغ النبي ﷺ من أن الحارث بن أبي ضرار رأس بني المصطلق قد حشد جموعه لمواجهته، وكان بني المصطلق من الذين ساعدوا قريشا على غزو النبي ﷺ يوم أحد، فخرج إليهم ﷺ يوم الإثنين لليلتين خلتا من نفس الشهر ومعه سبعمائة مقاتل، وولى على المدينة زيد بن حارثة، ولما سمع رئيس بني المصطلق بمجيء النبي ﷺ لقتاله أصابه الرعب ما أدى إلى أن تفرق عنه رجال من جيشه، فواصل سيره حتى انتهى إلى ماء لهم يقال له: المريسع بناحية قديد، ودعاهم ﷺ إلى الإسلام فلم يجيبوه، فتراموا بالنبل ساعة، ثم اقتتلوا فكان النصر للمسلمين والهزيمة للمشركين، وسبي المسلمون نساءهم وذراريهم، وغنموا منهم غنائم كثيرة من الإبل والشاء، وكان عدد الإبل ألفي بعير، وعدد الشاء خمس آلاف شاة.

وهذا هو ما ذهب إليه أهل السير، ووهمهم الحافظ ابن القيم، وذكر أن القتال لم يحدث بينهم، وإنما أغار عليهم النبي ﷺ وهم غارون، أي غافلون، قلت: وهذا هو التحقيق، وهو الذي يؤيده الدليل.

وكان من جملة السبي ابنة سيد بني المصطلق الحارث، واسمها برة، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها وسماها جويرية، فأدى ذلك إلى أن أعتق المسلمون من وزع عليهم من قومها، وهم مائتا بيت، وقالوا: أصهار النبي ﷺ، لا ينبغي أسرهم في أيدينا، وتسبب ذلك إسلام بني المصطلق برمتهم.

وروى أبو داود عَنْ عَائِشَةَ رضى الله عنها قَالَتْ: « وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ الْمُصْطَلِقِ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ أَوِ ابْنِ عَمٍّ لَهُ، فَكَاتَبَتْ عَلَى نَفْسِهَا وَكَانَتِ امْرَأَةً مَلَّاحَةً تَأْخُذُهَا الْعَيْنُ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رضى الله عنها: فَجَاءَتْ تَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي كِتَابَتِهَا، فَلَمَّا قَامَتْ عَلَى الْبَابِ فَرَأَيْتُهَا كَرِهْتُ مَكَانَهَا وَعَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَرَى مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتُ.

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ أَمْرِي مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ وَإِنِّي وَقَعْتُ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَإِنِّي كَاتَبْتُ عَلَى نَفْسِي فَجِئْتُكَ أَسْأَلُكَ فِي كِتَابَتِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "فَهَلْ لَكِ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؟" قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « أُؤَدِّي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ ».

قَالَتْ: قَدْ فَعَلْتُ، قَالَتْ: فَتَسَامَعَ - تَعْنِي النَّاسَ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ، فَأَرْسَلُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ السَّبْيِ فَأَعْتَقُوهُمْ وَقَالُوا: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا أُعْتِقَ فِي سَبَبِهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ »[1]

1- أخرجه أبو داود في السنن: (3931) وهو حسن.

دور المنافقين في هذه الغزوة:

تقدم لك أن المنافقين من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ والمسلمين على رأسهم ابن سلول، وقد كانت قلوبهم تترصد اليوم الذي تتحقق الهزيمة للمسلمين، ولذا كلما كسب المسلمون نصرا جديدا امتلأت قلوبهم غيظا، وقد خرج مع المسلمين في هذه الغزوة جم غفير منهم ممن غلب عليهم التخلف في الغزوات الماضية، وإنما خروجوا طمعا في الغنيمة لما رأوا من اطراد النصر للمسلمين، فلما رأوا ما ناله الإسلام من النصر والظفر في هذه الغزوة ازدادوا غيظا على غيظهم، وأخذوا يثيرون العصبية بين المهاجرين والأنصار، حيث وقع شر بين أنصاري ومهاجري، فصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار، وصرخ المهاجري: يا معشر المهاجرين، فقال ﷺ: « أبدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها مُنْتِنَة » ففشل المنافقون ولم تتحقق أهدافهم، ولما رأى رئيسهم أن ذلك الارتباك الذي جاءوا به في صفوف المسلمين لم يُجْدِ لهم نفعا في تحقيق أغراضهم، امتلأ غضبا حتى قال: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: « كُنْتُ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَوْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ.

فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِي ﷺ، فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ

كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقَتَكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ" فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ فَقَالَ "إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ" »[1]

حديث الإفك:

ولما فشل المنافقون في تفريق صفوف المسلمين وجماعتهم جاءوا بأمر شنيع، وهو محاولتهم على الطعن في عرض النبي ﷺ بالافتراء على حبيبته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد قصت لنا عائشة القصة بتمامها فيما رواه البخاري، وهاك نصها:

قالت عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي.

فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارٍ[2] قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ.

1- جزع ظفار: بفتح الجيم في (جزع) وهو حجر كريم نفيس ذو خطوط متوارية وألوان مختلفة، و(ظفار) بفتح الظاء اسم مدينة لحمير باليمن، وكان العقد مصنوعا من ذلك الحجر النفيس الذي يوجد بمدينة ظفار.

2- أخرجه أبو داود في السنن: (3931) وهو حسن.

قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ[1] وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ[2] مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ.

فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ.

فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ[3] فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ.

قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ.

1- لم يهبلن: أي لم يسمن حيث يكثر فيهن اللحم.

2- العلقة: بضم العين أي قليل قدر ما يسد الجوع.

3- موغرين: أي وقت الظهيرة وقت انتصاف النهار، يقال: أوغر الرجل إذا دخل في ذلك الوقت، إذ أن أصل الوغرة شدة الحر.

قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ.[1]

وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فِي نَاسٍ آخَرِينَ لَا عِلْمَ لِي بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ وَتَقُولُ إِنَّهُ الَّذِي قَالَ:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ؟ ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ.

فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ[2] وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ قِبَلَ الْغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ.

1- يستوشه: أي يزينه ويلونه حيث يزيد ما يزيد فيه كي يقبله الناس.

2- المناصع: جمع مَنصَع، وهو الموضع الذي تقصده العرب لقضاء الحاجة.

فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا! فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ[1] وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ؟[2] فَقُلْتُ لَهُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا.

قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ.

1- أي هنتاه: أي يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة معرفة مكايد الناس وشرورهم، وقيل: أي يا هذه.

2- كيف تيكم: بكسر التاء اسم الإشارة للمفرد المؤنث مثل: ذاكم للمذكر، والمقصود: أي كيف حالكم وشأنكم.

قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ[1] غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ.

قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي.

قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ.

قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ

1- أغمصه: أي أعيبها به وأطعن به عليها، كذا قال صاحب النهاية.

بِنَوْمٍ قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي.

فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي.

قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ، فَقَالَ: أَبِي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: أُمِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقُلْتُ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا، إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ" يوسف (18)

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ

أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ[1] حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ[2] وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: يَا عَائِشَةُ: أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ، قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ" الْعَشْرَ الْآيَاتِ. النور: (11-20)

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ إِلَى قَوْلِهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ" النور: (22)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي فَقَالَ لِزَيْنَبَ: مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ

1- البرحاء: بضم الباء، أي الشدة والمشقة، وذلك دلالة على عظم كلام الله تعالى.

2- الجمان: بضم الجيم، وهو اللؤلؤ الصغار.

الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي[1] مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ، قَالَتْ: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ، ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ[2] أُنْثَى قَطُّ، قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »[3]

فوائد وعبر:

قد اشتملت هذه الغزوة بجميع أبعادها على فوائد وعبر عظيمة ذات أهمية بالغة في حياة المسلم، ونجملها لك فيما يلي:

1- بيان ما يمده الله تعالى به نبيه ﷺ من النصر والظفر قبل الوصول إلى ديار العدو حيث يلقي الخوف والرعب في قلوبهم بمجرد سماعهم بخروجه إليهم، فيضعف بذلك نشاطهم وتخضد شوكتهم حتى يستكينوا للمسلمين، وما وقع في هذه الغزوة وغيرها من فرار العدو وتوليهم أدبارهم قبل انتهائه ﷺ إليهم مصداق لقوله ﷺ « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً

1- تساميني: أي تفاخرني وترفع رأسها علي حيث ترى أنها خير مني.

2- عن كنف: كناية عن اجتنابه النساء الأجنبيات، والكنف هو ناحية الشيء وجانبه.

3- أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث الإفك: (4141)

طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةُ »[1] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وهذه من خصائصه ﷺ.

2- إن معالجة النبي ﷺ للمشاكل التي استغلها رأس المنافقين ابن سلول وأحزابه في هذه الغزوة تدل على براعته السياسية، وأنه أروع المثال في ذلك وأفضل من يُقْتَدَى به، إذ أن إطفاء النار التي اشتعلها هؤلاء المنافقون في مثل هذه الحالة أمر عسير جدا، غير أنه ﷺ أطفأها ببراعته السياسية وحِكَمِه القيادية، ولم يستعمل القوة والسلاح في ذلك مع توفر ما يوجب القتل لابن سلول من سبه النبي ﷺ ومظاهرة المشركين على المسلمين، بيد أنه ﷺ لم يفعل ذلك لما يترتب عليه من الفتنة وتقطيع وحدة المسلمين، فإن لهذا المنافق أتباعا وشيعة كثيرين من المسلمين المغرورين به، وأيضا قد يستغل ذلك أعداء الإسلام في صد الناس عن سبيل الله حيث يقولون إن محمدا يقتل أصحابه، فينبغي للمسلم أن يتأسى به ﷺ في ذلك كي لا تعقب أموره الخسارة والندامة.

3- مبالغة الشارع الحكيم في محاربة العصبية الجاهلية حيث أنكر النبي ﷺ على الأنصاري والمهاجري لما استنصر كل منهما بمن ينتسب إليه، وقال: « أبدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها مُنْتِنَة » فيجب على المسلم أن يجتنب العصبية بجميع أنواعها، أي بقطع النظر من كونها تقوم على أساس الاشتراك القبلي أو البلدي أو العرقي أو ما في معنى ذلك، لأن ذلك سبيل إلى الندامة.

1- أخرجه البخاري في كتاب التيمم، باب: (335) ومسلم في كتاب المساجد، باب: (521) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

4- إن الله تعالى هو الذي يستأثر بعلم الغيب على الإطلاق، لا شك أن هذه الحادثة حادثة الإفك من أظهر الأدلة على عدم معرفة النبي ﷺ الغيب، إذ لو كان يعلم الغيب ما عاش تلك الحالة بكل أبعادها شهرا كاملا يترقب نزول الوحي لمعرفة وجه الصواب، لا شك أنه لا يحتاج إلى نزول الوحي لكشف حقيقة الأمر، بل، يستغني عنه بمعرفته الغيب، وهذا أعني القول بعدم معرفته ﷺ الغيب هو مذهب الصحابة قاطبة، ومن تبعهم من التابعين ومن بعدهم منهم الأئمة الأربعة المشهورون أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، فإنه لم يثبت ولو حرف واحد عن أحد هؤلاء الأئمة في إثبات علم الغيب للنبي ﷺ، والقول بمعرفة النبي ﷺ الغيب بدعة باطلة لا أصل لها في الشرع، وليس ذلك تعظيما للنبي ﷺ وحبا له، وكذلك القول بعدم معرفته الغيب ليس نقصا في حقه، فإن الله تعالى فَضَّله على جميع العالمين وشرفه بمزايا كثيرة يستغني بها عن أمثال هذا الاختراع الذي لا أساس له شرعا، وأما ما يعرفه ﷺ بطريق الوحي من الأمور التي تخفى على غيره من الناس فهو الغيب النسبي، أي بالنسبة إلى غيره من الناس، فلا يدل ذلك على أنه ﷺ عَلِم الغيب على الإطلاق، والأدلة الخبرية متظاهرة على ما ذكرنا، وبالله التوفيق.

5- قبح فاحشة الزنا عند الشارع، لا شك أن فاحشة الزنى من كبائر الذنوب التي بالغ الإسلام في النهي عن اقترابها، وذلك لما يترتب عليها من اختلاط الأنساب، وانتهاك محارم الله تعالى، قال جل ثناؤه: « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » الإسراء: (32)

6- مشروعية حد القذف، والحكمة في مشروعيته المحافظة على أعراض الناس، فإن وضع العقوبة على القاذب يردع مثله عن ارتكابه مرة أخرى، وينزه المجتمع من إشاعة ألفاظ الفاحشة.

وقد أمر النبي ﷺ بالذين قذفوا عائشة رضي الله عنها بفاحشة الزنا من المسلمين الذين ليسوا بمنافقين وإنما وقعوا في مصيدة الشيطان، فضربوا حد القذف، وهو ثمانون جلدة، غير أنه لم يحد الذي تولى كبر هذه الشائعة الشنيعة، وهو رأس المنافقين ابن سلول، وذلك أنه لم يكن يصرح به بين المؤمنين، وإنما يذكر ذلك بين أصحابه، وأيضا الحدود كفارة لأصحابها يوم القيامة، بيد أن ذلك خاص بالمؤمنين.

7- فضيلة عائشة رضي الله عنها حيث برأها الله تعالى من سبع سموات من الافتراء بوحي يتلى إلى يوم القيامة.

8- وجوب التثبت من الأقوال قبل الركون إليها ونشرها بين الناس، وتحسين الظن بالمسلمين، وهذا مما أدب الإسلام المسلمين به.

9- لا ينبغي لمن كان يصنع معروفا لغيره أن يتركه لإساءته إليه، وقد رأينا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان ينفق على مسطح، وكان من الذين قذفوا عائشة من غير نفاق، فوجد عليه أبو بكر لذلك وأمسك عن الإنفاق عليه، فأنزل الله في ذلك: « وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » النور: (22) وهناك فوائد وعبر غير ما ذكرنا أغفلنا ذكرها لضيق المقام، والله تعالى أعلم.

غزوة الخندق أو الأحزاب

سبق ذكر ما نزل بيهود بني قينقاع وبني النضير من إجلائهم عن المدينة وإرث المسلمين ديارهم نتيجة غدرهم وخيانتهم، ومع ذلك لم يفيقوا من غيهم، وقد توطن معظمهم أرض خيبر، ولم يزالوا منذ أن توطنوها يتربصون ما يحل بالمسلمين من الهزيمة، غير أن ذلك لم يتحقق، بل، أصبح المسلمون في عزة وأمن وسلامة، وملأت هيبتهم أفئدة العرب بأجمعهم، ولما رأوا ذلك أخذوا في التآمر على المسلمين، وطفقوا يحرضون قريشا على غزو رسول الله ﷺ لما يتيقنونه من عدم قدرتهم على مواجهة المسلمين بالقتال مباشرة، فأرسلوا عشرين رجلا من زعمائهم إلى قريش ودعوهم إلى غزو النبي ﷺ وأنهم معهم، وقالوا لقريش: إن دينكم خير من دين محمد ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » النساء: (51-52)

فأجابتهم قريش، ثم ذهبوا أيضا إلى قبائل غطفان وذكروا لها ما ذكروا لقريش، فوافقتهم على ذلك، ومن هذه القبائل التي وافقت هؤلاء اليهود على حرب المسلمين: بنو فزارة بقيادة عيينة بن حصن، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وبنو سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس، وبنو أشجع برئاسة مسعر بن رخيلة، وبنو أسد بزعامة طليحة بن خويلد الأسدي، وتم تألب أحزاب المشركين على الإسلام وتوجهت المدينة كي

تتكالبت على المسلمين، وكان عدد المشركين عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة أبي سفيان.

ولما وصل الخبر إلى النبي ﷺ عقد مجلسا استشاريا حول خطة الدفاع عن كيان الدولة الإسلامية، فاستقر الأمر على حفر الخندق بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه، ولم يكن ذلك معروفا عند العرب، فوكل ﷺ إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعا، وأخذ المسلمون يحفرون الخدق بجد ونشاط، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في ذلك، وكان ينقل التراب ويتمثل بشعر عبد الله بن رواحة:

وَاللَّـهِ لَـوْلَا اللهُ مَا اهْـتَـدَيْنَا   وَلَا تَـصَـدَّقْـنَا وَلَا صَـلَّـيْـنَا
فَأَنْـزِلَـنْ سَـكِـيـنَـةً عَـلَـيْنَا   وَثَـبِّـتِ الْأَقْـدَامَ إِنْ لَاقَـيْـنَا
إِنَّ الْأُلَى قَـدْ بَغَوْا عَـلَـيْـنَا   إِذَا أَرَادُوا فِـتْـنَـةً أَبَـيْـنَا

ويقول أيضا:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَـيْـشَ عَيْشُ الْآخِرَهْ   فَاغْـفِـرْ لِلْأَنْـصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ

فيجيبه الصحابة رضوان الله عنهم بقولهم:

نَـحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُـحَـمَّـدَا   عَـلَى الْـجِـهَـادِ مَا بَـقِيْنَا أَبَـدَا

وقد ظهرت معجزة عظيمة للنبي ﷺ أثناء حفر الخندق، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: « لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا[1] شَدِيدًا فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْ

1- خمصا: بفتح الخاء والميم، أي ضمور البطن، وهو كناية عن الجوع.

إِلَيَّ جِرَابًا[1] فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ.

فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا،[2] فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ،[3] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ، فَجِئْتُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ[4] كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ »[5]

1- جرابا: بكسر الجيم، وهو وعاء متخذ من الجلد، والجمع: جرب بالضم، وأجرب.

3- سورا: بضم السين، وهو الطعام الذي يصنع للضيفان،.

4- فحي هلا بكم: أي هلموا مسرعين.

5- لتغط: أي لتغلي وتفور.

6- أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق: (4102)

وعنه أيضا قال: « إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ[1] شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا[2] أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ.[3]

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ،[4] فَذَبَحَتِ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدِ انْكَسَرَ[5] وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِيِّ[6] قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ.

فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي[7] فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: كَمْ هُوَ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قَالَ: قُلْ لَهَا لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ، فَقَالَ: قُومُوا فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ

1- كدية: بضم الكاف وسكون الدال وفتح الياء، وهي القطعة من الأرض الشديدة الصلبة.

2- كثيبا: أي رملا..

3- أهيل أو أهيم: شك من الراوي، أي سائر، والمعنى صار رملا يسيل.

4- عناق: بفتح العين، وهي الأنثى من المعز.

5- انكسر: أي لان ورطب حيث يتمكن منه الخمير.

6- الأثافي: بفتح الهمزة، أي الحجارة التي توضع عليها القدر، والبرمة، هي القدر المصنوعة من الحجر، والجمع: برم بضم الباء وفتح الراء، وبرام بكسر الباء.

7- طعيم لي: تصغير الطعام إشارة إلى قلته.

بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا[1] فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: كُلِي هَذَا وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ »[2]

وقال البراء رضي الله عنه: « لَمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَحْفِرَ الْخَنْدَقَ عَرَضَ لَنَا فِيهِ حَجَرٌ لَا يَأْخُذُ فِيهِ الْمِعْوَلُ، فَاشْتَكَيْنَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَلْقَى ثَوْبَهُ، وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الصَّخْرَةِ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ الْآنَ مِنْ مَكَانِي هَذَا.

قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، وَكَسَرَ ثُلُثًا آخَرَ وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنَ الأَبْيَضَ الآنَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَقَطَعَ الْحَجَرَ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ بَابَ صَنْعَاءَ »[3]

وهكذا ظل النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم يحفرون الخندق حتى تكامل قبل وصول جيش المشركين، وكان الخندق بجهة الشمال، وذلك أن جوانب المدينة محيطة بالجبال والحرات والنخيل حيث لا يستطيع العدو مهاجمتها حاشا الشمال، وأقام النبي

1- ولا تضاغطوا: أي لا تزدحموا.

2- أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق: (4101)

3- أخرجه النساعي في الكبرى، في كتاب السير، باب حفر الخندق: (8858) وهو حسن الإسناد.

ﷺ جيشه في الجانب الشرقي مسندا ظهره إلى جبل سلع، وكان عدده ثلاثة آلاف محارب.

ولما وصل جيش المشركين فإذا بالخندق أمامهم، فقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، وعسكروا حول الخندق يحاصرون المسلمين، ولما طال المطال عليهم اقتحم بعض أفراسهم الخندق منهم عكرمة بن أبي جهل وآخرون، فردهم المسلمين، وقتل بعضهم، وغلظ النبي ﷺ الحراسة على الخندق لصد المشركين عن الاقتحام.

موقف المنافقين في هذه الغزوة:

وقد تزعزع قلوب المنافقين وضعفاء النفوس برؤية هذا الجيش العرمرم الذي يستهدف المدينة لاستئصالها، وأخذوا يتحدثون فيما بينهم يظنون بالله ظن السوء، وازداد خوفهم حتى احتالوا للرجوع إلى بيوتهم بأنها عورة، وقال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصرى، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب الغائط، وهكذا أخذوا يستهزءون للنبي ﷺ ويسخرون للمسلمين، وقد صور الله لنا أحوالهم في هذه المعركة بقوله: « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۞ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۞ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ قَدْ يَعْلَمُ

اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۞ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا » النساء: (12-20)

غدر يهود بني قريظة ونقضهم الميثاق:

وبينما المسلمون في هذا الموقف المفزع انتهزت أفعي الدس والغدر هذه الفرصة لإيصال سمها في أجسادهم، وهم يهود بني قريظة الذين بقيوا في المدينة بعد إجلاء إخوانهم بني قينقاع والنضير بغدرهم، قال ابن هشام: خرج عدو الله حُيَي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فقال له حيي: ويحك يا كعب افتح لي! قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم وإني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء صدقا، قال: ويحك افتح لي أكلمك قال: ما أنا بفاعل.

قال: والله إن أغلقت دوني إلا عن جَشِيشَتِك[1] أن آكل معك منها، فأحفظ[2] الرجل، ففتح له فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام،[3] جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رُومَة، وبِغَطَفَان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بِذَنَبِ نَقْمَى إلى جانب أُحُدٍ، قد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه.

قال: فقال له كعب: جئتني والله بِذُلِّ الدهر وبِجَهَامٍ[4] قد هَراق ماءه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء، فلم يزل حيي بكعب حتى أقنعه بالخيانة ونقض العهد.

ولما بلغ النبي ﷺ ذلك، بعث سعد بن معاذ بن النعمان وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد ابن عبادة بن دُلَيْمٍ أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يؤمئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج، وخوات بن جُبَيْرٍ أخو بني عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا،

1- جشيشتك: الجشيشة هي طعام مصنوع من الجشيش، وهو البر المطحون يطحن غليظا.

2- فأحفظ الرجل: أي أغضبه.

3- طام: عظيم كثير الماء، والمراد هنا: الجيش الكبير كثير الرجال.

4- جهام: أي السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

فإن كان حقا فألحنوا لي لحنا أعرفه ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس،[1] وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

قال: فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلا فيه حِدَّةٌ، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبيهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: (عَضَلٌ وَالقَارَّةُ) أي كغدر عَضَلٍ والقَارَّةِ بأصحاب الرجيع خُبَيْبٍ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.[2]

وقد كفى الله المؤمنين شر عدوهم الدخليين حيث قيض الله لهم من يقوم بعملية إبطاله وذلك أن رجلا من غَطَفَانَ يسمى: نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رضي الله عنه جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: « إنما أنت رجل واحد، فَخذِّلْ عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة » فذهب على عجالته إلى بني قريظة ـ وكان عشيرا لهم في الجاهلية ـ فدخل عليهم وقال: قد عرفتم وُدِّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت.

1- ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس: أي لا تُضْعِفُوهم، يقال: فَتَّ في عضده إذا أضعفه وأوهنه، والمعنى إذا تحققتم منهم الغدر فلا تجهروا به للناس، بل، اجعلوا في ذلك علامة كي لا يسمع ذلك المسلمون فيضعفوا.

2- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 220 – 221).

قال: فإن قريشا ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن، قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم توجه نعيم إلى قريش وقال لهم: تعلمون وُدِّي لكم ونصحي لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فأرسلوا إلى اليهود يقولون: أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحدا، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم.

وبهذا تم حصول التخاذل فيما بينهم، وكفى الله المؤمنين القتال حيث أرسل الله على جيش المشركين جندا من عنده، وهو ريح هوجاء في ليلة مظلمة باردة، فجعلت تُقَوِّضُ خيامهم، وتكفئ قدورهم، وتقلع أطنابهم، وزلزلوا زلزالا شديدا حتى ولوا أدبارهم

خائبين، وقد صدق الله وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة.

وقد فصل الله تعالى ذلك بقوله: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (إلى قوله) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۞ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۞ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۞ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۞ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۞ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » النور: (25-10)

وقد حبس المشركون النبي ﷺ عن صلاة العصر حتى فات وقتها، فقضاها النبي ﷺ ومن معه من أصحابه بعد أن كفاهم الله القتال، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَبَسَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى احْمَرَّتِ الشَّمْسُ

أَوِ اصْفَرَّتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى . صَلَاةِ الْعَصْرِ . مَلَأَ اللهُ أَجْوَافَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا »[1] أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

فوائد وعبر:

ولهذه الغزوة غزوة أحزاب فوائد عظيمة، وخلاصتها أن أعداء الإسلام لا يزالون يطمعون في إحباطه وإطماس نوره بالكلية، غير أن الله يتم نوره ولو كره أعداؤه، قال الله تعالى: « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » الصف: (8)

ومنها أن المرء مهما بلغ من العقل والخبرة لا يستغني عن غيره عند حلول نازلة وغيرها، فإنه قد يجد ضالته المنشودة عند غيره ولو كان هو دونه علما وعقلا وخبرة، ومنها ما كان عليه النبي ﷺ من محاسن الأخلاق والتواضع الكامل مع أصحابه حيث يعظم رأي كل منهم ويعمل بما بان رجحانه له من ذلك، وهذا هو الحرية حقيقة، ومنها بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الإيمان الكامل، والوثوق الوافر بالله ورسوله ﷺ مع ثباتهم ومثابرتهم على الحق، ومنها أيضا ما ظهر من أحوال المنافقين من السخرية والاستهزاء بالمسلمين، وما فيهم من شدة الخوف والجبن، ومنها ما ظهر من معجزة عظيمة للنبي ﷺ الدالة على صدق نبوته، ومنها أن دين الإسلام هو دين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، وأن الله تعالى هو الذي يتكفل بحفظه حيث لا يستطيع من ناوأه إحباطه، بل يظهره الله على جميع الأديان الباطلة ويطمس

1- أخرجه مسلم: (628)

به آثارها كما قال تعالى: « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » الصف: (9)

ووقوع هذه الغزوة على الشكل الذي تقدم دليل على أن وعد الله تعالى هذا حق.

ومنها أن النصر بيد الله تعالى حيث هزم الأحزاب وحده بدون قتال، وأنه قادر على إبادة أعدائه وأعداء دينه بوسائل عديدة لا دخل للمسلمين فيها، بيد أنه لم يُجْرِ الغزوات كلها على هذا المجرى للحكمة التي تقدم ذكرها، وهناك فوائد غير هذه، ولا يسعنا المحل ذكرها، وبالله التوفيق.

غزوة بني قُريظ

في نفس اليوم الذي رجع النبي ﷺ المدينة جاءه جبريل عليه السلام يأمره بالخروج إلى يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد ليطهر أرضه منهم، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة بالخروج إليهم وقال: « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ »[1] فتوجه الصحابة منازل بني قريظة في قيادة علي بن أبي طالب، واستعمل النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، ثم تبعهم في نفر من الأنصار والمهاجرين.

ولما رأوا بنو قريظة جيش المسلمين يتوجه إليهم تحصنوا في حصونهم، وحاصرهم النبي ﷺ خمسا وعشرين ليلة، ولما اشتد عليهم الحصار ورأوا أن لا مخلص لهم من الحرب عرض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خلال: إما أن يصدقوا رسول الله ﷺ ويتابعوه فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم.

وإما أن يقتلوا أولادهم ونساءهم بأيديهم، ثم يخرجوا إلى النبي ﷺ بالسيوف مُصْلِتِين، حتى يحكم الله بينهم وبينه.

وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ يوم السبت، لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوه فيه، فرفضوا هذه الخلال كلها.

ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر ﷺ بقتل كل بالغ من الرجال، وسبي النساء والذراري، وصارت أموالهم غنيمة للمسلمين.

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب إلى بني قريظة: (4119)

حوادث السنة الخامسة:

وفي نفس السنة تزوج النبي ﷺ أم المؤمنين زينب بنت جحش الأسدية، وكانت من أشرف نساء قريش وأجملهم، وقد خطبها النبي ﷺ من قبل لزيد بن حارثة الذي تبناه على عادة العرب قبل الإسلام، فكره أهلها ذلك لما تقدم لك من مكانتها وشرفها ولكون زيد مولا للنبي ﷺ، وكانت العرب تكره تزويج بناتها من الموالي، فأنزل الله تعالى قوله الطيب: « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » الأحزاب: (36) فأجابوا لذلك من فورهم وزوجوه إياها، فلما دخل بها أخذت تأتيه بأشياء من كبريائها وعظمتها ما لم يحتمله، فشكاها إلى النبي ﷺ، فأوصاه بالصبر، وتمادى الأمر على ذلك حتى أمر الله رسول الله ﷺ بزواجها، وهو الذي زوجها له ﷺ من فوق عرشه كما قال: « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » الأحزاب: (37)

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: « جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: اتَّقِ اللهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ:

زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ »[1] وفي رِوَايَةِ عِيسَى بْنِ طَهْمَانَ عِنْدَهُ: « إِنَّ اللهَ أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ »

ثم أبطل الله عادة التبني، وأمر بنسب كل إلى أبيه الحقيقي كما قال تعالى: « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » الأحزاب: (5)

وقال أيضا: « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » الأحزاب: (40)

وفيها أيضا نزلت آيات الحجاب، وهي قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا » الأحزاب: (53)

وقال تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » الأحزاب: (59)

1- أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ » هود: (7) برقم: (7420)

فوائد وعبر:

ومن أهم ما يستفاد من هذه الغزوة بصورة الإجمال أن عاقبة كل غادر الهلاك والبوار، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، ومنها جواز قتل المعاهد بغدره، ومنها جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم، لأن الحكم بقتل رجال بني قريظة وسبي نسائهم وذراريهم إنما صدر من سعد بن معاذ لما حكمه النبي ﷺ عليهم، ومما يستفاد من قصة زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها، كرم النبي ﷺ، ومبالغة الإسلام في إبطال أمور الجاهلية التي تضاد الشريعة، وقوة إيمان الصحابة حيث يؤثرون قول الله ورسوله على هواهم، وهناك فوائد غير هذه أغفلنا ذكرها خشية خروج الكتاب عن المقصود.

السرايا والوقائع بين بني قريظة والحديبية

بعد تطهير أرض الإسلام النبوية المنورة من سموم أفاعي الدس والمكر والخداع ساد الأمن والسلامة جميع مناطقها، واستولت هيبتها جميع مشاعر من ناوأها، وأخذ النبي ﷺ يرسل السرايا لإتمام تخضيد شوكة كل من يسكن الجزيرة من العرب حتى تخضع إليه بحذافيرها، وهاك بيان هذه السرايا والغزوات وبعض الحوادث التي بين غزوة بني قريظة والحديبية بصورة الإجمال.

سرية محمد بن مسلمة:

بعد مضي العشر من محرم السنة السادسة للهجرة أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبا إلى القرطاء بناحية ضَرِيَّة من أرض نجد التي كانت على بعد مسيرة سبع ليال من المدينة، وذلك لشن الغارة على بطن بني بكر بن كلاب.

فلما نزلوا بساحتهم أغاروا عليهم فهرب بنو بكر، فاستاق المسلمون نعما وشاء، ورجعوا المدينة لليلة بقيت من المحرم، وفي طريقهم التقوا بِثُمَامَة بن أثال الحنفي رئيس بني حنيفة خرج متنكرا لاغتيال النبي ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب، فأخذوه، فلما وصلوا المدينة ذهبوا به إلى المسجد النبوي فربطوه بسارية من سواريه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟" فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: "مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟" قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: "مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟" فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: "أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ" فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ.

وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ لَا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ »[1]

وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، ففعل النبي ﷺ.

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال: (4372)

غزوة بني لحيان:

سبق لك بيان فاجعة الرجيع من قتل بني لحيان عاصم بن ثابت وأصحابه رضوان الله عليهم، وكان ﷺ يتوق إلى القصاص من هؤلاء المعتدين، فلما استوهنت عزائم أحزاب المشركين وتخاذل بعضهم بعضا واستولت هيبة الإسلام مشاعرهم حتى استكانوا، رأى أن موعد أخذ الثأر منهم قد حان، فتجهز النبي ﷺ وتحرك إليهم في ربيع الأول بعد مضي ستة أشهر من غزوة بني قريظة نفس السنة، وورى النبي قصده بأنه يريد الشام كعادته في غزواته، وذلك ليدرك من القوم غرة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه وخرج في مائتي مقاتل ومعهم عشرون فرسا، ولما وصل ﷺ إلى المحل الذي قتل فيه أهل الرجيع ترحم عليهم ودعا لهم بالمغفرة، فسمعت به بنو لحيان فهربوا إلى رءوس الجبال، وأرسل السرايا في كل ناحية فلم يجدوا أحدا حتى يومين، فلما رأى ﷺ أنه فاته ما أراده من مباغتتهم، تحرك إلى عسفان حتى نزل بها، ثم بعث أبا بكر رضي الله عنه في عشرة فوارس من أصحابه حتى بلغوا كراع الغميم ثم كروا راجعين، وحكمة ذلك إرهاب أهل مكة.

غزوة ذي قَرَد:

وسببها إغارة غطفان على لِقَاح[1] النبي ﷺ، وهاك القصة بتمامها: عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: « خَرَجْتُ قَبْلَ أَنْ يُؤَذَّنَ بِالْأُولَى وَكَانَتْ لِقَاحُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَرْعَى بِذِي قَرَدَ، قَالَ: فَلَقِيَنِي غُلَامٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَالَ: أُخِذَتْ لِقَاحُ

1- لقاح: بكسر اللام جمع لقحة بفتح اللام فإسكان، وهي الناقة الحلوب كثيرة اللبن.

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: مَنْ أَخَذَهَا؟ قَالَ: غَطَفَانُ، قَالَ: فَصَرَخْتُ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ: يَا صَبَاحَاهْ!

قَالَ: فَأَسْمَعْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيِ الْمَدِينَةِ ثُمَّ انْدَفَعْتُ عَلَى وَجْهِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُمْ وَقَدْ أَخَذُوا يَسْتَقُونَ مِنَ الْمَاءِ، فَجَعَلْتُ أَرْمِيهِمْ بِنَبْلِي وَكُنْتُ رَامِيًا وَأَقُولُ:

أَنَا ابْنُ الْأَكْوَعْ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعْ[1]

وَأَرْتَجِزُ حَتَّى اسْتَنْقَذْتُ اللِّقَاحَ مِنْهُمْ وَاسْتَلَبْتُ مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً، قَالَ: وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَالنَّاسُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ حَمَيْتُ الْقَوْمَ الْمَاءَ وَهُمْ عِطَاشٌ فَابْعَثْ إِلَيْهِمُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ الْأَكْوَعِ، مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ،[2] قَالَ: ثُمَّ رَجَعْنَا وَيُرْدِفُنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ حَتَّى دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ »[3]

سرية عُكَّاشَة بن مِحْصَن:

في ربيع الأول نفس السنة بعث النبي ﷺ عكاشة بن محصن رضي الله عنه في أربعين رجلا إلى الغمْر، وهو ماء لبني أسد، فلما سمعوا بمجيئه فروا، وأصاب المسلمون مائتي بعير وساقوها إلى المدينة.

1- يوم الرضع: بضم الراء وفتح الضاد المشددة، أي يوم هلاك اللئام.
2- فأسجح: أي أحسن وارفق.
3- أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من رأى العدو فنادى بأعلى صوته: (3041)

سرية محمد بن مَسْلَمَة:

وفي نفس السنة أيضا أرسل رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى ذي القَصَّة في ديار بني سلمة، فخرج في عشرة رجال وسار حتى نزل بديارهم، فكمن العدو لهم ـ وهم مائة ـ فلما ناموا قتلوهم، إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحا.

سرية أبي عبيدة بن الجراح:

وفي نفس السنة أيضا أرسل رسول الله ﷺ أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى ذي القصة إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة لأخذ الثأر من العدو، فخرج في أربعين مقاتلا إلى مصارعهم، وذلك في ربيع الآخر، فساروا ليلتهم مشاة، وأدركوا بني ثعلبة صباحا فأغاروا عليهم، فتفرقوا هاربين، وأخذوا رجلا واحدا فأسلم، واستاقوا نَعَما وشاء.

سرية زيد بن حارثة الأولى:

وفي جمادى الأولى نفس السنة أيضا أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه في سبعين ومائة راكب، ليعترض عير قريش لما سمع بها، وكان يقودها أبو العاص خَتَن النبي ﷺ، أي زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وهو يومئذ مشرك، فأخذ زيد العير وما فيها وأسر رجالها، فاستجار أبو العاص بزينب رضي الله عنهما، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه، ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوها جميعا، ورجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة، فرد عليه رسول الله ﷺ زوجه زينب بالنكاح الأول الذي سبق بثلاث سنين وبضعة أشهر.

سرية زيد بن حارثة الثانية:

في جمادى الآخرة نفس العام خرج زيد في خمسة عشر رجلا إلى الطرف، لشن الغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب ابن مسلمة رضي الله عنهم، فهربوا، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم، فغنم المسلمون ما تركوا من نَعَمِهِم.

سرية زيد الثالثة:

وفي رجب السنة السادسة بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه أيضا إلى وادي القرى لاستكشاف حركات العدو، فخرج زيد في اثني عشر رجلا، فأغار عليهم أهلها؛ فقتلوا تسعة، وأفلت زيد وبقية اثنين.

سرية أبي بكر الصديق:

وفي نفس السنة أيضا أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر السديق رضي الله عنه إلى بني فزارة بوادي القرى لإغارتهم نتيجة اعتدائهم على سرية زيد الأولى حيث تعرضوا لزيد عندما كان يرجع بتجارة من الشام، فسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه، فخرج إليهم أبو بكر، وأحاط بهم هو وأصحابه، وقتلوا منهم عددا كبيرا، وأصابوا امرأة منهم، فدلتهم على محلة للقوم أصابوا فيها نعما وشاء وأسرى، ورجعوا المدينة، واستوهب النبي ﷺ المرأة ممن أسرها وفدى بها أسيرا.

سرية الخَبَطِ:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: « بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مِائَةِ رَاكِبٍ أَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ نَرْصُدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، فَأَقَمْنَا بِالسَّاحِلِ نِصْفَ شَهْرٍ فَأَصَابَنَا

جُوعٌ شَدِيدٌ حَتَّى أَكَلْنَا الْخَبَطَ،[1] فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْجَيْشُ جَيْشَ الْخَبَطِ، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا الْعَنْبَرُ،[2] فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ وَادَّهَنَّا مِنْ وَدَكِهِ حَتَّى ثَابَتْ[3] إِلَيْنَا أَجْسَامُنَا، فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَصَبَهُ فَعَمَدَ إِلَى أَطْوَلِ رَجُلٍ مَعَهُ.
قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَصَبَهُ وَأَخَذَ رَجُلًا وَبَعِيرًا فَمَرَّ تَحْتَهُ، قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ نَحَرَ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ نَحَرَ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ نَحَرَ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ نَهَاهُ »[4]

سرية عبد الرحمن بن عوف:

وفي شعبان العام السادس بعث النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى بني كلب الذين يقيمون بدَوْمَة الجَنْدَل، وأقعده رسول الله ﷺ بين يديه وعممه بيده، وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب، وقال له: « إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم » فخرج إليهم عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة مقاتل، وظل ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن ابنة سيدهم يقال لها: تُمَاضِر بنت الأصبغ.

1- الخبط: هو ما يسقط من أوراق الشجر بالتحريك.

2- العنبر: بفتح العين وسكون النون، وهو حيوان مائي في رتبة الحيتان، له رأس عظيم، والجمع: عنابر بالفتح.

3- ثابت: أي رجعت إلى حالتها الطبيعية.

4- أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة سيف البحر: (4361)

سرية علي بن أبي طالب:

وفي شعبان نفس العام أيضا بعث النبي ﷺ ختنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى فدك لغزو بني سعد بن بكر، وذلك أنه بلغه ﷺ أنهم يحشدون جموعهم لمساعدة اليهود على حربه بقيادة سيدهم وبر بن عليم، فتحرك إليهم علي رضي الله عنه في مائتي رجل، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فأصاب عينا لهم، فأرشده إلى موضع تجمع بني سعد، فأغار عليهم علي، فهربوا، وغنم المسلمون منهم خمسمائة بعير وألفي شاة.

سرية كُرْز بن جابر الفهري:

عن أنس رضي الله عنه قال: « أَنَّ نَاسًا مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ضَرْعٍ وَلَمْ نَكُنْ أَهْلَ رِيفٍ،[1] وَاسْتَوْخَمُوا[2] الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَوْدٍ وَرَاعٍ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا.

فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا نَاحِيَةَ الْحَرَّةِ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَقَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَسَمَرُوا أَعْيُنَهُمْ وَقَطَعُوا

1- ريف: بكسر الراء، أي أرض ذات زرع وخصب، والجمع: ريوف بالضم، وأرياف بالفتح.

2- واستوخموا المدينة: أي وجدوها ثقيلة حيث لا يوافقهم جوها، يقال: استوخم المكان إذا وجده وبيئا أو ثقيلا لا يوافق جسمه.

أَيْدِيَهُمْ وَتُرِكُوا فِي نَاحِيَةِ الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا عَلَى حَالِهِمْ »[1] والذي جاء بهم هو كُرز بن جابر الفهري رضي الله عنه.

مقتل أبي رافع سَلَّام بن أبي الحقيقي:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: « بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعٍ الْيَهُودِيِّ رِجَالًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَتِيكٍ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ وَكَانَ فِي حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَرَاحَ النَّاسُ بِسَرْحِهِمْ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ: اجْلِسُوا مَكَانَكُمْ فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ وَمُتَلَطِّفٌ لِلْبَوَّابِ لَعَلِّي أَنْ أَدْخُلَ، فَأَقْبَلَ حَتَّى دَنَا مِنَ الْبَابِ ثُمَّ تَقَنَّعَ بِثَوْبِهِ كَأَنَّهُ يَقْضِي حَاجَةً، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ، فَهَتَفَ بِهِ الْبَوَّابُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ فَادْخُلْ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ، فَدَخَلْتُ فَكَمَنْتُ.

فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ أَغْلَقَ الْبَابَ ثُمَّ عَلَّقَ الْأَغَالِيقَ عَلَى وَتَدٍ قَالَ: فَقُمْتُ إِلَى الْأَقَالِيدِ فَأَخَذْتُهَا فَفَتَحْتُ الْبَابَ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُسْمَرُ عِنْدَهُ وَكَانَ فِي عَلَالِيَّ لَهُ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ أَهْلُ سَمَرِهِ صَعِدْتُ إِلَيْهِ فَجَعَلْتُ كُلَّمَا فَتَحْتُ بَابًا أَغْلَقْتُ عَلَيَّ مِنْ دَاخِلٍ.

قُلْتُ: إِنِ الْقَوْمُ نَذِرُوا بِي لَمْ يَخْلُصُوا إِلَيَّ حَتَّى أَقْتُلَهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَسْطَ عِيَالِهِ لَا أَدْرِي أَيْنَ هُوَ مِنَ الْبَيْتِ، فَقُلْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَأَهْوَيْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، وَأَنَا دَهِشٌ، فَمَا أَغْنَيْتُ شَيْئًا وَصَاحَ، فَخَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ فَأَمْكُثُ غَيْرَ بَعِيدٍ.

1- أخرجه البخاري في الطب، باب من خرج في أرض لا تلائمه: (5727)

ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ؟ فَقَالَ: لِأُمِّكَ الْوَيْلُ إِنَّ رَجُلًا فِي الْبَيْتِ ضَرَبَنِي قَبْلُ بِالسَّيْفِ، قَالَ: فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أَثْخَنَتْهُ وَلَمْ أَقْتُلْهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ ظِبَةَ السَّيْفِ فِي بَطْنِهِ حَتَّى أَخَذَ فِي ظَهْرِهِ فَعَرَفْتُ أَنِّي قَتَلْتُهُ، فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الْأَبْوَابَ بَابًا بَابًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَةٍ لَهُ فَوَضَعْتُ رِجْلِي وَأَنَا أُرَى أَنِّي قَدِ انْتَهَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ فَانْكَسَرَتْ سَاقِي فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَةٍ.

ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى الْبَابِ فَقُلْتُ: لَا أَخْرُجُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ أَقَتَلْتُهُ، فَلَمَّا صَاحَ الدِّيكُ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ فَقَالَ: أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الْحِجَازِ، فَانْطَلَقْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَقُلْتُ: النَّجَاءَ فَقَدْ قَتَلَ اللَّهُ أَبَا رَافِعٍ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: ابْسُطْ رِجْلَكَ، فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَهَا فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ »[1]

فوائد وعبر:

وللدروس السابقة فوائد عظيمة، وخلاصتها أن الصحابة لعلى مقام علي من التضحية بالنفس والمال والأهل في سبيل إقامة هذا الدين، وأن النصر لا يأتي إلا بعد الكد والمشقة، والنجاح لا يتحقق حتى يبذل المرء قصارى جهده في تحقيق أغراضه مع الصبر والثبات، وأن الجزاء من جنس العمل، وبالله التوفيق.

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي رافع: (4039)

عمرة الحديبية[1] وبيعة الرضوان والصلح

في شهر ذي القعدة آخر السنة السادسة، خرج النبي ﷺ هو وجمع كبير من أصحابه يبلغون خمسمائة وألف رجل، وذلك يوم الإثنين اليوم الأول من ذي القعدة قاصدا مكة لأداء مناسك العمرة، وقد أري النبي ﷺ في المنام أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام الذي كان قد صد عنه المشركون منذ هجرته إلى المدينة، وأخذ مفتاح الكعبة، وطاف واعتمر هو وأصحابه، وحلق بعضهم وقصر الآخرن، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، واستعمل ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم.

ولما بلغ ذلك قريشا عقدوا من فورهم مجلسا استشاريا، وأجمعوا على صد المسلمين عن الحرم المكي، وحشدوا لهم الجموع من الأحابيش والأعراب لحربهم، وبعثوا لهم أيضا خالد بن الوليد في مائتي فارس، ولما سمع النبي ﷺ ذلك عدل عن الطريق الرئيسي وأخذ الذي تخلل الشعاب، فرجع خالد إلى قريش وأخبرها الخبر.

وقد روى لنا البخاري قصة الحديبية بتمامها، وهاك نص الحديث:

عن الْمِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ رضي الله عنه قال: « خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، حَتَّى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِي ﷺ: "إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ"

1- الحديبية: بضم الحاء وفتح الدال وسكون الياء وكسر الباب بلا تشديد على التصغيرية، وهي اسم بئر سمي المكان بها، وقيل: شجرة حدباء صغرت وسمي المكان بها.

فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ،[1] فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ[2] نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ.

فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ،[3] فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ،[4] خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا"

ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى ثَمَدٍ[5] قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا،[6] فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ[7] لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ،[8] فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي

1- قترة الجيش: أي غبار الجيش.

2- يركض: أي يعدو ويسرع.

3- حل حل: كلمة تزجر بها الناقة إذا تركت السير.

4- خلأت القصواء: أي وقفت وامتنعت عن السير، والقصواء اسم ناقة النبي ﷺ.

5- ثمد: أي حفيرة فيها ماء قليل.

6- يتبرضه الناس: أي يجمعه الناس بكفيهم، وقيل: يتناوله قليلا قليلا.

7- يجيش: أي يفور ويتدفق.

8- صدروا عنه: أي رجعوا عنه رواء بعد وردهم.

تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ[1] مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ،[2] وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّا لَمْ نَجِيءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ،[3] وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا[4] أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلا فَقَدْ جَمُّوا،[5] وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي،[6] وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ"

فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ.

1- أعداد: جمع عد بكسر العين، وهو الماء الذي لا ينقطع.

2- العوذ المطافيل: لفظ العوذ بضم العين جمع عائذ، وهي الناقة ذات اللبن، و(المطافيل) الأمهات اللاتي معها أطفالها، أي خرجوا بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها، وبنسائهم وذراريهم ليشجعوهم.

3- نهكتهم الحرب: أي بلغت بهم الجهد حتى أضعفتهم.

4- فإن أظهر فإن شاءوا: شرط بعض شرط، أي إن ظهر غيرهم علي كفاهم المؤنة، وإن أظهر أنا على غيرهم فإن شاءوا أطاعوني وإلا فلا تنقضي مدة الصلح إلا إذا استراحوا، كذا في الفتح.

5- جموا: أي استراحوا.

6- سالفتي: أي صفحة عنقي.

وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لا، قَالَ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا[1] عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِهِ.

قَالُوا: ائْتِهِ، فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ[2] أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا[3] مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ امْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ،[4] أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ، فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِي ﷺ

1- بلحوا: أي امتنعوا عن إجابتي.

2- اجتاح: أي أهلك.

3- أوشابا: أي الأخلاط المتفرقة من الناس.

4- امصص بظر اللات: تقدم لك أن العرب كانت تشتم وتعيب بهذا اللفظ، أعني (البظر) بالإضافة إلى لفظ (الأم) كما تقدم في قول حمزة رضي الله عنه لسباع في أحد، فأراد أبو بكر رضي الله عنه المبالغة في سب عروة بجعل من كان يعبد مقام أمه، غضبا لنسبه المسلمين إلى الفرار.

ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

فَقَالَ أَيْ غُدَرُ! أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَمَّا الإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ" ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ[1] أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِي وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَذَا فُلَانٌ، وَهْوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ" فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ،

1- يرمق: أي يلحظ.

فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ: دَعُونِي آتِهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "هَذَا مِكْرَزٌ وَهْوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ" فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو.

قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ، أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ"

قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِي فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ "بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ" كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ.

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ" ثُمَّ قَالَ: "هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ"

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: "لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا" فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ" فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً[1] وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ.

1- ضغطة: بضم الضاد أي قهرا.

فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ، إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ[1] فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ" قَالَ فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيءٍ أَبَدًا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَأَجِزْهُ لِي" قَالَ مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: "بَلَى، فَافْعَلْ" قَالَ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ، وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ.

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: "بَلَى" قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: "بَلَى" قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: "إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي" قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: "بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟" قَالَ قُلْتُ: لا، قَالَ: "فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ" قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ

1- يرسف: أي يمشي مشيا بطيئا بسبب القيد.

ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهْوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ،[1] فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ.

قَالَ الزُّهْرِي: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا، قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: "قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا" قَالَ فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ.

فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ" حَتَّى بَلَغَ "بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ" الممتحنة: (10)

فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ ـ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ ـ وَهْوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا.

فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ[2] الْآخَرُ

1- بغرزه: أي استمسك بأمره ولا تخالفه، وأصل الغرز ركاب الإبل من جلد أو خشب أو حديد.

2- فاستله: أي أخرجه من غمده.

فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ،[1] وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: "لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا" فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ.

فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ: فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِيَ اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ" فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ.[2]

قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهْوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ" حَتَّى بَلَغَ "الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ" الفتح: (26)

وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِـ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ »[3]

1- حتى برد: كناية عن الموت، أي حتى مات.

2- سيف البحر: بكسر السين، أي ساحله وجانبه.

3- أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب الشرط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب: (2731)

بيعة الرضوان:

وقد أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه سفيرا بينه وبين قريش قبل تمام الصلح، فاحتبسته قريش مدة، وبلغ النبي ﷺ أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ: « لَا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ » فدعا الصحابة للبيعة على القتال، فبايعوه تحت الشجرة بيعة الرضوان، ولذلك تسمى الشجرة شجرة الرضوان، وكان ﷺ يأخذ بيد كل منهم يبايعونه على ألا يفروا، وأخذ ﷺ بيده نفسه وقال: « هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ » وبهذا تمت بيعة الرضوان، ثم تبين أن خبر مقتل عثمان مجرد الكذب.

وفي ذلك أنزل قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » الفتح: (10)

وقوله تعالى: « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » الفتح: (18)

وفي هذه السنة أي السنة السادسة فرض الحج على ما ذهب إليه جماهير العلماء، وهو فريضة الله تعالى على كل مكلف استطاع إليه سبيلا، قال تعالى: « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» آل عمران: (97)

فوائد وعبر:

وقد اشتملت هذه الحادثة على أمور مهمة للغاية، ونلخصها لك فيما يلي:

1- مشروعية مناسك العمرة في الإسلام، ويشهد على ذلك قوله تعالى: « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » البقرة: (196)

وهي واجبة عند الشافعي وغيره خلافا لأبي حنيفة ومالك، فإنهما رجحا القول بأنها سنة مؤكدة تمسكا بحديث جابر رضي الله عنه: « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْعُمْرَةِ أَوَاجِبَةٌ هِيَ؟ قَالَ: لَا، وَأَنْ تَعْتَمِرُوا هُوَ أَفْضَلُ »[1]

2- حرمة بيت الله الحرام ومكانته في قلوب المسلمين خاصة، وفي قلوب العرب عامة.

3- مبالغة المشركين في صد الناس عن سبيل الله تعالى.

4- حكمة النبي ﷺ البالغة، وحسن قيادته وجودة معالجته المشاكل بدون السلاح.

5- فضيلة عثمان بن عفان رضي الله عنه ومنزلته عند النبي ﷺ.

6- فضيلة أصحاب بيعة الرضوان كما تقدم في الآية الكريمة، وهم في الدرجة الثانية بعد أهل بدر.

7- إن كثيرا من المشركين يعلمون صدق نبوة النبي ﷺ، وأنه مرسل إليهم، بيد أن الشيطان زين لهم أعمالهم وأعمى أبصارهم.

8- ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من إجلال النبي ﷺ وتبجيله وتوقيره ما أدهش عروة بن مسعود سفير قريش، لا شك أن هذه الحادثة كشفت لنا مدى

1- أخرجه الترمذي في كتاب الحج، باب العمرة أواجبة هي أم لا: (931)

تعظيمهم له ﷺ، وأنهم هم أئمة هذا الشأن، فجميع الناس في محبة النبي ﷺ عيال على الصحابة رضوان الله عليهم لا يقاربون أدناهم في ذلك بجملتهم.

9- إن الوفاء بالعهد من الأمور التي حض الشارع الحكيم على مطلوبيتها وبالغ في الأمر بالمحافظة عليها وجعل الوعيد الشديد على من خالف ذلك، وقد كان النبي ﷺ أفضل من يقتدى به في الوفاء بالعهد، فيجب على المسلم أن يتأسى به في ذلك، ويشهد على ما ذكرنا قوله تعالى: « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » النحل: (91)

وقوله تعالى: « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » الإسراء: (34)

10- مشروعية المصالحة والموادعة مع أهل الحرب عندما دعت الحاجة إلى ذلك، وقد كان صلح الحديبية هذا فتحا عظيما للمسلمين جاء في صورة ظاهرها عكس ما ذكرنا، فإنه أتاح للمسلمين فرصة الدعوة إلى الله تعالى آمنين مطمئنين.

11- جواز موافقة الخصم على ما جاء به مما لا يضر بأصل المقصود لتحقيق ما هو أعظم منه مصلحة.

12- إن الله تعالى لا يخذل من جاء إليه مجيبا لدعوته منقادا لحكمه، فمن يتق الله يجعل له مخرجا.

13- النهي عن نكاح المشركة ووجوب المبادرة إلى مفارقتهن بعد الزواج، وأن المؤمنات لا يرجعن إلى دار الكفر بعد مغادرتهن إياها.

14- جواز التبرك بآثار النبي ﷺ، وهذا خاص به ﷺ، وأما غيره من الصالحين فالتحقيق أنه لا يجوز، وكل ما روي في ذلك مما يدل على الجواز فهو ضعيف لا يصح أو هو قابل للتأويل على تقدير صحته.

15- جواز القيام على رأس العظيم وهو جالس، ومحل ذلك إنما يكون عند قدوم رسل المسلمين على الكافرين أو العكس إظهارا لعز الإسلام وتعظيم الإمام وطاعته، وأما القيام على عظيم في غير هذه الحالة فليس من هدي النبي ﷺ، بل هو الذي ذمه النبي ﷺ ونهى عنه بقوله: « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[1]

15- استحباب الفأل الحسن، وهو نقيض الطيرة، ويؤخذ ذلك من قوله ﷺ لما رأى سهيل يقبل: « لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ »

وهناك فوائد ودروس وعبر كثيرة من الناحية العقدية والفقهية والأصولية وغيرها أغفلنا ذكرها خشية خروج الكتاب عن المقصود، لكونه مؤلفا للطلبة المتوسطين.

1- أخرجه أبو داود: (5229) وهو صحيح الإسناد.

بعث الرسائل إلى الملوك

بعد تمام هذا الصلح المبارك الذي هو مقدمة عظيمة من مقدمات الفتح الأعظم فتح مكة الذي به تم استيلاء الدعوة النبوية الجزيرة، أخذ النبي ﷺ يكتب الرسائل إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى دين الحق ونصرته، واتخذ من ذلك خاتما من فضة يختم به رسائله.

قصة أبي سفيان مع إمبراطور الروم قيصر هرقل ونص كتاب النبي ﷺ إليه:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: « أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ ـ وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّامِ ـ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ[1] فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا.

فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ

1- بإيلياء: قيل: معناه بيت الله، ويقال: إليا بحذف الياء الأولى وسكون اللام.

ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا.

وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ تَأَسَّى بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ

أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ[1] الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ،؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ[2] لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ[3] وَ"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" آل عمران: (64)

1- بشاشته: أي انشراحه.

2- لتجشمت: أي لتكلفت الوصول إليه.

3- أريسيين: جمع أريسي منسوب إلى أريس، وهو الفلاح، وقيل: الأمير، والمعنى: إن توليت فإن عليك إثمك وإثم الضعفاء والأتباع الذين تحتك.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ،[1] وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ[2] أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا[3] عَلَى نَصَارَى الشَّامِ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ. قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً[4] يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ[5] مُلْكِكَ ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ، يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ،

1- الصخب: أي اختلاط الأصوات وارتفاعها.

2- أمر: أي عظم.

3- سقفا على النصارى: بالضم جمع السقف المعروف، والمراد هنا كناية عن اطلاعه على أسرارهم، وإلمامه بحقائق أخبارهم.

4- حزاء: أي كاهنا.

5- مداين: جمع مدينة، ويقال: مدائن، وهو المشهور المعروف.

فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ؟ فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ.

ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ[1] حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِي ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ[2] لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ، فَحَاصُوا[3] حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ.

وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ »[4]

وهكذا تتابعت مكاتبة النبي ﷺ الملوك، فبعضهم يرد عليه ردا حسنا وبعضهم يرد عليه ردا قبيحا، ومن الملوك الذين كاتبهم: كسرى ملك إمبراطورية الفرس، ولما جاءه الكتاب غضب ومزقه، فدعا النبي ﷺ عليه بأن يمزق الله ملكه، وقد فعل، ومنهم الْمُقَوْقِسُ أمير مصرى من قيصر، ومنهم الحارث بن عمير الأزدي أمير بصرى، والنجاشي ملك الحبشة، وقد احترم كتاب النبي ﷺ احتراما كبيرا، ثم أسلم وكتم إيمانه،

1- يرم: أي لم يبرح من مكانه.

2- دسكرة: أي القصر الذي حوله بيوت.

3- فحاصوا: أي نفروا من قوله هذا.

4- أخرجه البخاري في بدء الوحي: (7)

ولما مات نعاه النبي ﷺ وصلى عليه صلاة الغائب، ومنهم المنذر بن ساوي ملك البحرين، وجيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان، والحارث بن أبي شمر ملك دمشق من هرقل، وهوذة بن علي ملك اليمامة، وخلق سواهم، ومن الذين يقومون بحمل هذه الرسائل إلى هؤلاء الملوك من أصحابه ﷺ: عمرو بن أمية الضمري وهو الذي أرسل إلى النجاشي، ودحية بن خليفة الكلبي المبعوث إلى قيصر عظيم الروم، وعبد الله بن حذافة المبعوث إلى كسرى عظيم الفرس، وحاطب بن أبي بلتعة المرسل إلى المقوقس أمير مصرى رضوان الله عن الجميع.

غزوة خيبر

كانت هذه الغزوة في محرم السنة السابعة للهجرة، وكانت خيبر أرضا زراعية ذات الحصون على بعد مائة ميل من شمال المدينة يسكنها اليهود، وقد التحق بهم يهود بني النضير وقينقاع الذين أجلاهم النبي ﷺ من المدينة نتيجة غدرهم، وأنت خبير بما كان عليه اليهود من المكر والدس والغدر والخداع، وشدة العداوة للمسلمين مع سعيهم ليل نهار لإحباط الدعوة النبوية والقضاء على صاحبها، والآن قد ساد الأمن والسلامة المنطقة فلم يبق خطر يهدد الدعوة إلا هؤلاء اليهود، فإنهم معدن التحرشات وإثارة الحروب، ولذلك رأى النبي ﷺ أهمية لفت نظره إليهم وأن الموعد حسم مادتهم الخبيثة قد آن.

فأمر الصحابة رضوان الله عليهم بالتجهيز لحربهم، فتحرك بهم إلى العدو، وكان الذين خرجوا معه أصحاب بيعة الرضوان لا غيرهم، وكانوا خمسمائة وألف كما تقدم، وذلك بأمر النبي ﷺ، واستخلف على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَةَ الغِفاري رضي الله عنه.

فواصل النبي ﷺ السير حتى دنا خيبر وأشرف عليها، فأخذ يقول: « اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرَضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا »[1]

1- أخرجه النسائي في السنن الكبرى: (10377) عن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، وهو حسن الإسناد.

وطفق الصحابة يرفعون أصواتهم بالتكبير والدعاء، فأمرهم النبي ﷺ بأن يربعوا على أنفسهم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: « لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ ـ أَوْ قَالَ لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ـ أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهْوَ مَعَكُمْ"

وَأَنَا خَلْفَ دَابَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعَنِي وَأَنَا أَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَقَالَ لِي: "يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ" قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟" قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ »[1] أخرجه البخاري.

وكان ﷺ إذا أتى قوما بليل لم يُغِزْ بهم حتى يصبح، وقد وصل إليهم ليلا، فلما أصبح خرجت اليهود من حصونهم بمَسَاحِيهم ومَكَاتِلِهِم،[2] فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: والله محمد والخَمِيسُ،[3] فقال النبي ﷺ: « خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ »[4] أخرجه البخاري.

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر: (4205)

2- مساحيهم: جمع مسحاة بكسر الميم، وهي آلة الحرث، و(مكاتلهم) جمع مكتل بكسر الميم، وهو وعاء كبير من ورق النخل، أي السلة.

3- الخميس: أي الجيش.

4- أخرجه البخاري في المغازي: (4197)

ورجعوا إلى داخل المدينة هاربين وتحصنوا بحصونهم، وكانت حصونهم ثمانية مانعة، وهناك حصون صغيرة دون هذه الثمانية، فأخذ المسلمون يفتحون هذه الحصون حتى تحقق لهم النصر، واستشهد من المسلمين خمسة عشر رجلا، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعين رجلا، وغنم المسلمون الغنائم الكثيرة التي لم يغنموا مثلها من قبل.

ثم صالح أهل خيبر النبي ﷺ على أن يجليهم منها ويترك نساءهم وذراريهم ويحقن دماء من بقي في الحصون من رجالهم، فرضي رسول الله ﷺ بذلك، فصارت خيبر للمسلمين.

ولما كانت خيبر أرضا زراعية وأهلها أعرف الناس بأراضيها أكثر من الصحابة، وكون الصحابة أيضا مشتغلين عن زراعتها بالجهاد في سبيل الله، عاملهم نبي ﷺ بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع، وأنه إن شاء أن يُخْرِجَهم أخرجهم، ولم يزل الأمر كذلك حتى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم أجلاهم عمر.

وقسم النبي ﷺ خيبر ستة وثلاثين سها لكل سهم مائة سهم حيث يكون المجموع ثلاثة آلاف وستمائة سهم، وأخذ نصف ذلك هو وأصحابه الذين قاتلوا معه في فتحها، وجعل النصف الباقي في مصالح المسلمين العامة.

وفي هذه الغزوة أهدت زينب بنت الحارث اليهودية زوج سلام بن مشكم كراع شاة مسمومة للنبي ﷺ، وأكل منها بشر بن البراء فمات من فوره، وعلم النبي ﷺ أنها مسمومة بطريقة الوحي، قال أبي هريرة رضي الله عنه: « لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ" فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: "إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْهُ؟" فَقَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ أَبُوكُمْ؟" قَالُوا: فُلَانٌ، فَقَالَ: "كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ" قَالُوا: صَدَقْتَ.

قَالَ: "فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟" فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا.

فَقَالَ لَهُمْ: "مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟" قَالُوا نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا.

ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

قَالَ: "هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟" قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: "مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟" قَالُوا أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ »[1] أخرجه البخاري.

فوائد وعبر:

وبالجملة تدلنا أحداث هذه الغزوة على أن الإسلام هو دين الحق الذي ارتضاه الله تعالى واختاره لعباده، وأن رسالة النبي ﷺ حاكمة على جميع الرسالات السموية الماضية، وأن المحن والشدائد من أكبر وسائل النصر والنجاح، فانظر كيف كان النصر يَطَّرِدُ للمسلمين بعد ما لاقوه من الشدائد التي تتفطر السموات بثقلها، وما هذا إلا نتيجة صبرهم وثباتهم على دينهم.

1- أخرجه البخاري في الجزية، باب إذا غدر المشركين بالمسلمين هل يعفى عنهم؟: (3169)

ومما يستفاد من هذه الغزوة أيضا جواز المزارعة والمساقاة، وهو مذهب فقهاء المحدثين وغيرهم من العلماء والتحقيق، وقد استوفينا الكلام عن ذلك في كتاب (الفتوحات الرحمانية بشرح عمدة الأحكام) ولله الحمد والمنة.

وهناك فوائد وأحكام كثيرة تضمنتها هذه الغزوة، وهي موجودة في المطولات المبسوطات التي تعتني بذلك، وبالله التوفيق.

بعض الحوادث التي بين خيبر والفتح الأعظم

هناك حوادث كثيرة بين غزوة خيبر وفتح مكة الفتح الأعظم، وهاك بيان هذه الحوادث على الإجمال فيما يأتي:

عودة مهاجري الحبشة:

قبل رجوع النبي ﷺ من خيبر قدم عليه مهاجري الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب، وهم ستة عشر رجلا وامرأة، ومعهم الأشعريون أبو موسى الأشعري وجماعته رضي الله عن الجميع.

زواج صفية:

كانت صفية بنت حيي رضي الله عنها من ضمن سبايا خيبر، وكانت بنت سيد بني النضير حيي بن أخطب، فأعتقها النبي ﷺ وزوجها وأصدقها عتقها بعد أن أسلمت، عن أنس رضي الله عنه قال: « قَدِمْنَا خَيْبَرَ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ ذُكِرَ لَهُ جَمَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا، فَاصْطَفَاهَا النَّبِيُّ ﷺ لِنَفْسِهِ، فَخَرَجَ بِهَا، حَتَّى بَلَغْنَا سَدَّ الصَّهْبَاءِ حَلَّتْ،[1] فَبَنَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ صَنَعَ حَيْسًا[2] فِي نِطَعٍ[3] صَغِيرٍ، ثُمَّ قَالَ لِي: "آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ"

1- حلت: أي طهرت من الحيض حيث تحل للخطاب.

2- حيسا: هو الطعام المصنوع من التمر والأقط والسمن.

3- نطع: هو البساط من الجلد، والجمع: أنطاع ونطوع.

فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَتَهُ عَلَى صَفِيَّةَ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُحَوِّي[1] لَهَا وَرَاءَهُ بِعَبَاءَةٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ، فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ، وَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ »[2] أخرجه البخاري.

تحريم نكاح المتعة:

وفي غزوة خيبر نهى النبي ﷺ عن نكاح المتعة، وهو أن يتزوج الرجل المرأة إلى أجل مضروب، وكان من أمور الجاهلية، فلما جاء الإسلام أقره، ثم حرمه.

عمرة القضاء:

في ذي القعدة من السنة السابعة خرج النبي ﷺ هو وأصحابه لقضاء عمرة الحديبية، وكان عدد من خرج معه ألفين سوى النساء والصبيان، ولم يتخلف أحد من أصحاب الرضوان إلا من استشهد بخيبر أو مات، وولى على المدينة أبا ذر الغفاري، وساق معه الهدي ستين بدنة، ولم يزالوا بمكة حتى أدوا مناسكهم.

ثم تزوج النبي ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية أخت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، وبنى بها بسرف.

وقد جاء النَّبِيَّ ﷺ في هذه الظروف الفتوحُ العظيمةُ، منها، فتح أرض فدك حيث انقاد من يسكنها من اليهود للنبي ﷺ، وصالحوه على أن يحقن دماءهم ويترك أموالهم، وكانت أرضهم لرسول الله ﷺ خالصة.

1- يحوي لها: أي يجعل لها حوية، وهي كساء محشودة تدار حول الراكب.

2- أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر: (4211)

ومنها أيضا فتح وادي القرى حيث قاتل المسلمون من يقطنها من اليهود وانتصروا عليهم وغنموا أرضهم وأموالهم، ثم عاملهم نبي ﷺ كأهل خيبر.

ومنها صلح تيماء، صالح أهلها من اليهود على دفع الجزية، ومنها إسلام خالد بن الوليد المخزومي أحد قادة المشركين يوم أحد، وعمرو بن العاص السهمي، وعثمان بن طلحة العبدري رضي الله عن الجميع.

ثم تتابعت البعوث والسرايا، منها سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خرج في شعبان في ثلاثين رجلا إلى جمع من هوازن.

ومنها سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه، خرج في شعبان في ثلاثين رجلا لغزو بني مرة بناحية فدك.

ومنها سريته أيضا، خرج في شوال في ثلاثمائة إلى جماعة من غطفان.

ومنها سرية غالب بن عبد الله الليثي، خرج في رمضان في مائة وثلاثين لغزو بني عوال وبني عبد ابن ثعلبة، وفيها قَتل أُثامةُ بن زيد رضي الله عنه الرجلَ الذي قال: لا إله إلا الله.

ومنها سريته أيضا، خرج في صفر إلى بني الملوح بناحية القديد.

ومنها سريته أيضا، خرج بعد رجوعه ظافرا في مائتي رجل لأخذ الثأر من بني مرة بفدك، وذلك أنهم اعتدوا على سرية بشير بن سعد رضي الله عنه.

ومنها سرية كعب بن عمير الغفاري، خرج في خمسة عشر رجلا إلى ذات أطلاح من أرض الشام.

ومنها سرية أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، خرج في رجب في ثلاثمائة إلى جهينة لغزوها.

ومنها سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه، خرج في جمادى الآخرة في ثلاثمائة إلى قبيلة قُضَاعَةَ التي تقطن وادي القرى.

غزوة مُؤْتَةَ

وقعت هذه الغزوة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وسببها مقتل الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه رسول نبي الله ﷺ إلى أمير بصرى حيث أخذه شرحبيل بن عمرو الغساني والي الْبَلْقَاء إحدى أراضي الشام من جهة الروم فضرب عنقه، ومن المتعارف عليه أن قتل الرسل والسفراء من أشنع الجرائم، ولذا جهز النبي ﷺ جيشا لأخذ الثأر منهم.

وكان عدد رجال الجيش ثلاثة آلاف محارب تحت رعاية زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال ﷺ: « إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ »[1] وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى القائد.

ثم أوصاهم ﷺ بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، ويدعوا مَنْ كان يقطنه إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: « اغْزُوا بِسْمِ اللهِ، فَقَاتِلُوا عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ بِالشَّامِ، وَسَتَجِدُونَ فِيهِمْ رِجَالًا فِي الصَّوَامِعِ مُعْتَزِلِينَ مِنَ النَّاسِ، فَلَا تَعَرَّضُوا لَهُمْ، وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ لِلشَّيْطَانِ فِي رُءُوسِهِمْ مَفَاحِصُ[2] فَافْلَقُوهَا[3] بِالسُّيُوفِ،

1- أخرجه البخاري: (4261)

2- مفاحص: جمع مفحص بفتح الميم، وهو الحفرة التي تحفرها الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها.

3- فافلقوها: أي فشقوها بالضرب بالسيف.

وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَغِيرًا ضَرَعًا،[1] وَلَا كَبِيرًا فَانِيًا، وَلَا تَقْطَعُنَّ شَجَرَةً، وَلَا تَعْقِرُنَّ[2] نَخْلًا، وَلَا تَهْدِمُوا بَيْتًا »[3]

فسار الجيش في رعاية الله تعالى حتى نزل بمؤتة مقتل الحارث رضي الله عن الجميع، فبلغهم أن هرقل عظيم الروم بِمَآبَ من أرض البَلْقَاء ومعه مائة ألف مقاتل، وانضم إليه قبائل العرب: لَخْم، وجُذَام، وبَلْقَيْن، وبَهْرَاء، وبَلِي، مائة ألف محارب، فأخذ قادة الجيش الإسلامي يتشاورون فيما بينهم: أنرسل إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد العدو فيمدنا بالرجال أو يأمرنا بأمره فنمضي له؟ أم نقدم على الحرب؟

فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مشجعا لهم: يا قوم، والله إن التي تكرهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، فاستقر الأمر على ذلك. ثم التقى الجمعان أحدهما مؤمن والآخر كافر، واقتتلوا، فقاتل قائد الجيش الإسلامي زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى استشهد، فأخذ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الراية قائلا:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا ... طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا

وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا

عَلَيَّ إِنْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

1- ضرعا: أي الذي يتناول ضرع أمه، وهو كناية عن كونه غير فطيم.

2- ولا تعقرن: أي لا تقطعن.

3- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: (18156) وهو ضعيف منقطع، غير أن له شواهد يعتضد بها.

وما يزال يقاتل رضي الله عنه حتى شرفه الله بالشهادة ولحق بصاحبه، فأخذ عبد الله بن رواحة الراية، وقال مخاطبا نفسه:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهْ ... طَائِعَةٌ أَوْ لَا لَتُكْرَهَنَّهْ

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّهْ ... مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ

قَدْ طَالَمَا كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ

فلم يزل يقاتل رضي الله عنه حتى أكرمه الله تعالى بالشهادة والتحق بصاحبيه، ثم أخذ الراية أسد الله الباسل وسيفه المسلول البتار خالد بن الوليد، وجاء بخبراته الحربية فقاتل قتالا شديدا حتى انكسر في يده تسعة أسياف، فلما كان الغد خالف ترتيب العسكر حيث جعل مقدمته مؤخرة والمؤخرة مقدمة، والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، فأصاب الروم الرعب وظنوا أن المدد جاء للجيش الإسلامي، فلما تراءى الفريقان، أخذ خالد يرجع بجيشه إلى الوراء، ولم يتبعهم أحد من الرومان ظنا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء حيث لا يستطيعون التخلص، لكونهم ليس عندهم الخبرة بالقتال في الصحراء خلافا للعرب، وبهذا تم النصر للجيش الإسلامي ورجعوا إلى المدينة سالمين.

وقد نعى النبي ﷺ الشهداء الثلاثة: مولاه زيد بن حارثة، وابن عمه جعفر بن أبي طالب، وشاعره عبد الله بن رواحة رضوان الله عن الجميع، وحزن ﷺ عليهم حزنا شديدا حتى ذرفت عيناه.

فوائد وعبر:

وبالجملة تشهد هذه الغزوة على مدى شجاعة وافية للصحابة الكرام رضوان الله عليهم وإقدام كامل للمهالك مع ثبات مدهش من أجل إقامة هذا الدين وطاعة لله ورسوله ﷺ، فإن مواجة الجيش الإسلامي المتقدم الذي لا يجاوز قوامه ثلاثة آلاف مقاتل للجيش الروماني العرمرم الذي يشبه البحر الخضم أمر مدهش لم تشهد مثله البشرية منذ بداية تاريخها، وأشد من ذلك إعجابا رفضهم طلب المدد من النبي ﷺ وانتصارهم على هذا الجيش الكبير الذي ضاعف عدده عدد جيشهم الإسلامي ما يزيد على ست وستين مرة حيث كان كل من المسلمين قد قاتل ستة وستين رجلا أو أكثر من العدو، فيا هذه الشجاعة المدهشة، ويا هذا الثبات الباهر.

غزوة فتح مكة

في رمضان السنة الثامنة من الهجرة أمد الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بفتح عظيم، وهو فتح مكة الذي به تم استيلاء الإسلام على بلاد العرب، واستنقذ به حرمه المكي وبلده الآمن، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، وسبب هذه الغزوة أن جماعة من بني بكر استعانت بقريش على خزاعة بالرجال والسلاح، وكان من مقتضى صلح الحديبية أن من أراد أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءا من ذلك الفريق، فمن اعتدى عليها فكأنما اعتدى على الفريق بأجمعه.

فدخلت خُزَاعَة في عهد النبي ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكان بين هاتين القبيلتين عداوة في الجاهلية، فكمنت نارها بسبب هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر، فاستغلت بنو بكر هذه الفرصة، فخرج نَوْفَل بن معاوية الدِّيلي في جماعة من بني بكر، فأغاروا على خزاعة ليلا، وقتلوا منهم ما يزيد على عشرين رجلا بمساعدة حلفائهم قريش، وضيقوهم حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه، قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال نوفل: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتَسرِقُون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

ثم ندمت قريش على مشاركتهم بني بكر في هذا الاعتداء، فأرسلوا أبا سفيان من فورهم إلى النبي ﷺ ليجدد العقد ويمادده ظنا منهم أن الخبر لم يصل إليه ﷺ، فلم

يجبه النبي بشيء، ثم واجه بعض أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر كي يكلما النبي ﷺ في ذلك، بيد أنهما لم يفعلا، فانقلب خائبا.

وتجهز النبي ﷺ للتحرك في جيش عظيم قوامه عشرة آلاف مقاتل، وقد بالغ ﷺ في كتمان مقصده حيث لم يترك كل طريق يصل منه الخبر لقريش إلا سده، وقال: « اللَّهُمَّ خُذِ الْعُيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى نَبْغَتَهَا فِي بِلَادِهَا »

وكان حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه رجلا صالحا، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وكان حليفا لقريش وليس منهم، وكان ماله وولده عندهم، ولذا كتب كتابا لقريش يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم، ودفعه إلى جارية لتوصله إليهم على جعل، فجاء الوحي من السماء يعلم النبي ﷺ بذلك، فبعث النبي ﷺ في أثرها علي بن أبي طالب في نفر من أصحابه.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: « بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ: "انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً[1] مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوا مِنْهَا" قَالَ: فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى[2] بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ قُلْنَا لَهَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ.

قَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلْنَا لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ

1- ظعينة: أي المرأة، وأصل الظعينة الراحلة التي يرحل ويسار عليها.

2- تعادى: أي تجري وتسرع.

مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا حَاطِبُ مَا هَذَا"

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ - يَقُولُ كُنْتُ حَلِيفًا وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا - وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ، يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ"

فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: "إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا قَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ (إِلَى قَوْلِهِ) فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" الممتحنة: 1 »[1] أخرجه البخاري.

ثم تحرك النبي ﷺ بجيشه العرمرم، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، وكان ذلك لعشر مضين من رمضان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه حتى إذا كان بالكديد بين عسفان أفطر وأمر المسلمين بالإفطار كي لا يشق عليهم الصيام.

ولقي النبي ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب ببعض الطريق خرج مهاجرا بعياله، وقد أسلم من قبل، غير أنه كان مقيما بمكة على سقايته بموافقة النبي ﷺ.

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الفتح: (4274)

ثم مضى ﷺ حتى نزل مر الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش فلم يصل إليهم خبر عن رسول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعل.

ثم لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بالأبواء، فطلبا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما: فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال: فلما سمعا ما قال عنهما، قال أبو سفيان، وكان معه ابن له: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيدي بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما وأنشد أبو سفيان بن الحارث قوله في إسلامه واعتذر إليه مما كان مضى منه.

وقد خرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به حتى دنوا إلى مر الظهران، فإذاهم بنيران عظيمة للمسلمين، فأخذوا يتساءلون فيما بينهم عن هذه النيران، فرآهم بعض المسلمين وأخذوهم إلى رسول الله ﷺ.

فلما رآى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، والله قد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا.

فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم. [1]

قال ابن إسحاق: فقال العباس رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس أحبسه بِمَضِيقِ الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها.

قال: فخرجت حتى حبسته بِمَضِيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه قال: ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سُلَيْم، فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مُزَيْنَةُ، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نَفِدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم قال: ما لي ولبني فلان حتى مر رسول الله ﷺ في كَتِيبَتِه الْخَضْرَاءِ.

قال ابن هشام وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها.

قال ابن إسحاق: فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم لا يرى من هم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد

1- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 403)

أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، قال: قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة قال: فنعم إذن.[1]

وفي ذلك قال سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟ قَالَ: "مَا قَالَ؟" قَالَ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: « كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ »[2]

ولما انطلق النبي ﷺ من مر الظهران وتوجه مكة، قال العباس لأبي سفيان: النجاء إلى قومك، فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت[3] الدسم الأحمس[4] قبح من طليعة قوم، قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك، قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

1- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 404)

2- أخرجه البخاري في المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح: (4280)

3- الحميت: زق السمن، أي وعاءه، و(الدسم) الكثير الودك.

4- الأحمس: الشديد اللحم.

ولما انتهى ﷺ إلى ذِي طُوًى، وقف على راحلته مُعْتَجِرًا بِشُقَّةِ بُرْدٍ[1] حِبَرَةٍ[2] حمراء وكان ﷺ يضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إنَّ شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل. [3]

وأمر ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل مكة من أسفلها في بعض الناس، وكان خالد على الْمُجَنَّبَةِ اليُمْنَى، وفيها أَسلَم، وسُلَيْمٌ، وغِفَار، ومُزَيْنَةُ، وجُهَيْنَةُ، وقبائل من قبائل العرب، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين يَنْصَبُّ لمكة بين يدي رسول الله ﷺ من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة ضربت له هنالك قُبَّتَهُ.

وقد تعرضت خيل من المشركين لصد كتيبة خالد رضي الله عنه عن الدخول حتى قتلوا كُرْزَ بن جابر الفِهري، وخُنَيْسَ بن خالد بن ربيعة، غير أن المشركين انهزموا وقتل منهم ما يربوا على عشرين رجلا.

ثم تحرك رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد الحرام، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، ووجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » الإسراء: (81) « قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » سبأ: (49) وكلما طعن صنما من هذه الأصنام تساقط على وجه.

1- معتجرا بشقة برد: أي متلفف بقطعة برد حيث لفها على رأسه ورد طرفها على وجهه

2- حبرة: بكسر الحاء نوع من ثياب اليمن.

3- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 405)

ثم دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها، فإذا فيها صورتي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام، فقال: « قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط » ورأى في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت.

ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ.

أَلَا إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ[1] كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُذْكَرُ وَتُدْعَى مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ.

أَلَا إِنَّ دِيَةَ الْخَطَإِ شِبْهِ الْعَمْدِ مَا كَانَ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا مِائَةٌ مِنَ الإِبِلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا »[2]

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة[3] الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ثم تلا قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » الحجرات: (13)

1- مأثرة: هي كل فعل يترك أثرا طيبا أو العكس.

2- أخرجه أبو داود في الديات، باب دية الخطإ شبه العمد: (4549) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو صحيح.

3- نخوة: أي الحماسة والتكبر.

ثم قال: « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟ » قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: « فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: "لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ" اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ »[1]

ومع ذلك أهدر ﷺ يومئذ دماء جماعة من أكابر المجرمين الذين بالغوا في إيذائه والخوض في عرضه، وأمر بقتلهم أينما ثقفوا وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ارتد بعد إسلامه، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومِقْيَس بن صُبَابة الذي ارتد على عقبه بعد أن قتل أنصاريا، وهَبَّار بن الأسود الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، وسارة التي وجد معها كتاب ابن أبي بلتعة، وقينتان لابن الأخطل كانتا تغنيان بهجوء النبي ﷺ.

أما عكرمة بن أبي جهل، فإنه هرب إلى أرض اليمن، ثم استأمنت له زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فأمنه النبي ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم وحسن إسلامه.

وأما ابن أبي سرح فإنه أتى به عثمان إلى النبي ﷺ، وشفع فيه، فحقن دمه، وقبل إسلامه.

وأما ابن خطل فإنه التجأ إلى الكعبة حيث تعلق بأستارها، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره، فأمره بقتله: فقتله.

وأما هَبَّارُ بن الأسود فهرب، ثم أسلم وحسن إسلامه، فعفا عنه ﷺ.

1- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 412)

وأما مِقْيَسُ بن صُبابة فقتله نميلة بن عبد الله.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله بمكة، فقتله علي.

وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى فأسلمت، وكذلك الأمر في سارة، فإنها استؤمن لها وأسلمت.

ثم خطب ﷺ خطبته المشهورة بين فيها كثيرا من أحكام الإسلام، ومن هذه الخطبة ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ:

« لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » وَقَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ - وَهِيَ سَاعَتِي هَذِهِ - فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ. فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، فَقَالَ: إِلَّا الإِذْخِرَ »[1]

ثم تتابعت مبايعة الناس للنبي ﷺ على الإسلام، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وأتى أبو بكر بأبيه يقوده وقد عمي، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه، قال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ هو أحق أن

1- أخرجه البخاري في كتاب جزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة: (1834) ومسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام: (1353)

يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له: أسلم، فأسلم، قال: فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثَغَامَة،[1] فقال رسول الله ﷺ: غيروا هذا من شعره.

وبايعه النساء بعد بيعة الرجال على ألا يشركن بالله شيئا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه في معروف، وفي ذلك أنزل الله قوله: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » الممتحنة: (12)

وأقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يمهد للناس معالم الإسلام، ويرشدهم إلى سبل النجاة، ومن أعماله التي قام بها خلال هذه المدة إرسال السرايا للدعوة إلى دين الحق، ولكسر الأوثان والأصنام التي كانت حول مكة، فمن هذه السرايا سرية خالد بن الوليد، أرسله ﷺ في ثلاثين رجلا إلى بطن نخلة لهدم العزى، وهي من أكبر صنم قريش، فهدمها، ومنها سرية عمرو بن العاص، أرسله النبي ﷺ لهدم سواع صنم لهذيل، فهدمه، ومنها سرية سعد بن زيد الأشهلي، أرسله النبي ﷺ في عشرين فارسا إلى المشلل لهدم مناة صنم لخزاعة وكلب، والمشلل جبل على ساحل البحر، فهدمه، وهكذا تتابع هذا الإرسال حتى تم كسر هذه الأوثان والأصنام كلها.

1- ثغامة: بفتح الثاء مفرد الثغام بالفتح، وهي شجرة أبيض الزهر والثمر، كانوا يشبهون بها الشيب.

ونادى مناديه: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره.

وبهذا تم هذا الفتح العظيم الذي هو فتح الفتوحات الإسلامية، ومن أعظم النصر للدعوة النبوية المحمدية بعد ما خاضته من الشدائد والمصائب والعوائق.

فوائد وعبر:

لقد اشتملت هذه الغزوة غزوة فتح مكة على أمور عظيمة لا يستغني عنها مسلم، ونلخصها فيما يلي:

1- إن الله تعالى إذا أراد تنفيذ السابق في علمه الغيبي على عبده هيأ له أسبابه وأزال موانعه حتى يتم تنفيذه، لا شك أن ما فعلته قريش من نقض الميثاق والعهد من أكبر الأسباب التي استغلها المسلمون في تحقيق هذا النصر العظيم، والفتح المبين، وما هذا إلا نتيجة صبرهم وثباتهم تجاه أي مصيبة تواجههم في إقامة هذا الدين.

2- إن دم أهل الحرب معصوم بالهدنة إلى غايتها ما لم يغدروا ونكثوا.

3- إن أهل العهد والهدنة إذا خانوا وغدروا ينبذ إليهم عهدهم حيث يصيرون بذلك أهل الحرب.

4- إذا حارب أهل الهدنة من في ذمة المسلمين وجوارهم بطلت الهدنة بحيث يصيرون أهل الحرب بذلك.

5- مشروعية تعمية أخبار جيش المسلمين عن العدو حتى يُفاجأ قبل تأهبه.

6- جواز مباغتة إمام المسلمين العدو المعاهد بالإغارة والحرب إذا ثبت منه الغدر والخيانة.

7- بيان صدق نبوة النبي ﷺ حيث أخبر بالمرأة التي أرسلها حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه بكتاب إلى قريش يعلمها فيه تجهيز النبي ﷺ لها، والمكان الذي يجدها الصحابة المبعوثون إليها فيه، فوجدوها بالمكان كما أخبرهم بذلك ﷺ، وهذا علم من أعلام نبوته ﷺ.

8- إن الرجل الصالح قد يقع في عثرة وهو لا يدري، وهذا لا يطعن في شيء مما كان عليه من الصلاح.

9- إن النبي ﷺ لعلى خلق عظيم كما شهد الله له بذلك حيث قال: « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » القلم: (4)

ويتضح ذلك من حسن تعامله مع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله تعالى عنه فيما ارتكب من قصد إفشاء سره ﷺ للعدو، حيث أقال رسول الله ﷺ عثرته باعتبار أعماله الصاحة السابقة ولم تُنْسِه هذه المعصيةُ محاسنَه السالفةَ، بل كان الأمر على العكس، وهذا هو هديه ﷺ الذي يربي أمته عليه، بيد أن الأسف تجد كثيرا من الناس اليوم لا يقتدون به ﷺ في ذلك، فإن هناك كثيرا من الناس ليس لهم عمل إلا التجسس والتفتيش عن عثرات الناس وزلاتهم، ولا يلتفتوا إلى شيء من خيرهم إلا الشر المحض، تجد المرء قد أنفق ما يزيد على أربعين عاما من عمره في إفشاء الخير ونشره، فإذا وقع على زلة وثب عليه هؤلاء الخبثاء الشُّرْسُ من فورهم بالشتم والتعييب وأخذوا ينشرون هذه الزلة بين الناس، لا شك أن هؤلاء من أخبث الناس وأشرهم، وعملهم هذا دليل على أنهم أفاعي الشر قلوبهم فارغة من الخير.

10- فضيلة أهل بدر، وهم في الدرجة الأولى، وقد استحقوا ذلك لما بذلوه من النفس والمال في سبيل إقامة هذا الدين.

11- جواز السفر في رمضان، وإباحة الإفطار بقطع النظر من وجود المشقة أو عدمها وفقا لكتاب الله تعالى.

12- استدل بعض العلماء بقول علي رضي الله عنه لسارة حاملة كتاب حاطب إلى قريش لما أنكرت وجود الكتاب معها: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. على جواز تعذيب الإمام المتهم بمختلف الوسائل لكشف الجريمة وإظهارها، قلت: هذا ليس على إطلاقه، والتحقيق أن محل ذلك يختص بأمثال هذه القضية.

13- إن من أدب الإسلام مع الناس إنزالهم منازلهم كما عامل النبي ﷺ أبا سفيان رضي الله عنه، غير أن هذا خاص ببابه من معارض الفخر وما في معنى ذلك، وأما في المسائل الدينية فالناس في ذلك سواء لا فرق بين الشريف والوضيع، وبين الغني والفقير، والملك والرعية.

14- بيان مدى تواضع النبي ﷺ حيث بالغ في التواضع لربه تبارك وتعالى مع أن المقام الذي كان فيه مقام الفخر والعز، فيجب على المسلم أن يتأسى به في ذلك بحيث إذا من الله عليه بما يوجب الفخر أن يتواضع لله تبارك وتعالى إشارة إلى أن العزة والعظمة الكاملة لله تعالى.

15- مشروعية إرهاب العدو بإظهار قوة الجيش الإسلامي.

16- بيان مدى كرم النبي ﷺ وما كان عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الإسلام حيث عفا عن قريش الذين بالغوا في إيذائه وتعذيب أصحابه.

17- مشروعية كسر الأصنام والأوثان وهدم هياكلها، لكونها رجس من عمل الشيطان كما بين ذلك جل ثناؤه.

وغير ذلك من الفوائد والدروس والعبر، والله تعالى أعلم وأحكم.

غزوة حنين

بتمام الفتح الأعظم تم تخضيد شوكة قبائل العرب حيث استكانت لرسول الله ﷺ بأجمعها، بيد أن هناك بعض القبائل الشرسة منعتها غطرستها وتشامخها أن تنقاد له ﷺ، وهم بنو هوازن وثقيف، فإنهم توغر صدورهم لهذا النصر العظيم الذي آتاه الله نبيه ﷺ، فحشدوا جموعهم لحرب النبي ﷺ وانضم إليهم بنو سعد بن بكر، وجشم، ونصر وجماعة من بني هلال كل هذه البطون من قيس عَيلان، وكان يرأسهم مالك بن عوف النضري، فخرجوا بأموالهم ونسائهم وولدهم حتى نزلوا بأوطاس، وهو موضع بين مكة والطائف، وحكمة خروجهم بأموالهم ونسائهم وذراريهم كي يشجعهم ذلك على القتال حيث يقاتل كل رجل عن ماله وأهله.

ولما بلغ النبي ﷺ الخبر، تجهز بعد استكشافه عن أحوال العدو، وخرج يوم السبت لست ليال خلون من شهر شوال، وكان معه اثنا عشر ألف مجاهد، عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفان من أهل مكة من حديثي العهد بالإسلام.

وكان حامل لواء المهاجرين علي بن أبي طالب، وحامل لواء الأوس أسيد بن حضير، وحامل لواء الخزرج الحباب بن المنذر رضوان الله عن الجميع.

فواصل الجيش الإسلامي سيره قاصدا وادي حنين، ومر بسِدْرَة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أَنْوَاط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش من حديثي العهد بالإسلام للنبي ﷺ: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ.

فقال: « اللَّهُ أَكْبَرُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: "اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" - الأعراف: 138 - إِنَّهَا السَّنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »[1]

ولم يزالوا يسيرون حتى وصلوا وادي حنين ليلا، وقد أعجب المسلمون بكثرتهم حتى قال بعضهم: لن نغلب اليوم، فابتلاهم الله تعالى من قولهم هذا ليبين لهم أن النصر بيده لا يتحقق بمجرد الكثرة والعدة، فإن الأعداء كمنوا في شعاب الوادي ومضايقه، فلما انحدر المسلمون فيه حمل عليهم العدو حملة واحدة وأخذوا يرشقونهم، فولوا راجعين لا يلوي أحد منهم على أحد، وانهزم المسلمون في هذه الجولة، وفرح بذلك بعض حدثاء العهد بالإسلام حتى قال أبو سفيان: لا تنتهي هذه الهزيمة دون البحر. وثبت النبي ﷺ على راحلته وبعض أصحابه لا يجاوزون ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار، وطفق يقول: "هَلُمُّوا إلي أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله" ثم أخذ ﷺ يركض بغلته قِبل الكفار وهو يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب

فأمر عمه العباس أن ينادي الصحابة لكونه جهير الصوت، فطفق العباس ينادي بأعلى صوته: أين أصحاب السَّمُرَة؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهُم حين سمعوا صوتي عَطْفَة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، وكان الرجل يذهب ليثني بعيره

1- أخرجه الترمذي: (2180) والسنن: بفتح السين والنون أي الطريقة والمثال.

فلا يقدر عليه، فيأخذ درعه، فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا.

ثم توجه إلى الأنصار فقال: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، ثم قصر الدعوة في بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى، واقتتل الفريقان قتالا شديدا، ونظر النبي ﷺ إلى ميدان القتال، وقد استحر، فقال: « الْآنَ حَمِي الوَطِيسُ »

ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها في وجوه العدو وقال: « شاهت الوجوه » فما بقي منهم أحد إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة، فألقى الله في قلوب العدو الرعب وانهزموا هزيمة منكرة حيث تفرقوا فارين لا يلوي واحد منهم إلى شيء من ماله وأهله، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وغنموا أموالهم، وهرب بعض العدو إلى نَخْلَة، وبعضهم إلى أوْطاس، والآخرون إلى الطائف، فبعث رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري إلى أوطاس في جماعة من الصحابة، وقاتلهم حتى انهزموا، واستشهد أبو عامر الأشعري هناك.

وتوجه بعض فرسان المسلمين نخلة للقضاء على من فر إليها من العدو.

وسار النبي ﷺ بنفسه إلى الطائف، بعد أن جمع الغنائم، فوجد العدو قد تحصنوا في حصنهم المنيع، فعسكر الجيش الإسلامي هناك وحاصرهم، وطفقت ثقيف تقذفهم من حصونهم بالنبال واستشهد من ذلك بعض الصحابة وأصيب بعضهم بجراحات، فأمر النبي ﷺ بنصب المنجنيق لنقب الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سِككَ حَديدٍ محماة بالنار فحالت بين تحقيق المقصود، ثم أمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم وأعنابهم،

فقطعت قطعا ذريعا، فناشدت ثقيف النبي ﷺ الله والرحم أن يدعها، ففعل ذلك، ثم نادى مناديه: من ترك الحصن ونزل فهو آمن، فخرج إليه بضعة عشر رجلا.

ثم رجع النبي ﷺ إلى الجعرانة، وبها ترك الغنائم، وكان العدد ستة آلاف أسير، وأربعة وعشرين ألف بعير، وأربعة آلاف أوقية من فضة، والغنم تزيد على أربعين ألف شاة، فخمسها النبي ﷺ، وقسم الباقي بين المجاهدين، وأعطى كثيرا لمؤلفة قلوبهم من الرؤساء حدثاء العهد بالإسلام وغيرهم، ولم يعط الأنصار شيئا من ذلك، وبين لهم وجه ذلك حتى أقنعهم.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ الْمَازِنِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « لَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ وَفِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ: جِئْنَا بِكَذَا وَكَذَا، أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ »[1]

1- أخرجه البخاري في كتاب المغازي: (4330) ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه: (1061)

وكانت في السبي الشيماء بنت الحارث السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فلما جيء بها إلى رسول الله ﷺ عَرَّفَتْ له نفسها، فعرفها بعلامة فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم منَّ عليها، وردَّها إلى قومها.

ثم قدم عليه ﷺ وفد هوازن مسلمين، بقيادة زهير بن صرد، وطلبوا منه أن يرد إليهم سبيهم وأموالهم، فرد إليهم النبي ﷺ سبيهم بعد أن خيرهم بين السبي والمال، فاختاروا السبي.

ثم أحرم النبي ﷺ بالعمرة من الجعرانة، ودخل مكة، فطاف واستلم الحجر، ثم رجع المدينة، وكانت مدة إقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة.

فوائد وعبر:

تنطوي هذه الغزوة على أمور عظيمة بالغة الأهمية في حياة المسلم من جوانب العقيدة، والمعاملة، وبيان أهمها على الإجمال، أن النصر بيد الله تبارك وتعالى لا دخل للكثرة في ذلك كما لا تضر القلة فيه، وغزوة مؤتة المتقدمة من أظهر الأمثلة في ذلك، فينبغي للمسلم أن يخضع لله تعالى في جميع أموره، ويعلم أن نجاحه في إجرائها على الحالة التي يحب إنما يكون ذلك بعون الله تعالى وعنايته لا لمجرد خبرته ولا قوته، فالخبرة والقوة والكثرة إنما هي السبب، وقد جعل الله لكل شيء سببا، وعلى المسلم أن يجتنب الفخر والإعجاب بنفسه فيما بابه التواضع، فإن ذلك من أسباب الفشل كما وقع ذلك للمسلمين في هذه الغزوة حيث اغتروا بكثرتهم وقالوا: لن نغلب اليوم، فابتلاهم الله بالهزيمة في الجولة الأولى، ثم تحقق لهم النصر، وفي ذلك يقول الله تعالى:

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » التوبة: (25-26)

وقد تقدم ذكر معظم نظائر ما اشتملت عليه هذه الغزوة من الفوائد والعبر في الدروس الماضية، وإعادة ذكرها هنا مجرد التكرار، وبالله التوفيق.

السرايا والوفود

بعد حصول ذلك الفتح المبين تتابعت السرايا، ومن هذه السرايا التي كانت بين حنين وتبوك سرية قيس بن سعد، أرسله النبي ﷺ إلى صُداء، وهي قبيلة تسكن اليمن، فخرج إليها في أربعمائة من أصحابه، ودعاهم إلى الإسلام، ومنها سرية الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، أرسله رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق لأخذ صدقاتهم، وسرية بشر بن سفيان العدوي، أرسله ﷺ إلى بني كعب بن خزاعة لأخذ الصدقة، وسرية علقمة بن مُجَزِّز، بعثه ﷺ إلى أهل جموع من الحبشة، فخرج إليهم في ثلاثمائة مقاتل، وسرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بعثه ﷺ لهدم صنم بني طيئ يقال له الفلس، فخرج إليه في مائة وخمسين رجلا، فهدمه وأحرقه، وذلك في ربيع الأول.

وفي هذه الظروف أيضا أخذت الوفود تفد عليه ﷺ، ومن هذه الوفود وفد صداع، وهم خمسة عشر رجلا، ووفد تميم، فيهم عُطارد بن حاجب، وعمرو بن الأهتم، والزِّبْرِقَان بن بدر، ومنها وفد عدي بن حاتم الطائي، وكان عدي نصرانيا، فأسلم.

غزوة تبوك

خضد النبي ﷺ شوكة عدوه الداخلي من العرب، وتوطدت دولته الإسلامية وتمكن دينه في الأرض وانتشر الأمن والسلامة فيها، بيد أن هناك قوة عظيمة تهدد كيان دولته الإسلامية، وهي قوة الرومان التي هي أكبر قوة وجدت على ظهر الأرض عهدئذ، وتقدم لك اصطداد الجيش الإسلامي بهذه القوة في مؤتة ما ترك أثرا كبيرا في الرومان، ومن المعلوم أن هناك معظم بلاد العرب تحت الإمبراطورية الرومانية، ولما رأى قيصر ما آتاه الله المسلمين من الانتصار على العرب وتوطيد الدولة الإسلامية، اعتبر ذلك خطرا عظيما يهدد كيان قوته وسيطرته العسكرية، فقام بتحشيد جموعه كي يواجه هذا الخطر، وضم إليه آل غسان وغيرهم من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرته.

وكانت هذه الغزوةُ معروفةً بـ (غزوة تبوك) وتبوك اسم المكان الذي نزل به النبي ﷺ هو وجيشه الإسلامي في هذه الغزوة، وقد جاء وصفها في القرآن الكريم بغزوة العسرة كما قال تعالى: « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » التوبة: (117)

وسميت بذلك لما أصاب المسلمين فيها من الشدة والمشقة، فإن الزمن زمن شدة الحر، وجدب البلاد، والسفر بعيدة جدا مع قلة الظهر، وعلاوة على ذلك قد طابت الثمار

حيث يحب الناس البقاء في ثمارهم وظلالهم، بيد أن هذه الغزوة حالت بينهم وبين ذلك إذ لا بد من إجابة دعوة الله ورسوله.

وقد جاءت الأنباء للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم حشدت جموعا كبيرة لحربه، وكان قوامه أربعين ألف محارب، وأن طلائعهم وصلت إلى أرض البلقاء.

فقام النبي ﷺ بتجهيز الجيش لمواجهة هذا الخطر الذي يهدد كيان دعوته، واستنفر قبائل العرب الذين أسلموا للخروج، وحث النبي ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة لتجهيز المعسرين، فبدأت مظاهر الإيمان الكامل تتجلى في الصحابة رضوان الله عليهم حيث بالغوا في الإنفاق بما لم يشهد التاريخ مثله منذ بدايته، فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أنفق جميع ماله في ذلك، وهو أربعة آلاف درهم حتى قال له النبي ﷺ: "هل أبقيت لأهلك شيئا؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر الفاروق بنصف ماله ظنا منه أنه يسبق بذلك أبا بكر، وأكثر الصحابة إنفاقا عثمان بن عفان رضي الله عن الجميع، فإنه أنفق في ذلك عشرة آلاف دينار ما يعادل مائة آلاف درهم، وأعطى من الإبل ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ومن الفرس خمسين فرسا، وقد أعجب النبي ﷺ بصنيع عثمان هذا حتى قال: « مَا ضَرَّ عُثْمَانُ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ »[1]

1- أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين: (4611) عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه، وهو صحيح الإسناد.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وَسْقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها كل بقدر طاقته، حتى كان منهم من أنفق مُدا، وحتى النساء لم يألن جهدهن في ذلك، فإنهن يأتين بما قدرن عليه من مَسَك ومعاضد، وخلاخل، وقُرْط، وخواتم.

ولم يبخل أحد بماله إلا المنافقون، بل كانوا يلمزون المصدقين حيث إذا أنفق المرء كثيرا يرمونه بالرياء، وإن أنفق قليلا لكونه لا يستطيع غيره قالوا: إن الله لغني عنه، فيتهمون الموسرين بالرياء، ويسخرون من صدقة المعسرين، فأنزل قوله تعالى: « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » التوبة: (79)

وبعد تمام التجهيز خرج النبي ﷺ بجيشه الإسلامي الكبير الذي يبلغ قوامه ثلاثين ألف مجاهد، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وخلف على أهله علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأعطى أبا بكر الصديق اللواء، وكان ذلك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة.

وقد تخلف كثير من المنافقين معتذرين بأعذار ساقطة، وقال بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، ويقول رأسهم ابن سلول: أيحسب محمد أن غزو بني الأصفر معه اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال، وقال الجد بن قيس للنبي ﷺ: ائذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، وهكذا أخذوا يعتذرون عن الخروج بالأعذار الضعيفة التي لا أساس لها، وأنزل الله فيهم يكشف سريرتهم: « لَا يَسْتَأْذِنُكَ

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۞ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ۞ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » التوبة: (44-49)

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۞ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » التوبة: (81-82)

وأما أصحاب الأعذار من المؤمنين من المرضى، ومن في معناهم فلا حرج عليهم، وليسوا بداخلين في هذه الآيات، كما قال تعالى: « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » التوبة: (91-93)

وكذلك هناك جماعة من المؤمنين تخلفوا بدون عذر ولا نفاق، وإنما وقعوا في مِصيَدة الشيطان، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وستأتي قصتهم بتمامها.

فواصل الجيش الإسلامي العرمرم الذي لم يسبق مثله منذ ابتداء القتال سيره حتى نزل بتبوك، وقد عانى المسلمون في هذه الظروف جهودا شاقة وأتعابا عظيمة، وكان بضعة عشر رجلا يتعاقبون على بعير واحد، وكانوا يأكلون أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، وينحرون إبلهم ليشربوا ما في كرشها من الماء على الرغم من قلتها.

ومروا في طريقهم بالحِجْر ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، ونهاهم النبي ﷺ عن شرب ماء بئرها حيث قال: « لَا تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا وَلَا تَتَوَضَّأُوا مِنْهُ لِلصَّلَاةِ، وَمَا كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوهُ فَاعْلِفُوهُ الْإِبِلَ، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئًا »[1] وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام.

وقال أيضا: « لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِّينَ »[2] ثم قنعَ رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي.

وقد قال لهم النبي ﷺ لما قربوا من تبوك: « إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عَيْنَ تَبُوكَ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يَضْحِيَ النَّهَارُ، فَمَنْ جَاءَهَا فَلَا يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِي »[3]

1- ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام: (2/ 637) وهو مرسل.

2- أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء: (3380)

3- أخرجه ابن حبان في صحيحه: (6537)

فلما وصلوا وجدوا رجلين قد سبقهم إليها، والعين تَبِضُّ بشيء من مائها، فسألهما رسول الله ﷺ: « هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا؟ » قالا: نعم، وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع الْوَشَلُ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ يَا مُعَاذُ، إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَانًا»[1] وذلك أن الأرض كانت لا عمارة فيها، وقد صدق الله قول رسوله ﷺ فكان الأمر كما قال.

وكان أبو خيثمة من الذين تخلفوا بلا عذر ولا نفاق، وذات يوم حار دخل على أهله فوجد امرأتين له في عريشتين[2] لهما في بستانه، قد رشت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاما له، فلما نظر إلى امرأتيه هاتين وما صنعتا له، أثار ذلك إيمانا في قلبه ومحبة لله ورسوله فقال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم! ما هذا والله بالنصف، فقال: والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيأتا له زادا، ولحق بالنبي ﷺ بتبوك.

وبعد نزول المسلمين بتبوك عسكروا هناك، وقام النبي ﷺ خطيبا، فوعظ الناس وأمرهم بتقوى الله تعالى، وحذرهم عن معصيته، وأما الرومان وحلفاؤهم فإنهم ألقى الله في

1- أخرجه ابن حبان في صحيحه: (6537)

2- عريشتين: مثنى عريشة بالفتح، وهي الخيمة من أغصان الشجر أو القصب، وتطلق على الهودج، والجمع عرائش.

قلوبهم الرعب وتفرقوا في بلادهم، ولم يجترئ واحد منهم على التقدم واللقاء، فمكث النبي ﷺ بتبوك عشرين ليلة، وفي خلالها جاءه يُحَنَّةُ بن رُؤْبَةَ صاحب أيْلَةَ، فصالحه على إعطاء الجزية، وكتب له ﷺ كتابا، ونصه: « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذِهِ أَمَنَةٌ مِنَ اللَّهِ وَمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ لِيُحَنَّةَ بِنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ، سُفُنُهُمْ وَسَيَّارَاتُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لَهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْبَحْرِ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًا، فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ، وَلَا طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ »[1]

وكذلك جاءه أهل جَرْبَاءَ وأهل أَذْرُحَ، وأهل مِينَاءَ، فصالحوه على إعطاء الجزية، مائة دينار في كل رجب، وكتب لهم النبي ﷺ كتابا ونصه: « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ - ﷺ - لِأَهْلِ أَذْرُحَ وَجَرْبَاءَ، إِنَّهُمْ آمَنُوا بِأَمَانِ اللهِ وَأَمَانِ مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ عَلَيْهِمْ مِائَةَ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ وَافِيَةً طَيِّبَةً، وَاللهُ كَفِيلٌ بِالنُّصْحِ وَالْإِحْسَانِ لِلْمُسْلِمِينَ »

وصالحه أهل مِينَاء أيضا على ربع ثمارها.

وأرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِرِ دَومَة الجَنْدَل في أربعمائة وعشرين فارسا، وقال له: « إنك ستجده يصيد البقر » فأتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر لصيدها - وكانت ليلة مقمرة -

---

1- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 525)

فتلقاه خالد في خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة رأس وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح.

وبهذا تم تخضيد شوكة الرومان من قلوب العرب، وتوسعت حدود الدولة الإسلامية، وأعز الإسلام والمسلمين حيث أمنوا من كل ما يهدد كيانهم وقتئذ.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولما قرب منها بلغه خبر مسجد الضرار الذي اتخذه المنافقون ليضاد مسجد القباء، ولتفريق جماعة المسلمين، وطلبوا من النبي ﷺ أن يصلي لهم فيه، وحلفوا بالله أنهم إنما أرادوا ببنائه الخير والله يشهد أنهم لكاذبون، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآيات يكشف حقيقة ما قصدوه: « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ۞ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » التوبة: (107-110)

فأمر النبي ﷺ بعض أصحابه أن ينطلقوا إليه ليهدموه، فانطلقوا إليه وهدموه.

شأن الثلاثة الذين خلفوا:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ، قَالَ كَعْبٌ: « لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا.

كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ.

فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهْوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: "مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟" فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ.

فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ

مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ.

ثُمَّ قَالَ: "تَعَالَ" فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: "مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟" فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ" فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي[1] حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبُ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا

1- يؤنبوني: أي يوبخوني ويلومونني.

الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ[1] فِي نَفْسِي الأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهْوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهْوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ

1- تنكرت في نفسي الأرض: أي تغيرت عن حالتها.

لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا.

وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: "لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ" قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينِ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا.

فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ! قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ

إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ.

قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهْوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: "أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ" قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: "لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ" قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ" إِلَى قَوْلِهِ "وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" التوبة: (117-119)

فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ" إِلَى قَوْلِهِ "فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ" التوبة: (95-96)

قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ "وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا" وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَقَبِلَ مِنْهُ »[1]

فوائد وعبر:

لقد انطوت هذه الغزوة بجميع أبعادها على دروس وفواعد وعبر عظيمة نجملها لك فيما يلي:

1- قوة إيمان الصحابة وشدة وثوقهم بالله ورسوله، لقد تجلى في هذه الغزوة الإيمان الكامل، واليقين الصادق للصحابة الكرام رضوان الله عليهم حيث بذل كل منهم قُصارى جهده في هذه الغزوة، لا شك أن ما فعلوه دليل على ما ذكرنا.

1- أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك: (4418)

2- إن صنيع أبي بكر وعثمان وعمر رضي الله عنهم من إنفاقهم أموالهم في هذه الغزوة أمر لم تتشرف البشرية على مثله منذ بداية تاريخها، وكذلك ما فعله سائر الصحابة.

3- ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من إيثار الله تبارك وتعالى ورسوله على هوى النفس مائة في المائة.

4- مشروعية تجهيز المجاهدين في سبيل الله تعالى والحض على ذلك، إذ أن الجهاد من أعظم الطرق التي يسلك لتمكين الدعوة الإسلامية وعز الإسلام وأهله.

5- إن المحاولة على الطعن في أعمال الناس الخيرية علامة من علامات المنافقين، فمن اتصف بذلك ففيه خصلة من خصال المنافقين.

6- مشروعية اجتناب أماكن أهل المعاصي والبعد عنها، ويؤخذ ذلك من نهي النبي ﷺ الصحابة عن دخول ديار ثمود والشرب من بئرها مبالغة في الزجر عن ارتكاب مثل ما فعلوه من الظلم والطغيان كي لا يصيب المرء ما أصابهم من الهلاك والعذاب.

7- ما شرف الله جل ثناؤه به نبيه ﷺ من المعجزات العظيمة.

8- قوة إيمان أبي خيثمة رضي الله عنه وإيثاره الله ورسوله ﷺ على ما تشتهيه نفسه، لا شك أن هذا هو حقيقة الإيمان.

9- نجاح الدعوة النبوية المحمدية وتوطيد أركانها في الأرض، لقد من الله على المسلمين في هذه الغزوة حيث كفاهم قتال أعدائهم الذين كان ما لهم من القوة العسكرية أكبر ما لغيرهم ظهر على وجه الأرض وقتئذ بإلقاء الرعب في قلوبهم ما تسبب من حصول

المسلمين على مكاسب سياسية خطيرة، ودانت لـهم الجزيرة بأرجائها الشاسعة، وما هذا إلا نتيجة صبرهم وثباتهم على الحق.

10- مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب ومصالحتهم على ذلك، وأن دماءهم تحقن بذلك.

11- جواز إبطال ما قصد به تفريق جماعة المسلمين ومعارضة لشريعة الله تعالى كما أمر النبي ﷺ بهدم مسجد الضرار الذي أسسه المنافقون لمحاربة الله ورسوله ﷺ.

12- مشروعية هجران أهل المعاصي من المسلمين كما أمر النبي ﷺ بهجر كعب بن مالك وصاحبيه، وذلك عقوبة لهم على معصيتهم، بَيدَ أن أول ما ينبغي أن يبدأ به قبل ذلك أن يوعظ العاصي ويُنصَحَه، فإن تمادى على معصيته هجر إذن.

13- مشروعية سجود الشكر عند ظهور نعمة إظهارا للشكر لله جل ثناؤه، وهذا من هديه ﷺ، ويشهد على ذلك حديث أبي بكرة رضي الله عنه، قال: « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ أَوْ يَسُرُّ بِهِ خَرَّ سَاجِدًا شُكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى »[1] أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَهُوَ حَسَنٌ.

14- أهمية الصدق في حياة المسلم، لا شك أن الصدق من أكبر وسائل النصر والنجاح في حياة المرء، فلا تكون عاقبة صاحبه إلا خيرا محضا، ولذا بالغ الشارع الحكيم في الحض على مطلوبيته، وعكس ذلك الكذب، وبالله التوفيق.

15- مشروعية صنع المعروف لمن جاء بالبشارة الحسنة، والله تعالى أعلم وأحكم.

1- أخرجه ابن ماجه: (1394) وهو حسن.

ذكر بقية السرايا وأهم الأحداث

بعد تحقيق هذا النصر العظيم أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا إتماما لنعمه تعالى على نبيه ﷺ، وهناك سرايا وأحداث بين غزوة تبوك ومرض النبي ﷺ الذي انتقل منه إلى الرفيق الأعلى، وفيما يليك بيان ذلك بإيجاز.

بقية السرايا:

في ربيع الآخر بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى نجران من أرض اليمن ليدعو من يسكنها إلى الإسلام، فأجابوا دعوته وأسلموا.

وفي رمضان أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى بني مَذْحِجَ ليدعوهم إلى الإسلام، فأبوا ورموا المسلمين بالنبل، فقاتلهم علي رضي الله عنه حتى انهزموا، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وأعطوا صدقاتهم.

وأرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن عاملين له، فمعاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن، وأبو موسى من السفلى، ووصاهما بتقوى الله تعالى والرفق، وأمرهما بدعاء من بهناك إلى الإسلام بالحكمة والبداءة بالأهم فالمهم.

وفي صفر من السنة الحادية عشرة جهز ﷺ جيشا كبيرا فيه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وأَمَّرَ عليه ابن حبه أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، وذلك لتكسير كبرياء الرومان وإزالة غطرستها، وكان أسامة رضي الله عنه في سن

الحداثة، فتكلم جماعة من الجيش في ترئيسه عليهم، فقال النبي ﷺ: « إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ »[1]

وهذه السرية هي آخر سراياه ﷺ، ولم يتم خروجها إلا بعد وفاته ﷺ.

وفود ثقيف:

بعد رجوع النبي ﷺ من تبوك قدم عليه عبد ياليل بن عمرو من كبار ثقيف في خمسة من قومه، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن، ثم أسلموا، وبعث معهم عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه ليعلمهم مسائل دينهم، ولما رجعوا إلى الطائف كتموا إسلامهم لقومهم لما علموا منهم من العناد، ثم أظهروا لهم إسلامهم ودعوهم إلى الإسلام فأسلموا، ولما بلغ النبي ﷺ إسلام ثقيف أرسل أبا سفيان بن صخر والمغيرة بن شعبة الثقفي في نفر من أصحابه لهدم صنم لهم يقال له اللات، فهدموه وسووه بالأرض.

وفاة أم كلثوم:

وفي نفس السنة التاسعة توفيت زوج عثمان بن عفان أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها.

1- أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة زيد بن حارثة: (4250)

وفاة ابن سلول:

في ذي القعدة نفس السنة مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، فجاء ابنه عبد الله رضي الله عنه إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه، ثم سأله أن يصلي عليه، ففعل النبي ﷺ ذلك تطييبا لقلب عبد الله الولد وتأليفا لقلوب الخزرج، فإنهم يعظمونه، ثم جاء الوحي من السماء بنهي رسول الله ﷺ عن الصلاة على من مات منافقا، قال تعالى: « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » التوبة: (84)

وفاة إبراهيم رضي الله عنه:

في السنة العاشرة توفي إبراهيم بن رسول الله ﷺ، ورضي الله عنه، وقد حزن النبي ﷺ على وفاته حزنا شديدا حتى دمعت عيناه.

حج أبي بكر رضي الله عنه:

في ذي القعدة من نفس السنة التاسعة أرسل النبي ﷺ أبا بكر الصديق الأكبر أميرا على الحج كي يري الناس المناسك، وذلك لكون المشركون يحضرون ويطوفون عراة، ولا يحب أن يحج معهم في حالتهم هذه، فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومعه عدد كبير من المسلمين، وساق معه هدي النبي ﷺ عشرين بدنة، وساق هو خمس بدنات، ثم أنزل الله تعالى في إثر ذلك قوله: « وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » التوبة: (3)

فبعث رسول الله ﷺ عليا في إثر أبي بكر رضي الله عنهما ليبلغها الناس ويقول: ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

تتابع الوفود عليه ﷺ

في هذه الظروف أخذت الوفود تُتابع على رسول الله ﷺ تدخل في دين الله جل ثناؤه، وتزيد هذه الوفود على سبعين وفدا، نذكر لك بعضها على وجه الإجمال فيما يليك:

وفد الطيئ:

من هذه الوفود وفد الطيئ، قدموا على النبي ﷺ بقيادة سيدهم زيد الخيل، وقال عنه رسول الله ﷺ: « مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بِفَضْلٍ، ثُمَّ جَاءَنِي إِلَّا رَأَيْتُهُ دُونَ مَا يُقَالُ فِيهِ، إِلَّا زَيْدَ الْخَيْلِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ كُلَّ مَا كَانَ فِيهِ »[1] وسماه زيد الخير.

وفد عبد القيس:

ومنها وفد بني عبد القيس، وفدوا على النبي ﷺ، فأسلموا من غير أن يكرهوا على الإسلام، وقد استقبلهم النبي ﷺ بشكل جيد، وأثنى عليهم خيرا.

وفد نجران:

ومنها وفد نجران، وهم قوم من نصارى نجران، وكانوا ستين راكبا، ولما جاءوا النبي ﷺ دعاهم إلى الإسلام، فدارت بينهم وبينه ﷺ المناقشة، فأبوا عن قبول الإسلام وصالحوه على إعطاء الجزية ألفي حلة، ألف من كل رجب، وألف من كل صفر، ومع كل حلة

1- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 577)

أوقية، ثم طلبوا منه ﷺ أن يرسل معهم أمينا، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح، ومن ثَمَّ سمي أمين هذه الأمة.

وفد بني عامر بن صعصعة:

ومن هذه الوفود وفد بني عامر، فيهم عامر بن الطُّفَيْل، وخالد بن جعفر، وأربد بن قيس، وكانوا من عظماء القوم وشياطينهم، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر مَعُونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ، فلما جاء الوفد أخذ عامر يكلم النبي ﷺ، ودار أربد خلفه، واخترط سيفه شبرا، ثم حبس اللَّه يده فلم يقدر على سله، وعصم اللَّه نبيه، ودعا عليهما النبي ﷺ، فلما رجعا أرسل اللَّه على أربد وجمله صاعقة فأحرقته، وأما عامر فأصيب بغُدَّةٍ في عنقه فمات.

وفد بني فزارة:

ومنها وفد بني فزارة، قدم هذا الوفد بعد عودة النبي ﷺ من تبوك في بضعة عشر رجلًا جاءوا مقرين بالإسلام، وشكوا جدب بلادهم، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فرفع يديه واستسقى، وقال: « اللَّهُمَّ اسْقِ بِلَادَكَ وَبَهَائِمَكَ، وَانْشُرْ رَحْمَتَكَ، وَأَحْيِ

بَلَدَكَ الْمَيِّتَ، اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا،[1] مُرِيئًا[2] مَرِيعًا،[3] طَبَقًا[4] وَاسِعًا، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ، اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحْمَةٍ،[5] لَا سُقْيَا عَذَابٍ، ولا هَدْمٍ وَلَا غَرَقٍ وَلَا مَحْقٍ، اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْأَعْدَاءِ »[6]

وفد بني حنيفة:

قدم هذا الوفد على رسول الله ﷺ في سبعة عشر رجلا، فيهم عدو الله الرجيم مُسَيْلِمة بن ثُمَامَة بن كبير بن حبيب بن الحارث الحنفي الشهير بمسيلمة الكذاب، فلما جاءوا إلى النبي ﷺ دعاهم إلى الإسلام فأسلموا، حاشا مسيلمة فإنه جاء بالاستكبر والطمع في الإمارة حيث يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته فقال ﷺ: « لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ »[7]

1- مغيثا: بضم الميم، أي الغزير الذي يجلب النفع.

2- مريئا: بفتح الميم، أي طيبا سائغا.

3- مريعا: بفتح الميم، أي نافعا مُخْصِبًا.

4- طبقا: أي عاما واسعا.

5- سقيا رحمة: أي اسقنا رحمة.

6- أخرجه أبو داود مختصرا: (1176) وهو صحيح الإسناد.

7- أخرجه البخاري في التوحيد: (7461)

وفد بني ثعلبة:

ومنها وفد بني ثعلبة، قدم على النبي ﷺ مقرنين بالإسلام، وقالوا: يا رسول الله إنا رسل من خلفنا من قومنا، ونحن مقرنين بالإسلام، وقد ذكر لنا إنك تقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال ﷺ: « حَيْثُمَا كُنْتُمْ وَاتَّقَيْتُمُ اللهَ فَلَا يَضُرُّكُمْ »

وهكذا جعلت الوفود تُتابع على النبي ﷺ ما بين السنة التاسعة والعاشرة، ومنها وفد بني سعد، ووفد بني أسد، وبني عبس، وبني عُذْرَةَ، وبني مُحَارِب، وبني عامر بن قيس، وثقيف، ووفود أهل يمن، وغسان، والنخع، وغيرها كثيرة.

حجة الوداع

بعد أن أتم النبي ﷺ أعماله الدعوية، وبلَّغ رسالة ربه للناس ما استغرق ثلاثا وعشرين سنة، ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنين في المدينة، أراد الله تعالى أن يريه ثمار أعماله هذه التي عانى في سبيل تحقيقها صنوفا من المتاعب التي تتصدع بحملها الجبال الشامخات، وتتفطر بثقلها السموات ما يقارب ربع القرن، وذلك بحجة الوداع التي اجتمعت له ﷺ قبائل العرب المختلفة وغيرها من داخل الجزيرة وخارجها، يأخذون عنه مناسكهم، ومسائل دينهم.

وفي ذي القعدة من السنة العاشرة حج النبي ﷺ حجة الوداع التي ودع فيها أمته أمة الإجابة.

تجهز رسول الله ﷺ لها، وأذن في الناس بها، فجعل الناس يقدمون المدينة من كل فج عميق حتى اجتمع عدد كبير يزيد على تسعين ألف رجل (90،000)

فخرج رسول الله ﷺ إلى مكة لخمس ليال بقين من ذي القعدة نفس السنة، واستعمل على المدينة أبا دُجَانَةَ الساعدي، وقيل: سِبَاع بن عُرفُطَةَ الغِفاري.

ولما وصل مكة دخلها من الثنية العليا ثنية كداء بعد أن صلى الصبح، ولما رأى البيت قال: « اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا، وَتَكْرِيمًا وَمَهَابَةً، وَزِدْ مَنْ شَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ مِمَّنْ حَجَّهُ أَوِ اعْتَمَرَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا وَبِرًّا »[1] ثم طاف بالبيت سبعا، واستلم

1- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: (9480) وذكره زكريا الأنصاري في أسنى المطالب: (3/ 177) وإسناده لا يخلو من الانقطاع والإعضال، فهو ضعيف لا يصح.

الحجر، وسعى بين الصفا والمروة، وهكذا طفق في مناسك الحج والناس يقتدون به حتى قضى مناسكه وتم حجه، ولم يحج حجة قط سوى هذه.

خطبة الوداع:

وألقى النبي ﷺ يوم عرفة خطبته الجامعة المعروفة بخطبة الوداع، أبان فيها كثيرا من شرائع الإسلام، وهاك نصها:

قال النبي ﷺ بعد الحمد والثناء على الله جل ثناؤه: أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا.

أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَقَدْ بَلَّغْتُ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا.

وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ وَلَكِنْ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لَا رِبَا، وَإِنَّ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَأَنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دِمَائِكُمْ أَضَعُ دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ فَهُوَ أَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ إنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ بِمَا تُحَقِّرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ: إنَّ النَّسِيءَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَيُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ.

وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنِ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكُسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ فَاعْقِلُوا.

أَيُّهَا النَّاسُ: اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَّغْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، أَمْرًا بَيِّنًا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ تَعَلَّمُنَّ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظْلِمُنَّ أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " اللَّهُمَّ اشْهَدْ.[1]

وقد رويت هذه الخطبة بصيغ مختلفة.

وبعد تمام هذه الخطبة الشريفة المباركة، أنزل الله قوله هذا: « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا » المائدة: (3)

1- انظر الروض الأنف: (4/ 383)

مرض النبي ﷺ ووفاته

بعد أن فرغ النبي ﷺ مناسكه وتعليم الناس إياها، وأتم الله نعمته عليه بإكمال دينه وإظهاره على جميع الأديان الباطلة طفقت أمارات الانتقال إلى الرفيق الأعلى تظهر له، ومن هذه الأمارات خروجه في صفر إلى مقابر شهداء أحد وصلاته عليهم كالمودع للأحياء والأموات، وقوله بعد انصرافه: « إِنِّي فَرَطُكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، إِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ خَزَائِنَ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا »[1]

وخروجه في نفس الشهر إلى مقبرة البَقِيع، واستغفاره لمن دفن بها من موتى المسلمين، وقوله لهم: « وَإِنَّا بِكُمْ لَاحِقُونَ »[2]

ومن أكبر هذه الأمارات مرضه، وكان ابتداؤه في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة في بيت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، وكان أوله صداعا، فأخذ يشتد به حتى قوي، فلما اشتد به المرض استأذن من أمهات المؤمنين أن يمرض في بيت عائشة الصديقة رضي الله عنها، فأَذِنَّ له، وكان يقول: صبوا علي الماء، وذلك لتخفيف حرارة الحمى.

1- أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (3596)

2- أخرجه أحمد في المسند: (24425) من حديث عائشة رضي الله عنها بسند ضعيف، ومسلم: (975) من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه، واللفظ لأحمد.

وهكذا جعل المرض يشتد عليه ﷺ حتى تعذر عليه الخروج إلى الصلاة، فأمر أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يصلي بالناس، وهذا إشارة إلى أنه رضي أن يكون خليفة له بعده، ويشهد على ذلك قوله ﷺ: « إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ »[1]

وأوصى ﷺ بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وبإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، وبالاعتصام بالكتاب والسنة، وبتنفيذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

وفاة النبي ﷺ:

وفي يوم الإثنين اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 11هـ أصاب المسلمين داهية عظيمة وبلبلة شديدة، وهي وفاة النبي ﷺ، لا شك أن تاريخ الإسلام لم ينس بذلك اليوم، توفى ﷺ وله ثلاث وستون سنة، وتوفى أيضا في بيت عائشة رضي الله عنها وهو بين سحرها ونحرها.

ولما انتشر خبر وفاته ﷺ اضطرب الناس اضطرابا عظيما، حتى قال عمر بن الخطاب رضي: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة،

1- أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: « سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر »: (3654)

ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

فجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه من مسكنه بالسُّنْح، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فقصد النبي ﷺ وهو مغشي بثوب حِبَرَة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتَّهَا.

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتشهد أبو بكر، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر:

أما بعد، من كان منكم يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » آل عمران: (144)

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها.

وقال عمر: والله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت أنه الحق، فعقرت حتى ما تُقِلُّني رجلاي،[1] وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات.[2]

ولم يزل الناس مقيمين في بيته ﷺ يتناقشون فيما بينهم في شأن الخلافة حتى ليلة الأربعاء بعد أن أجمعوا أمرهم على تخليف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم غسلوا جسده ﷺ الشريف المبارك الطيب من غير أن يجردوه من ثيابه، والذين تولوا غسله هم العباس وابناه الفضل وقُثَم، وعلي، وشُقْرَان مولى رسول الله ﷺ، وابن حبه أسامة بن زيد، وأوس بن خَوْلِي، رضي الله عن الجميع، فكان العباس والفضل وقُثَم يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره، غسلوه ثلاث غسلات بماء وسِدْر، ثم كفنوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض سَحُولِيَّة من كُرْسُف، ليس فيها قميص ولا عمامة، أدرجوه فيها إدراجًا كما جاء في الصحيح.

ثم دخل عليه الناس أرسالا يصلون عليه فرادى بدون إمام، ثم اختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ »[3]

1- فعقرت حتى ما تقلني رجلاي: أي سقطت لكون رجلاي لا تحملني لما أصابني من الدهش والحيرة.

2- انظر سيرة ابن هشام: (2/ 656) بتصريف.

3- أخرجه ابن ماجه في السن: (1628) وهو ضعيف الإسناد.

فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحدا، وأدخله فيه العباس وابناه المذكوران، وعلي رضي الله عن الجميع.

فوائد وعبر:

قد اشتملت هذه الفاجعة العظيمة المؤلمة على أمور عظيمة يستطيع الناظر استنباطها، وخلاصتها أن الله تعالى هو الملك الحق الذي يدبر الأمور كلها، وكل إله سواه باطل زائل، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن الموت ليس بنقص في حق النبي ﷺ، إذ لو كان نقصا في حقه لم يتوفه الله، وأن النبي ﷺ بشر يجري له ما يجري لغيره من الناس من الأمور الجبلية والخلقية، بَيْدَ أن الله تبارك وتعالى فضله على جميع الخلق، فهو أفضل الخلق وأشرفه على الإطلاق.

وغير ذلك من الدروس والدلالات والعبر، يستطيع الناظر المتأمل استنباطها، والله تعالى أعلم.

شمائل النبي ﷺ ومعجزاته

لفظ الشمائل جمع شَمِيلة، وهي صفات المرء وأخلاقه، فأما صفاته ﷺ الخِلْقِية، فلا شك أنه ﷺ أجمل الناس خلقا وأكملهم، ويشهد على ذلك ما قالته أم معبد الخزاعية عنه وهي تصفه: « رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ، وَلَمْ تُزْرِيهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُّ أَقْرَنُ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ فَصْلًا، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ، يَتَحَدَّرْنَ، رَبْعَةٌ لَا تَشْنَأَهُ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا وَأَحْسَنُهُمْ، قَدْرًا لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إِنْ قَالَ: سَمِعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لَا عَابِسٌ وَلَا مُفَنَّدٌ »[1]

شرح مفردات الكلمات:

قولها: « ظاهر الوَضَاءة » بفتح الواو مصدر وضؤ يوضع، وهو الحسن والجمال، أي ظاهر الحسن والجمال.

1- أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك، في الهجرة: (4326) وهو صحيح الإسناد كما قال مخرجه، وهو كما قال.

قولها: « أبْلَجُ الوجه » من الإبلاج، وهو الإشراق والإضاءة، أي مشرق الوجه مضيئه من حسنه.

قولها: « لم تعبه ثُجْلَة » بضم الثاء فإسكان، أي عظم البطن، وروي بالنون والحاء بدل الثاء والجيم بمعنى النحول والدقة، أي ليس هو بعظيم البطن فيقبح بذلك على الأول، وعلى الثاني أي ليس في بدنه نحول فيقبح منه، فهو وسط بين ذلك كله.

قولها: « ولم تُزْرِ به صَعْلَة » بفتح الصاد، وهو دقة الرأس والعنق، والمعنى أنه ليس نحيلا.

قولها: « وسِيم قَسِيم » على وزن فعيل، أي حسن جميل، فكأن الحسن والجمال صارا له سِمَة.

قولها: « في عينيه دَعَج » بفتح الدال والعين، وهو شدة سواد العين في شدة بياضها، أي هو شديد بياض العين مع شدة بياضها.

قولها: « وفي أشفاره وَطَف » بفتح الواو والطاء، وهو كثرة شعر الحاجبين مع استرخائه وطوله.

قولها: « وفي صوته صَهَل » بفتح الصاد والهاء، وهو حدة الصوت مع خشونته.

قولها: « وفي عنقه سَطَع » بفتح السين والطاء، أي الطول والارتفاع.

قولها: « أحْوَر، أكْحَل » لفظ أحور اسم تفضيل من الحور، وهو شدة بياض العين في شدة سوادها نقيض دعج، وأكحل كالأحور وزنا، أي أسود الأجفان، والأجفان جمع جفن، وهو غطاء العين من أعلى إلى أسفل.

قولها: « أزَجُّ، أقْرَن » أي دقيق شعر الحاجبين مع طولهما، وأقرن، أي مقرون الحاجبين.

قولها: « لا نَزْر ولا هَذَر » أي ليس كلامه بقليل الفائدة، ولا بالكثير الذي لا فائدة فيه، بل هو وسط بين ذلك.

قولها: « رَبْعَة » بفتح الراء، وهو المتوسط القامة، أي ليس هو بقصير ولا بطويل جدا، ويستوي فيه المذكر والمؤنث.

قولها: « مَحْفُود، مَحْشُود » أي يسرع الناس في خدمته، ويجتمعون حوله.

قولها: « لا عَابِس ولا مُفَنَّد » أي ليس هو عابس الوجه وكالحه، ولا منسوبا إلى قلة العقل.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ، وَلَا بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ، وَلَا بِالْآدَمِ، وَلَا بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبْطِ، بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ»[1]

شرح مفردات الكلمات:

قوله: « لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ » أي ليس بالطويل المفرط في الطول، وأصل (البائن) اسم فاعل من بان يبين بيانا بمعنى الظهور.

قوله: « وَلَا بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ » أي ليس هو شديد البياض حيث يخلو عن الحمرة.

قوله: « وَلَا بِالْآدَمِ » من الأدمة، وهي شدة السمرة التي بين البياض والسواد.

قوله: « وَلَا بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبْطِ » بفتح الجيم من الجعودة، وهي تجمع الشعر وتقبضه، و(القطط) بفتح القاف وهو شدة الجعودة، و(السبط) بالفتح أيضا، وهو امتداد الشعر بدون تعقد فيه خلاف الجعودة، أي شعره ﷺ وسط بين الجعودة والسبوطة.

1- أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ: (3548) ومسلم: (2347) والترمذي في الشمائل: (1)

وعَنْ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: « لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ، شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، ضَخْمُ الرَّأْسِ، ضَخْمُ الْكَرَادِيسِ، طَوِيلُ الْمَسْرُبَةِ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ »[1]

شرح مفردات الكلمات:

قوله: « شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ » بفتح الشين، أي غليظ الكفين والقدمين حيث لم يكن فيها دقة ونحول.

قوله: « ضَخْمُ الرَّأْسِ، ضَخْمُ الْكَرَادِيسِ » بفتح الضاد على وزن الضرب، أي عظيم الرأس، و(الكراديس) جمع كُردوس بضم الكاف بمعنى كل عظمين التقيا في مفصل، كالمنكبين، والركبتين، والكوعين، أو رأس العظم.

قوله: « طَوِيلُ الْمَسْرُبَةِ » بفتح الميم، وهي الشعر الذي بين الصدر والسرة.

قوله: « إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ » أي تمايل إلى قدام كأنما يهبط من أرض منحدرة.

وعنه رضي الله عنه، قال: « لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ، لَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبْطِ، كَانَ جَعْدًا رَجِلًا، وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ وَلَا بِالْمُكَلْثَمِ، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ تَدْوِيرٌ، أَبْيَضُ مُشَرَبٌ، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ، أَهْدَبُ الأَشْفَارِ، جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالْكَتَدِ، أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ، شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ،

1- أخرجه الترمذي في الشمائل: (5) وهو صحيح الإسناد.

إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ فِي صَبَبٍ، وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعًا، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، أَجْوَدُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ »[1]

شرح مفردات الكلمات:

قوله: « لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ » لفظ الممغط بضم الميم الأولى وفتح الثانية مع التشديد وكسر الغين اسم فاعل من الانمغاط بمعنى الامتداد، وهو مأخوذ من قولهم امَّغطَ النهار إذا امتد، أي لم يكن النبي ﷺ المتناهي في الطول، والمتردد، أي المتناهي في القصر.

قوله: « رَجِلًا » بفتح الراء وكسر الجيم، أي كان شعره وسطا بين السبوطة والجُعُودة.

قوله: « وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ وَلَا بِالْمُكَلْثَمِ » لفظ المطمهم بضم الميم اسم مفعول من التطميم، وهو انتفاخ الوجه الذي يظهر منه العبوس من السمن الفاحش، و(المكلثم) من الكلثمة، وهو اجتماع اللحم في الوجه، أي لم يكن وجهه ﷺ الكريم منتفخا مجهوما مدورا كل الاستدارة، بل هو أحسن الوجوه وأجملها.

قوله: « وَكَانَ فِي وَجْهِهِ تَدْوِيرٌ أَبْيَضُ مُشَرَبٌ » أي كان في وجهه شيء من الاستدارة، وأنه أبيض مخالط بالحمرة، و(المشرب) اسم مفعول من الإشراب، وهو خلط لون بلون آخر.

1- أخرجه الترمذي في الشمائل: (7) وفي إسناده إنقطاع، لأنه روي من طريق إبراهيم بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يسمع من جده علي، غير أنه يعتضد بشواهده.

قوله: « أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ » أي شديد سوادهما.

قوله: « أَهْدَبُ الأَشْفَارِ » أي طويل الأشفار حيث كانت مسترسلة مسترخية، والأشفار جمع شفر بضم الشين، وهو طرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر.

قوله: « جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالْكَتَدِ » لفظ المشاش بضم الشين بمعنى رءوس العظام كالمنكبين، والركبتين، والمرفقين، والكتد بفتح الكاف، أي مجتمع الكتفين، وقيل: هو الكاهل، والمعنى أنه ﷺ عظيم ذلك كله.

قوله: « أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ » أي لم يعم الشعر جميع بدنه غير أن له مسربة، وهي الشعر الذي بين الصدر والسرة كما تقدم، والأجرد خلاف الأشعر.

قوله: « وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً » أي أصدقهم حديثا.

قوله: « وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً » بفتح العين، وهي الطبيعة، أي هو أسلس الناس طبيعة، أي أسهلهم.

قوله: « مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ » أي أول الرؤية من غير معرفة.

وأما أخلاقه ﷺ فقد تقدم ذكر الأشياء الكثيرة منها في ثنايا هذا الكتاب، ويكفي في ذلك كله قوله تعالى عنه: « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » القلم: (4)

وهذا إشارة إلى أن ما اتصف به ﷺ من مكارم الأخلاق ومحاسنها لا يحيط به وصف، ولذا قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن ذلك: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ" أي صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجية له وخلقا تطبعه، ومن المعلوم

أن القرآن قد بالغ في الحض على مطلوبية مكارم الأخلاق ومحاسن الإسلام، والنهي عن اقتراب ضدها.

وأما معجزاته ﷺ فقد سبق ذكر كثير منها أيضا في هذا الكتاب، وأعظمها القرآن الكريم الذي أعجز عموم الثقلين فصاحة وبراعة.

وجوب اتباع سنته ﷺ

المراد بسنة النبي ﷺ هنا، طريقته التي كان عليها هو وأصحابه من أقواله وأفعاله، فيجب على المسلم أن يوافق النبي ﷺ في جميع أعماله الدينية بأن لا يعبد الله تعالى إلا بما شرعه النبي ﷺ، وألا يخالفه في القدر ولا في الكيفية ولا في غير ذلك من هديه ﷺ، وهذا هو حقيقة متابعة سنته ﷺ كما هو حقيقة محبته ﷺ، وقد تضافرة الأدلة الخبرية على ما ذكرنا لك، منها قول الله تعالى: « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » الحشر: (7) وقوله تعالى: « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ » النساء: (59) أَيْ: إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وقوله تعالى: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » النساء: (65)

وقول رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قِيلَ: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى »[1] رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وقوله أيضا: « فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ »[2] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

1- أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: (7280) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

2- أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة: (4607)

وبهذا تم كتاب (نور على نور في سيرة حامل لواء الشرف والمجد ﷺ) بعناية الله تعالى وحسن توفيقه، والحمد الله أولا وآخرا، وسبحان الله عدد خلقه، وزينة عرشه ومداد كلماته، وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين، محمد بن عبد الله القرشي، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وصحبه الغر الميامين، ومن نحا نحوهم بإحسان إلى يوم الفوز والنجاة.

المؤلف: أبو زكريا أحمد بن أبي بكر بن محمد المصطفى الرغاسي

(21 – 6 – 1446هـ ـــ 22 – 12 – 2024م)

من أهم المصادر والمراجع

1- القرآن العظيم الكريم.

كتب التفسير

2- تفسير ابن أبي حاتم.

أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي – تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – الطبعة الثالثة: (1419) هـ.

3- الجامع لأحكام القرآن.

أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي – دار الحديث القاهرة.

4- المحرر الوجيز.

أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي – تحقيق عبد السلام عبد الشافي – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1422هـ.

5- تفسير القرآن العظيم.

أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي – تحقيق طه عبد الرؤوف – دار الاعتصام.

6- فتح القدير.

محمد بن علي بن محمد الشوكاني – دار ابن كثير – الطبعة الأولى – تخ: 1414هـ.

7- روح المعاني.

شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي – تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1415هـ.

8- التحرير والتنوير.

محمد بن الطاهر بن محمد عاشور التونسي – الدار التونسية.

9- تيسير الكريم الرحمن.

10- عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ شركة القدس للتصدير ـ الطبعة الأولى ـ تخ: 1429هـ.

متون الحديث

11- صحيح البخاري.

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة البخاري – دار الفجر للتراث – ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

12- صحيح مسلم.

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري – دار الفجر – الطبعة الثانية، تخ: 1434هـ.

13- سنن ابن ماجه.

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربي.

14- سنن الدارقطني.

أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني – تحقيق شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – تخ: 1424هـ.

15- السنن الكبرى.

أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي – تحقيق محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – الطبعة الثالثة – تخ: 1424هـ

16- المستدرك على الصحيحين.

أبو عبد الله الحاكم بن محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري – تحقيق مصطفى عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1411هـ.

17- صحيح ابن حبان.

محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البستي – تحقيق شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – تخ: 1408هـ.

18- صحيح ابن خزيمة.

أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري – المكتب الإسلامي.

18- المعجم الكبير.

أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني – تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية – الطبعة الثانية.

19- مسند الإمام أحمد.

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني – تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – تخ: 1421هـ.

20- مسند أبي يعلى.

أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي – تحقيق حسن سليم أسد – دار المأمون للتراث – الطبعة الأولى – تخ: 1404هـ.

21- مسند البزار.

أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار –تحقيق محفوظ الرحمن زين الله – مكتبة العلوم والحكم – الطبعة الأولى – تخ: 2009م.

22- مصنف عبد الرزاق.

أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني – تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي – المكتب الإسلامي – الطبعة الثانية – تخ: 1403هـ.

23- مصنف ابن أبي شيبة.

أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة العبسي – تحقيق كمال يوسف الحوت – مكتبة الرشد الرياض – الطبعة الأولى – تخ: 1409هـ.

24- شرح السنة.

محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن الفراء البغوي – تحقيق شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي – الطبعة الثانية – تخ: 1403هـ.

25- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.

أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي – تحقيق السيد عبد الله هاشم اليماني – دار المعرفة بيروت لبنان.

26- الأدب المفرد.

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري النيسابوري – مكتبة الهدي المحمدي.

27- الشمائل المحمدية.

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي – المكتبة التجارية، ط (1).

28- سلسلة الأحاديث الصحيحة.

أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني – مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

شروح الحديث

شروح صحيح البخاري

29- فتح الباري.

الحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني – دار مصر للطباعة – الطبعة الأولى – تخ: 1421هـ.

30- عمدة القاري.

أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى الغيتابي الشهير ببدر الدين العيني – دار إحياء التراث العربي.

31- شرح صحيح البخاري لابن بطال.

أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال – تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد السعودية – الطبعة الثانية – تخ: 1423هـ.

32- المتواري على أبواب البخاري.

القاضي أبو العباس ناصر الدين أحمد بن محمد الجذامي الإسكندراني الشهير بالزين بن المنير – تحقيق صلاح الدين مقبول أحمد – مكتبة المعلا. الكويت.

شروح صحيح مسلم

33- شرح النووي على صحيح مسلم بن الحجاج.

أبو زكريا يحي بن شرف النووي – مؤسسة المختار – الطبعة الأولى – تخ: 2001م.

34- المفهم.

أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي. دار ابن كثير – الطبعة الأولى – تخ: 1417هـ.

35- إكمال المعلم بفوائد مسلم.

القاضي عياض بن موسى بن عمرون اليحصبي – تحقيق د يحي إسماعيل – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – تخ: 1419هـ.

36- فتح المنعم شرح مسلم.

للأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين ـ دار الشروق ـ الطبعة الأولى (1) 1423هـ.

شروح سنن أبي داود

37- عون المعبود.

محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر شرف الحق العظيم آبادي – دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية – تخ: 1415هـ.

38- معالم السنن.

أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي – المطبعة العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1351هـ.

الكتب الأخرى

39- الاستذكار.

المؤلف السابق – تحقيق سالم محمد عطاء – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى، تخ: 1421هـ.

40- نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار.

محمد بن علي بن محمد الشوكاني – تحقيق عصام الدين الصبابطي – دار الحديث، الطبعة الأولى – تخ: 1413هـ.

41- فيض القدير شرح الجامع الصغير.

زين الدين محمد بن عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي – المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى – تخ: 1356هـ.

42- جامع العلوم والحكم.

زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي – تحقيق حامد محمد الطاهر – دار الفجر – الطبعة الأولى – تخ: 1423هـ.

43- شرح مسند الشافعي.

عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي – تحقيق أبي بكر وائل – وزارة الأوقاف – الطبعة الأولى – تخ: 1428هـ.

44- جمع الوسائل في شرح الشمائل.

نور الدين علي بن سلطان الملا الهروي القاري – المطبعة الشرفية.

كتب التخريج وغيرها

45- نصب الراية.

جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الحافظ الزيلعي – تحقيق محمد عوامة – مؤسسة الريان بيروت – الطبعة الأولى – تخ: 1418هـ.

46- التلخيص الحبير.

أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1419هـ.

47- مختصر خلافيات البيهقي.

أبو العباس أحمد بن فرح بن أحمد الإشبيلي – تحقيق ذياب عبد الكريم ذياب – مكتبة الرشد – الطبعة الأولى – تخ: 1416هـ.

48- البدر المنير.

سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري – تحقيق مصطفى أبو الغيط – دار الهجرة – الطبعة الأولى – تخ: 1425هـ.

49- لسان الميزان.

للمؤلف السابق ـ مؤسسة الأعلمي ـ ط (1) 1390هـ.

50- ميزان الاعتدال.

للحافظ شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي الذهبي – دار المعرفة، ط (1) 1382هـ.

كتب السيرة والتراجم

51- مغازي الواقدي.

أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي الواقدي – تحقيق مارسدن جونس – دار الأعلمي – الطبعة الثالثة: 1409هـ.

52- تاريخ خليفة بن خياط.

أبو عمار خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الأخبري.

53- تاريخ الأمم والرسل والملوك.

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري الآملي – دار التراث – الطبعة الثانية: 1387هـ.

54- الطبقات الكبرى.

أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البغدادي – تحقيق زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم – الطبعة الثانية: 1408هـ.

55- الاستيعاب.

أبو عمرو يوسف بن عبد البر النمري الأندلسي – تحقيق محمد البِجاوي – دار الجيل، الطبعة الأولى: 1412هـ.

56- أسد الغابة.

أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الأثير الشيباني – تحقيق علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى: 1415هـ.

57- عيون الأثر.

أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري – دار القلم – الطبعة الأولى: 1414هـ.

58- السيرة النبوية.

لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط (2)

59- الروض الأنف.

لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، دار إحياء التراث العربي، ط (1)

60- تاريخ ابن خلدون.

أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين الحضرمي – دار الفكر – الطبعة الثانية: 1408هـ.

61- سير أعلام النبلاء.

أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي الذهبي – دار الحديث: 1427هـ.

62- البداية والنهاية.

أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي – دار إحياء التراث العربي – الطبعة الأولى: 1408هـ.

63- الإصابة في تمييز الصحابة.

أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني – دار الكتب العلمية - القاهرة.

64- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ.

للمؤلف السابق – تحقيق حسن حبشي – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

65- شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن عماد العكري – تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير – الطبعة الأولى: 1406هـ.

66- وفيات الأعيان.

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمي – تحقيق إحسان عباس – دار صادر بيروت.

67- تاريخ الخلفاء.

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – مكتبة نزار مصطفى الباز – الطبعة الأولى: 1425هـ.

68- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.

محمد بن عفيفي الباجوري الشهير بالخضري، شركة القدس للنشر والتوزيع، تخ (2007)

69- الرحيق المختوم.

لصفي الرحمن المباركفوري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر.

70- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ـ للدكتور علي محمد الصلابي.

71- هذا الحبيب يا محب. لأبي بكر جابر الجزائري، دار الخاني للنشر والتوزيع، ط: (3)

72- فقه السيرة. لمحمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، ط: (6)

73- فقه السيرة النبوية.

للدكتور محمد سعد رمضان البوطي، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط: (10)

الكتب الأخرى

74- إعلام الموقعين.

شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية – تحقيق محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1411هـ

75- زاد المعاد في هدي خير العباد. المؤلف السابق ـ دار المنار ـ الطبعة الأولى.

76- بدائع الفوائد. المؤلف السابق – دار الكتاب العربي.

77- جلاء الأفهام.

المؤلف السابق – تحقيق شعيب الأرنؤوط – دار العروبة الكويت – الطبعة الأولى، تخ: 1406هـ.

78- الخصائص الكبرى.

لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – دار الكتب العلمية.

79- كتاب الجهاد.

الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي.

80- الاعتصام.

أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي – تحقيق سيد إبراهيم. – دار الحديث القاهرة – تخ: 1432هـ.

81- الدرر السنية في الأجوبة النجدية.

علماء نجد الأعلام – جمع عبد الرحمن بن محمد قاسم النجدي – مكتبة السنة، الطبعة السادسة – تخ: 1417هـ.

82- إحياء علوم الدين.

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي – دار المعرفة – الطبعة الأولى، تخ: 1426هـ.

83- نوادر الأصول.

محمد بن علي بن الحسن بن بشر الشهير بالحكيم الترمذي – تحقيق عبد الرحمن عميرة – دار الجيل بيروت لبنان.

84- تيسير العزيز الحميد.

سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي التميمي – مكتبة الرياض الحديثية.

85- شرح العقيدة الطحاوية.

محمد بن علاء الدين بن محمد بن أبي العز الحنفي – مكتبة الهدي المحمدي – الطبعة الأولى – تخ: 1435هـ.

كتب اللغة والغريب

86- جمهرة اللغة.

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي – تحقيق رمزي منير بعكي – دار العلم للملايين – الطبعة الأولى: (1987)

87- تهذيب اللغة.

أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الأولى: (2001)

88- المحكم والمحيط الأعظم.

أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى: (1421)

89- كتاب العين.

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي – تحقيق د مهدي المخزومي، دار مكتبة الهلال.

90- أساس البلاغة.

أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى: (1419)

91- لسان العرب.

محمد بن مكرم بن علي بن منظور الإفريقي ـ دار صادر بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ تخ: 1414هـ.

92- تاج العروس.

محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي – تحقيق جمع من المحققين – دار الهداية.

93- مقاييس اللغة.

أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار الفكر.

94- القاموس المحيط.

مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروز آبادي – شركة القدس – الطبعة الأولى – تخ: 1430هـ.

95- مختار الصحاح.

زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – المكتبة العصرية، الطبعة الخامسة – تخ: 1420هـ.

96- فقه اللغة وسر العربية.

عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ـ إحياء التراث العربي ـ الطبعة الأولى ـ تخ: **1422هـ**.

97- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير.

أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي – المكتبة العلمية.

98- المعجم الوسيط.

د إبراهيم أنيس وآخرون – الطبعة الثانية – تخ: 1392هـ.

99- القاموس المنجد.

شهاب الدين أبو عمرو – دار الفكر – الطبعة الأولى – تخ: 1420هـ.

100- حروف المعاني والصفات.

عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي – تحقيق علي توفيق الحمد – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – تخ: 1984م.

101- النهاية في غريب الحديث والأثر.

مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير – تحقيق طاهر أحمد الزاوي – المكتبة العلمية.

102- غريب الحديث.

أبو عبيد القاسم بن سلَّام بن عبد الله الهروي – تحقيق د محمد عبد المعيد خان، مطبعة دار المعارف العثمانية – الطبعة الأولى: (1384)

103- غريب الحديث.

أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي – تحقيق سليمان إبراهيم محمد – جامعة أم القرى، الطبعة الأولى: (1405)

104- الفائق في غريب الحديث.

أبو القاسم الزمخشري – تحقيق علي محمد البجاوي – دار المعرفة – الطبعة الثانية.

105- المفردات في غريب القرآن.

أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني – المكتبة التوفيقية – الطبعة الثالثة: (2013) وغير هذه من الكتب المختلفة.

فِهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

مقدمة المؤلف..2
التعريف بالسيرة..7
الفرق بين السيرة والتاريخ...7
التعريف بالتاريخ...7
العرب قبل الإسلام...10
جزيرة العرب..10
أقسام العرب من حيث السلالة..11
العرب البائدة..11
العرب العاربة...11
العرب المستعربة..11
الجاهلية..12
أحوال العرب قبل الإسلام...12
ديانات العرب...13
الأخلاق والتعامل فيما بينهم...13
الاقتصاد...14
الولايات والإمارة في العرب...15
ولاية بيت الله الحرام..15

الرفادة...16
السقاية...16
الحجابة...16
فوائد وعبر..16
النسب الطاهر الشريف..19
عبد المطلب...19
قصة حفر عبد المطلب زمزم.....................................20
هاشم..22
عبد مناف...23
قصي..23
كلاب..23
نضر...23
فوائد وعبر..23
زواج عبد الله بآمنة ومولد المصطفى ﷺ.............................24
فوائد وعبر..25
رضاعته ﷺ..27
فوائد وعبر..30
شق صدره ﷺ وإخراج حظ الشيطان منه................................31
ما يستفاد من هذه الحادثة.......................................33

وفاة أمه آمنة وانضمامه إلى رعاية جده عبد المطلب........................33
فوائد وعبر...35
رحلته الأولى إلى الشام والكدح في التكسب..............................37
فوائد وعبر...38
حرب الفجار...41
ويستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ....................................42
حلف الفضول...43
فوائد وعبر...43
الرحلة الثانية إلى الشام...46
زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها....................................46
فوائد وعبر...47
اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة وقضية التحكيم..............................49
فوائد وعبر...50
علامات دنو النبوة والرسالة...52
فوائد وعبر...53
تبشير السابقين من الأنبياء بظهوره ﷺ....................................54
ما يستفاد من هذا المقطوع...55
مرحلة النبوة والرسالة...56
فوائد وعبر...57

نزول الوحي مرة ثانية..60
مراحل الدعوة النبوية..62
الدعوة في الحالة السرية..62
فوائد وعبر..65
الدعوة في الحالة الجهرية..67
مؤامرة قريش لكف الحجاج عن الإصغاء للدعوة المحمدية....................69
فوائد وعبر..71
الإيذاء والاضطهاد..74
ما يستفاد من هذا المقطع من سيرته ﷺ..81
الهجرة الأولى إلى الحبشة..83
عودة المسلمين من الحبشة..83
الهجرة إلى الحبشة مرة ثانية..86
سعي قريش في رد المهاجرين..86
إسلام البطلين: (حمزة وعمر رضي الله عنهما) 93
فوائد وعبر..96
الأسلوب التفاوضي..99
مقاطعة قريش التعامل مع بني هاشهم..102
فوائد وعبر..105
تأييد الإسلام بوفد نجران..108

ما يستفاد من هذا المقطوع..108
عام الحزن..110
ما يستفاد من هذا المقطع..112
زواجه ﷺ بالسيدة سودة وعائشة رضي الله عنهما........................114
رحلته ﷺ إلى الطائف والدعوة خارج مكة 114
فوائد وعبر..119
منحة الإسراء والمعراج..122
ما يستفاد من قصة الإسراء والمعراج بالإجمال............................125
طوافه ﷺ على القبائل إبلاغا لرسالة ربه..............................127
ما يستفاد من هذا المقطع..129
بيعة العقبة الأولى..130
بيعة العقبة الثانية..130
فوائد وعبر..133
هجرة الصحابة إلى المدينة..135
خطة المشركين وهجرة النبي ﷺ المباركة..............................138
خيمتا أم معبد..145
قصة سراقة بن مالك المدلجي..150
الوصول إلى قباء والنزول بها..152
قدوم المدينة..152

فوائد وعبر..156
بناء المسجد الشريف..160
مشروعية الأذان..162
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار...............................163
فوائد وعبر..165
اليهود والمنافقون في المدينة......................................168
إصدار الوثيقة...171
فوئد وعبر...172
الدفاع عن النفس والمكافحة الدامية..............................173
فوائد وعبر..175
السرايا والغزوات قبل بدر الكبرى...............................176
سرية حمزة بن عبد المطلب...176
سرية سعد بن أبي وقاص...177
سرية رابغ...177
غزة الأبواء...178
غزوة بواط..178
غزوة ذي العُشَيْرَة...178
غزوة بدر الأولى...179
فوائد وعبر..179

التشريعات..181
تشريع صيام رمضان..................................181
تشريع صدقة الفطر..................................182
تشريع صلاة العيد..................................182
تشريع الزكاة......................................182
تحويل القبلة......................................183
غزوة بدر الكبرى...................................184
أسرى بدر..192
فوائد وعبر..194
غزوة ماء الكدر....................................199
غزوة السويق.......................................199
غزوة بني قينقاع...................................200
غزوة ذي أمر.......................................202
غزوة بحران..203
سرية زيد بن حارثة.................................203
مقتل كعب بن أشرف..................................204
زواج النبي ﷺ بحفصة بنت عمر رضي الله عنهما.........206
زواج علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها.........207
فوائد وعبر..207

غزوة أحد.. 210
استشهاد حمزة بن عبد المطلب.. 213
غزوة حمراء الأسد.. 217
بعض حوادث السنة الثالثة.. 219
فوائد وعبر.. 220
السرايا والحوادث بين أحد والأحزاب.. 223
سرية أبي سلمة.. 223
سرية عبد الله بن أنيس الأنصاري.. 223
وقعة الرجيع.. 224
فاجعة بئر معونة.. 226
فوائد وعبر.. 227
غزوة بني النضير.. 229
فوائد وعبر.. 233
غزوة ذات الرقاع.. 234
غزوة بدر الصغرى الأخيرة.. 236
حوادث.. 237
غزوة دومة الجندل.. 237
غزوة بني المصطلق.. 238
دور المنافقين في هذه الغزوة.. 240

حديث الإفك..241
فوائد وعبر...248
غزوة الخندق أو الأحزاب..............................252
موقف المنافقين في هذه الغزوة..........................257
غدر يهود بني قريظة ونقضهم الميثاق.....................258
فوائد وعبر...263
غزوة بني قريظ......................................265
حوادث السنة الخامسة.................................266
فوائد وعبر...268
السرايا والوقائع بين بني قريظة والحديبية...................269
سرية محمد بن مسلمة.................................269
غزوة بني لحيان.....................................271
غزوة ذي قرد.......................................271
سرية عُكَّاشَة بن مِحْصَن..............................272
سرية محمد بن مَسْلَمَة................................273
سرية أبي عبيدة بن الجراح.............................273
سرية زيد بن حارثة الأولى.............................273
سرية زيد بن حارثة الثانية.............................274
سرية زيد الثالثة....................................274

سرية أبي بكر الصديق.......................................274
سرية الخبط...274
سرية عبد الرحمن بن عوف....................................275
سرية على بن أبي طالب..276
سرية كُرْز بن جابر الفهري......................................276
مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيقي..............................277
فوائد وعبر..278
عمرة الحديبية وبيعة الرضوان والصلح..............................279
بيعة الرضوان..288
فوائد وعبر..289
بعث الرسائل إلى الملوك...292
قصة أبي سفيان مع إمبراطور الروم قيصر هرقل ونص كتاب النبي ﷺ إليه.....292
غزوة خيبر..298
فوائد وعبر..301
بعض الحوادث التي بين خيبر والفتح الأعظم.........................303
عودة مهاجري الحبشة...303
زواج صفية..303
تحريم نكاح المتعة..304
عمرة القضاء...304

غزوة مؤتة...307
فوائد وعبر...310
غزوة فتح مكة..311
فوائد وعبر...322
غزوة حنين...326
فوائد وعبر...330
السرايا والوفود..332
غزوة تبوك...333
شأن الثلاثة الذين خلفوا..341
فوائد وعبر...347
ذكر بقية السرايا وأهم الأحداث......................................350
بقية السرايا...350
وفود ثقيف...351
وفاة أم كلثوم...351
وفاة ابن سلول..352
وفاة إبراهيم رضي الله عنه...352
حج أبي بكر رضي الله عنه...352
تتابع الوفود عليه ﷺ...354
وفد الطيئ...354

وفد عبد القيس..354
وفد نجران..354
وفد بني عامر بن صعصعة.................................355
وفد بني فزارة..355
وفد بني حنيفة..356
وفد بني ثعلبة..357
حجة الوداع..358
خطبة الوداع...359
مرض النبي ﷺ ووفاته...................................361
وفاة النبي ﷺ...362
فوائد وعبر...365
شمائل النبي ﷺ ومعجزاته................................366
شرح مفردات الكلمات....................................366
شرح مفردات الكلمات....................................369
شرح مفردات الكلمات....................................370
شرح مفردات الكلمات....................................371
وجوب اتباع سنته ﷺ.....................................374
من أهم المصادر والمراجع................................376